سيرة الضوء

صفحات من حياة الشيخ خطاب صالح الضامن



خطاب عمران الضامن، باحث وأكاديمي حاصل على شهادة الدكتوراه فلسفة في الاقتصاد، عَملَ تدريسياً في عدد من الجامعات العراقية منذ عام 2011م، منها جامعة عشق التركية في أربيل، جامعة الكتاب في كركوك، جامعة سامراء وجامعة تكريت. له عدد من الكتب والبحوث والمقالات المنشورة.

تروي مادة هذا الكتاب سيرة حياة شخصية عسكرية اجتماعية سياسية عراقية متميزة ومؤثرة في محيطها، وهي شخصية الشيخ المقدم خطاب صالح الضامن، وذلك من خلال تسليط الضوء على أحداث ومواقف تأريخية واجتماعية وأمنية وسياسية مهمة وخطيرة مر بها العراق منذ بدايات القرن العشرين وحتى نهاية عام 2015م، فتأثر الشيخ خطاب ببعض تلك الأحداث والمواقف التاريخية تأثراً شديداً، وساهمت في بناء شخصيته، علاوة على تبنيه لمجموعة من القيم العربية والإنسانية النبيلة والتي ميزت شخصيته بشكل ملفت للنظر، فكان للشيخ خطاب مواقف وأدوار استثنائية جديرة بالتدوين والتحليل خلال معظم الحروب والنزاعات والتحديات التي مر بها العراق منذ عام 1983 م وحتى عام 2015م، فساهمت مواقفه مجتمعةً بفرض الأمن والسلام في مجتمعه، وأنقذت أرواح العديد من العراقيين.

يهدف هذا الكتاب الى نشر المواقف الإيجابية والقيم النبيلة بين الأجيال الناشئة، من أجل تعزيز قيم التسامح والسلام والإصلاح والمحبة ووئد الفتن الاجتماعية.

د. خطاب عمران الضامن

سيرة الضوء

صفحات من حياة الشيخ خطاب صالح الضامن

سيرة الضوء

صفحات من حياة الشيخ خطاب صالح الضامن

د. خطاب عمران الضامن

سيرة الضوء

صفحات من حياة الشيخ خطّاب

صالح الضامن

سيرة الضوء .. صفحات من حياة الشيخ خطّاب صالح الضامن

د. خطاب عمران الضامن

الطبعة الأولى 2023

جميع الحقوق محفوظة للناشر، ولا يحق لأي جهة إعادة إصدار هذا الكتاب أو جزء منه، بأي شكل أو واسطة

All rights are to the publisher. This book or parts thereof may not be re produced in any form or by any mens.

تنفيذ وتوزيع: دار قناديل للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى: بغداد 2023

\- - - - - - - - - - -

جميع الآراء في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها

ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

ISBN: 879-9922-678-20-7

سِيرةُ الضوء..

صَفَحات من حياة الشيخ خطّاب صالح الضامن

الدكتور

خطاب عمران الضامن

محتويات الكِتاب

المقدمة

يُمكن اعتبار المصلحين والمبدعين بمثابة الركائز الأساسية لنهضة المجتمعات وتقدمها، منذ أن وُجِدت التجمعات البشرية في الأزمان الغابرة، وحتى وقت كتابة هذه الكلمات؛ في العقد الثالث من القرن الحادي والعشرين، وستبقى سيرُهم ذكرياتٍ عطرة عبر الأجيال، ومصابيحَ تشع بالنور، لتُنير ظلمة المجتمعات البشرية، وتؤنس وحشتها في مسيرتها الطويلة والمضنية نحو السلام والأمن والتقدم، وتُطهّر رجس القلوب الضعيفة من كل أنانيةً وحقد ولؤم وتخلّف؛ جُبلت عليه معظم النفوس البشرية، ليعمّ النور في أرجاء المجتمع، وتُبعث رياح الأمل والإيجابية في بِقاع الأرض، وتتقد في النفوس الكثير من القيم الإنسانية النبيلة، ومنها العدل والرحمة والعطاء والإبداع.

حققت مُعظم المجتمعات البشرية تقدّماً حضارياً وعلمياً كبيراً في مسيرتها الطويلة، فعبرت من ظلمة الجهل صوب نور العِلم، ومن التخلّف نحو التقدّم، فتمكّن الإنسان من نزع مُعظم الطبائع الحيوانية من ممارساته اليومية وذاكرته العميقة، واستبدلها بالقيم الإنسانية المتحضرة، والتي تؤكد على حقوق الإنسان في الحياة الحرة الكريمة، ولا أظنّ أن هذا التقدّم والتحضر كان من الممكن أن يتحقّق دون وجود المضحين والمتميزين، بل إن المزيد من الظلم والجهل والتخلّف كاد ليزداد دون وجودهم.

يُخبرنا التأريخ الإنساني المكتوب والمروي؛ بوجود القليل من الأخيار عبر الزمن، منهم الملوك والحكام الصالحين، ومنهم الأنبياء، ومنهم المفكّرين والأدباء والمخترعين والقادة الاجتماعيين والسياسيين، وهم على قلّةِ عددهم قياساً بغيرهم، تركوا آثاراً إيجابية كبيرة في مجتمعاتهم بصورة خاصة، وفي المجتمع البشري ككل بصورةٍ عامة، وذلك من خلال

جهودهم التنويرية والإصلاحية والإبداعية في مختلف مجالات الحياة، على المستويات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعلمية، والتي غيّرت وجه التأريخ البشري؛ نحو الأفضل والأجمل.

قدّم بعض المتميزين حياتهم ثمناً لإصلاح محيطهم وتصحيح مساره، فكانوا شُهداءَ في سبيل خدمة مجتمعاتهم، بينما قدّم البعض منهم سني حياته وراحته وأمواله في سبيل إصلاح مَــن حوله.

حظيَ البعض منهم على استحقاقهم من التقدير والتكريم في حياتهم، أو بعد مماتهم، فأنت عندما تقرأ التأريخ البشري تجد على سبيل المِثال لا الحصر؛ تقديراً كبيراً لإنجازات الملك البابلي حمورابي (1792 –1750 قبل الميلاد) في تشريع مسلته الشهيرة، والتي احتوت على (282) مادة قانونية تعالج معظم شؤون الحياة في تلك المرحلة الزمنية، إذ نظمت حياة الناس في مجالات الحقوق والواجبات، وساهمت في التقليل من حالات الظُلم والاضطهاد التي عانت منها المجتمعات البشرية لأزمانٍ طويلة، ويمكنك أيضاً أن تقرأ تاريخاً جميلاً عن السيد يسوع المسيح (1–33 ميلادية)؛ وهو الشخصية التاريخية التي ساهمت في زرع قيم المحبّة الرحمة والسلام والعِفّة في مجتمع أورشليم (القُدس)، ثم في أرجاء الأرض كافة.

كذلك يمكنك معرفة مخترع الكهرباء؛ وهو الفيزيائي البريطاني وليام جلبرت (1544–1603 ميلادية)، حيث ساهم اختراعه في تحسين مستوى الحياة البشرية، وإلى الأبد، كما يمكننا معرفة بعض المصلحين والمبدعين الذين حصلوا على نصيب من الإنصاف والتقدير في حياتهم، أو بعد رحيلهم، عندما نُقلب صفحات التأريخ الإنساني المدون.

في المقابل، أهمل التأريخ، وربما الحاضر أيضاً، الكثير ممن ساهموا بتغيير واقع ومستقبل مجتمعاتهم نحو الأحسن والأفضل، منهم من تميز في المجتمعات الجاهلة والمتخلفة، ومنهم

مَـن طُمِس تأريخه على يد أعدائهِ المنتصرين، ومنهم من طُمِرَ ذِكره وضاع، مع تأريخٍ دمّرته الحروب ومحاهُ تقادم الأزمان.

بالتأسيس على ما تقدّم، وانطلاقاً من مبدأ تقييم المصلحين والمبدعين في حياتهم وبعد غيابهم الأبدي، وبهدف نشر المواقف الإيجابية والقيم النبيلة بين الأجيال الناشئة، عقدت العزم على تدوين سيرة أحد أعلام القادة الاجتماعيين والمصلحين في التأريخ المعاصر للعراق، وهو القائد العسكري والاجتماعي، والسياسي، الشيخ المقدم **خطّاب صالح الضامن**، حيث كانت لهُ مواقفٍ استثنائية، وتضحيات جزيلة، وقرارات حكيمة، خلال مرحلة تاريخية حرجة، مر بها العراق، فساهمت مواقفه مجتمعةً بفرض الأمن والسلام في مجتمعه، وأنقذت أرواح العديد من العراقيين.

وقد ارتكزت مواقفه على شخصيةٍ اجتمعت فيها قيم تاريخية نبيلة، ومبادئ إنسانية ووطنية عالية، وأخلاقٍ عربيةٍ عراقيةٍ سامية، فساهمت في تصحيح مسار الأوضاع الاجتماعية والأمنية والسياسية في محيطه، بشكل ملموس وواضح، وقد أتاحت لي فرصة مرافقته والقرب منه لفترة زمنية تجاوزت ثلاثة عقود، الاطلاع على الكثير من مواقفه الأمنية والاجتماعية والوطنية، وتضحياته الإنسانية، ووقفاته النبيلة مع كل من عمل معه وأحاط به، الأمر الذي جعله من أعلام المصلحين والمضحّين في زمانه، وبين أقرانه، وعلى مستوى العراق برمتِه.

إنني كباحث علمي وأكاديمي، ألتزمُ التزاماً كاملاً بأخلاقيات البحث العلمي، في كل ما أكتبه من كتبٍ وبحوثٍ علمية، ومقالاتٍ في شتّى المجالات، ومن أخلاقيات البحث العلمي التي أومنُ بها؛ هي الأمانة والصدق والنزاهة، والحياد والموضوعية، عند الكتابة والتدوين، الأمر الذي يُحتّم عليَّ البحث عن الحقيقة من مصادرها الرصينة، مع ضرورة الفصل بين

وجهة نظري الشخصية، وانطباعاتي حول موضوع البحث، وبين ما تُظهره نتائج البحث العلمي، بعد عرض البيانات الرصينة وتحليلها، إضافة إلى تحرّي الأمانة والصدق في الحصول على البيانات وتدوينها، دون تغيير أو تبديل، وفي مجال مصادر بيانات سيرة حياة الشيخ **خطّاب صالح الضامن**، فمصدرها ما تركه من مواقف وأحداث لدى معاصريه، ممن عملوا معه واختلطوا به، بحكم طبيعة عمله وموقعه الاجتماعي، والتي سنقوم بجمعها وتدوينها؛ من خلال مقابلات شخصية متعددة، وشهاداتٍ تاريخية، إضافة إلى ما كتبه الشعراء بحقه، خلال حياته، وبعد رحيله.

لقد أتاحت لي العلاقة الوثيقة التي ربطتني بالشيخ **خطّاب**، أن أكون شاهداً حياً على الكثير من الأحداث والمواقف التي تستحق التدوين والتحليل، وسوف أحرص على تدوينها بصدق وأمانة، مراعاةً لأخلاقيات البحث العلمي التي ذكرتها، وهي الحياد والأمانة والموضوعية.

خطّاب عمران صالح الضامن.

القاهرة في الثالث من آب / أغسطس 2022م.

الولادة والسنيـن الأولى

في صباحٍ مُشرق دافئ من صباحات تموز / يوليو عام 1962م، كانت ذكور السنونو تُغرّد معلنةً عن فرحها ببدء موسمٍ جديد، مليء بالدفيء والغذاء والخصوبة، تُحلّق مع إناثها في أعالي سقف ذلك المنزل الطيني، تدخُلُ إلى غرفةٍ، وتخرج من أُخرى، منهمكة بنقل بقايا القش والأغصان، لبناء أعشاشها، بين أعمدة السقف الخشبية، وبين حصائر السعف، تحت السقوف، وفي خضم هذه الحركة الجميلة، والنشاط الدؤوب، انطلقت الزغاريد معلنةً عن قدوم مولودٍ جديد لعائلة صالح الضامن، فعمّت الفرحةُ أرجاء المنزل، وركض الأطفال يتناقلون الخبر والفرح يغمرهم، يصرخون بأعلى صوتهم؛ جاءنا مولود جديد، إنّهُ ولد!، إنّهُ ولد!.

هَمَست القابلةُ في أذنِ الأُم العشرينيةِ:

إنّهُ ولد، ألف ألف مبارك لكم يا صبحه، يتربّى بعزّكم إن شاء الله.

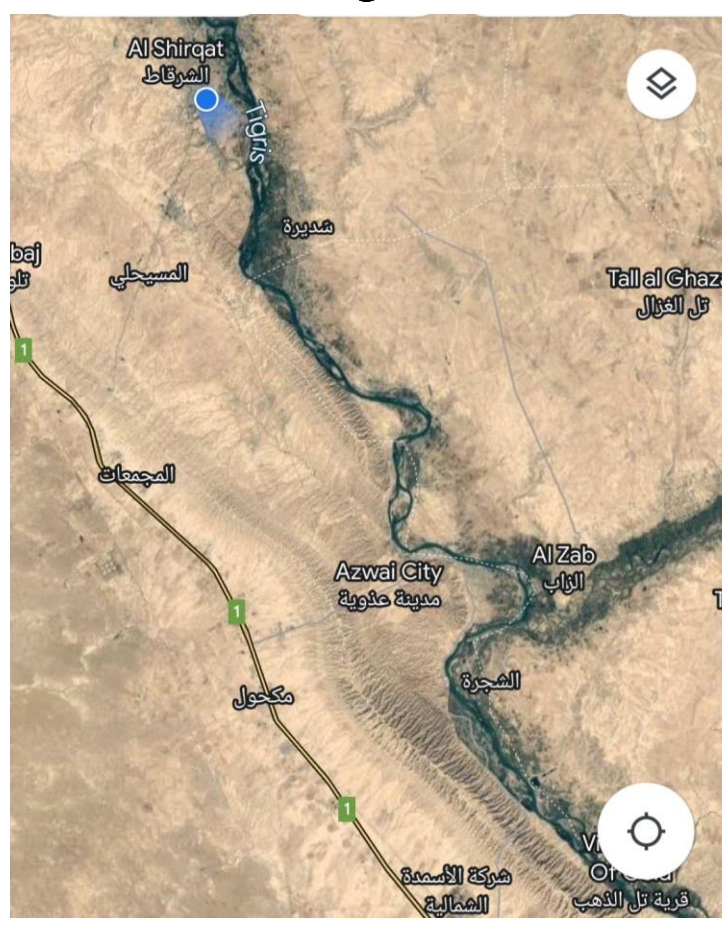
لم تجب الأُم على الزغاريد والتهاني، وارتسمت عِوضاً عن ذلك بسمة مرهقة على وجهها، فأخذت الدموع تنهمر بغزارة من عيونها مروراً بوجنتيها نحو أذنيها ثم جانبي رقبتها، لا شك أنها دموع عبّرت عن الفرح، الفرح الغامر بقدوم مولودها الأول، والفرح كونه مولود ذكر.

جاءت الولادة في قرية الزوية التابعة لناحية الزاب آنذاك، والتي كانت تتبع إدارياً لمحافظة نينوى، وفي ما بعد لقضاء بيجي، الذي يتبع ادارياً لمحافظة صلاح الدين.

تقع قرية الزوية في أرض منبسطة على ضفاف نهر دجلة، تميزت قرية الزوية بحدودها الطبيعية المنيعة، والتي ساهمت في حماية أهلها من هجمات اللصوص والغزاة، حيث تُشكّل

سلسلة جبال مكحول الوعرة حدوداً طبيعية للقرية من جهات الشمال والغرب والجنوب، أما من الجهة الشرقية، فقد شكل نهر دجلة مانعاً طبيعياً آخراً، زاد من مناعة القرية وقدرة ساكنيها على الدفاع عنها، وقد استوطنتها عشيرة الحوري الجبورية الزبيدية في النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي.

صورة جوية لقرية الزوية في محافظة صلاح الدين (مدينة عذوية في الخريطة).



سكنت عمومة الشيخ صالح الضامن وهم فخذ العيسى الحوري جنباً إلى جنب مع فخذي المحمد الحوري والخلف الحوري لمئات السنين، في قرية الزوية منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر، وقبلها في قُرى الجرناف، ومناطق الخابور ودير الزور بسوريا، ومناطق الزاب والحويجة التابعة لكركوك.

فَرِح الوالد بطبيعة الحال بمولوده الأول من زوجته الثالثة، أبنة عمه صبحه خضر عبدالواحد حسين الطوير، وهو الولد صاحب التسلسل الخامس من بين أبناء زوجاته الأخريات.

نُسميه (خطّاب)، قالها الوالد صاحب الوجه الأسمر، والذي دخل في عقده الخامس من العمر، بكل ما يعنيه سن الخمسين من حكمة وقوة وعنفوان ونشاط، قالها فرِحاً، والابتسامةُ لا تكاد تفارق وجهه.

أذبحوا لنا خروفاً، واصنعوا لنا الغداء، مخاطباً زوجته الكبرى أم عمران.

أركض وادعو أعمامك؛ أبو عيسى (حسين)، وأبو ضامن (ركاض)، وأبو عجاج (خلف) ليحضروا الغداء، مخاطباً ولده الأكبر عمران ذو العشرة أعوام.

انهمكت زوجته الكبرى في جهود إعداد وجبة الغداء.

هرع ولده الأكبر عمران راكضاً نحو بيوت أعمامه التي تقع على مقربة من دارهم، مبشراً بقدوم أخٍ جديد، وداعياً لحضور وجبة الغداء.

ورِثَ المولود الجديد عن أبيه وأهلهِ سُمرة الوجه وحدّة الملامح، الوقار وقلة الكلام، النشاط وسرعة الحركة، الذكاء وحضور البديهة والكرم والشجاعة، كما ورث عن أُمه الميل للصفح والتسامح، الكرم وحب الناس والشعور بآلامهم، تشجيعهم ومواساتهم والتضحيةِ في سبيلهم.

حدثتني والدته عن أيام صباه في حياته قائلةً:

أمتلك ولدي خطّاب قلباً مُحباً، مُحباً لي وللناس والحياة منذ سنواته الأولى، كان شديد التعلّق بأخوته وأخواته، وخصوصاً أخيه الأكبر عمران، الذي كان بمثابة رب الأسرة خلال غياب والده للعمل في شركة نفط العراق بكركوك، كان دائماً ما يدعو أقرانهُ من الصبيان لتناول وجبة الاضحويه في دارنا بقرية التل في مدينة الشرقاط(الاضحوية وجبه تقدم في فترة الضُحى قبل الغداء).

كُنت أفرح كثيراً بقدوم أصدقاء ولدي خطّاب، وأُرحبَ بهم، وكُنت أُقدم لهم ما تيسر من لبن وتمر، أو خبز و دهن حر (سَمن)، فلا يكاد يمر علينا يوم دون أن تزورنا ضيوفه، وقد ظهرت عليه سمات كرم الضيافة، والفرح بقدوم الضيوف، وإقامة الولائم منذ صُغرِ سِنّه، وأنت ترى الآن كم هو مولع بإقامة الولائم، وكم يفرح عندما تأتيه الضيوف.

نسب الشيخ خطّاب

يعود نَسب الشيخ خطّاب إلى عشيرة الحوري، وهي إحدى فروع عشيرة الحجاج التي تنتمي لعشيرة البو رملي، تعود عشيرة البو رملي بدورها إلى قبيلة البو نجاد، والتي تُعد إحدى قبائل الجبور الزبيدية القحطانية، تتكون عشيرة الحجاج من ثلاثة عشائر فرعية، وهي المصطفى والعِبدان والحوري.

لنعود إلى تفصيل نَسبه، فهو خطّاب بن صالح بن ضامن بن عبدالله الملقب بـ (طوير) بن موسى بن عبدالكريم بن علي بن عيسى بن حوري، وحوري هو الجد الأكبر لعشيرة الحوري، وهو الأبن الثالث (الأصغر) لوالده جاسم الرمل[1].

أما بالنسبة لنسب حوري، فهو حوري بن جاسم بن رملي بن جابر بن حسين بن نجاد بن عامر بن بشر بن جبارة بن (السلطان) جبر بن مكتوم، والسلطان جبر هو الجد الأكبر لقبيلة الجبور المعروفة، والمنتشرة انتشاراً واسعاً في العراق وسوريا والسعودية والكويت[2].

وقد أعقب حوري أربعة أولاد هم كل من محمد وموسى وعيسى وخلف.

ذُرية عيسى الحوري

أعقب عيسى الحوري ولداً واحداً فقط هو؛ **علي** بن عيسى بن حوري، وعلي هذا أعقب ولداً واحداً أيضاً، وهو **عبدالكريم** بن علي بن عيسى بن حوري، أولاد عبد الكريم هم **محمد**

(1) احمد علي سلطان، موسوعة الدُر المنثور في ذكر في نسب وتأريخ قبائل زبيد والجبور، مكتبة علوم النسب، 2010م، ص 1248 – 1249.

(2) مقال للنساب أبو سلام خلف الحتحوت في صفحته الرسمية على الفيس بوك، منشور بتاريخ 1/ 4/ 2022 :
https: / /m.facebook.com /story.php?story_fbid=1413305585780801&id=100013041188285

وموسى، أعقب محمد بن عبدالكريم والملقب بـ **(جادح)** ولداً واحداً أسمه **خلف** بن محمد بن عبد الكريم والملقب بـ **(حنش)**، وأعقب خلف بن محمد ولداً واحداً أسمه **محمد**، ويسمى **محمد الحنش**، وهذ هو أسم عائلتهم الموجودة حالياً في قرى أصبيح الحوري (في كركوك) والشرقاط والزوية (في صلاح الدين)، وهم أولاد عم الطويرات.

نعود لنفصل أعقاب موسى بن عبدالكريم، فقد أعقب ولداً واحداً أيضاً وهو **عبدالله** بن موسى بن عبد الكريم بن علي بن عيسى بن حوري الملقب بـ **(طوير)**.

أعقب **طوير** أربعة أبناء، وهم كل من دندن وضامن وحسين وسِحل، أبناء عبدالله الملقب بـ (طوير).

أشتهر من أعقاب دندن الطوير الفارس الشجاع خلف دندن الطوير، حيث عُرِف ببسالته الفائقة، ودقته في التصويب، خلال مواجهته لهجمات الغزاة على قرية الزوية، ولهُ مواقف مشهودة ومعروفة في هذا المجال على مستوى مناطق الشرقاط وبيجي والزاب والحويجة.

كما أشتهر من أبناء الفارس خلف الدندن كل من صالح واسماعيل بالكرم والشجاعة.

لُقِب الشيخ حسين الطوير بكريم العرب، وذلك لسخاءِ الشديد، وفتح دارهُ ومضيفهُ في قرى الميل والنمل أمام المسافرين من وإلى المناطق المجاورة، إذ كانت لهُ قُطعان كبيرة من الأغنام، وكان لا يتردد بالذبح لضيوفه فيكرمهم ويحسن ضيافتهم، وظهر من أبناءه فرسان شجعان هُم كل من عبد الواحد وعبد الجادر، وقد قُتِلا خلال شبابهم خلال معارك دارت رُحاها في جبل مكحول بالقرب من قرية الزوية.

أعقب الشيخ ضامن بن طوير ستة أبناء هم عيسى ومحمد وحسين وركاض وصالح وخلف.

ظَهر من ذرية الشيخ ضامن العديد من الرجال الذين مارسوا أدواراً قيادية على المستويات الاجتماعية والأمنية والسياسية، منهم الشيخ حسين الضامن، والشيخ ركاض الضامن، والشيخ صالح الضامن، والسياسي المعروف مشعان ركاض الضامن (مشعان الجبوري)، والشيخ خطّاب الضامن، والشيخ درع الدين الضامن وغيرهم.

والد الشيخ خطّاب الضامن

والد الشيخ خطّاب الضامن هو الشيخ صالح ضامن الطوير، ولد الشيخ صالح في قرية الميل بالقرب من قرية الزوية عام 1910م، وهو الأبن الخامس بين الأبناء الستة لضامن الطوير، من زوجته الثالثة حمده الراعي الفرهود من عشيرة اللهيب، وقد تزوج الشيخ ضامن الطوير زوجته حمده وهو في سن متقدم، وأغلب الروايات تُشير إلى أنّهُ أنجب أبنه الشيخ صالح بعد أن تجاوز السبعين من العمر.

توفي الشيخ ضامن الطوير قبل أن يتجاوز ولده الشيخ صالح العاشرة من العمر، فكان أخوه الأكبر الشيخ عيسى الضامن بمثابة الأب لهُ ولبقية إخوته، إذا علمنا أن عُبيد، الأبن الأكبر للشيخ لعيسى الضامن، كان في سن مقاربة لسن عمه الشيخ صالح الضامن.

نشأ الشيخ صالح في دار أخية الأكبر في قرية الميل، والميل هي منطقة تقع بين قريتي الزوية والنمل على ضفاف نهر دجلة، على بعد حوالي 40 كم جنوب الشرقاط، سكنت منطقة الميل بعض عوائل الحوري، منهم جزء من الطويرات والخلخ.

نشأ الشيخ اليتيم صالح في ظل ظروف قاسية، وعاش في بيئة خشنة، وهي الظروف والبيئة التي قاساها العراقيون خلال نهاية الحكم العثماني وبداية تأسيس الدولة العراقية الحديثة عام 1921م، حيث لا وجود للدولة بمعناها الحديث، فلا خدمات طبية، ولا مدارس ولا شوارع، ولا موازنات تخصص لرعاية السكان أو تحسين ظروفهم، الدور الوحيد للدولة انحصر في مجالين لا ثالث لهما، الأول: هو تحصيل الضرائب على المحاصيل الزراعية والمواشي التي يشقى في سبيلها سكان الأرياف والقرى، والثاني: هو تجنيد الشباب أثناء الحروب.

عمل الشيخ صالح مع عائلة أخيه في أعمال الزراعة وتربية الأغنام، وهي المهنة التي كانت أكثر انتشاراً بين سكان العراق خلال تلك المرحلة، ومن الجدير بالذكر أن منطقة الميل كانت ولا زالت تتمتع بأراضي زراعية خصبة ومنبسطة، وقريبة من نهر دجلة.

في بداية ثلاثينيات القرن العشرين، وبينما كان الشيخ صالح الضامن في بداية العشرين من العمر، تعاظم دور شركة نفط العراق البريطانية (Iraq Petroleum Company) في مجالات التنقيب عن النفط وإنتاجه، الأمر الذي أدى إلى خلق طلباً على الايادي الوطنية العاملة، فعمل وهو في مقتبل العمر مع هذه الشركة، وتحديداً في مشروع مد انابيب النفط في منطقة الفتحة بالقرب من بيجي، ومن هناك أنتقل للعمل في محطة ضخ النفط (K3) والواقعة في منطقة حديثة غرب العراق، ثم أنتقل للعمل في مواقع الشركة بين البصرة وكركوك وصلاح الدين والأنبار.

أتقن الشيخ صالح الضامن التحدث والكتابة باللغة الإنكليزية خلال عمله مع البريطانيين، وتدرج في السلم الوظيفي حتى وصل لدرجة رئيس عُمال (Foremen)، حيث كان يستلم تعليمات تنفيذ المشاريع من المهندسين البريطانيين، ويقوم بإعادة توجيهها وتنفيذها من خلال العمال العراقيين.

نتيجةً لنجاحه في العمل، وتدرجه في ترقي سلم العمل الوظيفي مع شركة نفط العراق، تحسنت أوضاعه المالية نظراً لارتفاع أجره، فتعامل مع أخيه الأكبر تعامل الأبن مع الأب، حيث كان يسلمه مرتبه بعد أن يستقطع مصروفاته الشخصية، في المقابل، حافظ الشيخ عيسى على أموال اخيه الأصغر، وأتم له زواجه الأول في نهاية أربعينيات القرن العشرين، وبعد فترة وجيزة، أستقل عن عائلة أخيه في قرية الزوية.

تمتع الشيخ صالح الضامن بشخصية قوية، كان دبلوماسياً حاذقاً في التعامل مع التحديات والمشاكل الاجتماعية، وفي مجالات التواصل مع الآخرين، كان مالحاً مرِحاً، يميل إلى الصلح والسلم، ويكره الشر والفِتن، شديد في التعامل مع أفراد أسرته، كريم في التعامل مع محيطة، وفي هذا المجال روى لي أحد كبار السن من أهالي قرية الزوية الرواية الآتية [1]:

"كنتُ ضمن مجموعة من الأطفال في قرية الزوية، نقف بالقرب من دار جدك الشيخ صالح الضامن عصر يوم الخميس من كل أسبوع، ننتظر عودته من شركة النفط، وعندما يصل، كنا نركض لاستقباله، فينحني ليقبلنا واحداً تلو الآخر، ويوزع علينا نوع نادر من الحلوى، وبعد أن يحصل كل منا على نصيبه من الحلوى، كان يوجه لنا السؤال الآتي:

منو ما حصل؟، منو يريد انطي انوب؟.

(من منكم لم يحصل على الحلوى؟، من منكم يريد أن اعطيه المزيد؟).

وبعد أن يتأكد من أن الجميع قد حصل على كفايته من الحلوى، كان ينشد أنشودته اللطيفة والتي لا زلتُ أحفظها:

الما يشبع لازم يشبع، الما يشبع لازم يشبع.

(من لم يشبع يجب أن يشبع، من لم يشبع يجب أن يشبع).

كنا نردد هذه الاهزوجة معه، ونرقص على طريقة أهل الجنوب التي علمنا إياها، فنوصله إلى داره، ثم نتفرق إلى دور أهالينا.

(1) المقابلة الشخصية التي أجراها الباحث مع السيد فياض عبدالله حسين الجحيان، وهو من أهالي قرية الزوية من مواليد عام 1950م، كانت عائلته تسكن بجوار منزل الشيخ صالح الضامن في الجانب الغربي من قرية الزوية آنذاك، أُجريت المقابلة بتاريخ 30/ 9/ 2022م

كما أتذكر جيداً عندما تكفل الشيخ صالح بمصاريف ختان 12 طفل من أطفال القرية على نفقته الخاصة، وكنت أنا من ضمنهم، حدث هذا خلال منتصف الخمسينيات في داره بقرية الزوية.

رحم الله جدك، كان كريماً جداً ومرِحاً، أحبنا فأحببناه".

حرص الشيخ صالح على تعليم أولاده، حيث أنتقل من قرية الزوية إلى مدينة الشرقاط ليجعلهم قريبين من المدارس، فأكمل معظمهم دراستهم الجامعية، بينما اصبح بعضهم ضباطاً في الجيش والمخابرات والقوة الجوية.

كان الشيخ صالح باراً بوالدته **(حمده الراعي)** التي أجبرتها قساوة ظروف الحياة وإرادة إخوتها على تركه صغيراً، حيث تزوجت للمرة الثانية لرجل من سوريا.

بعد أن تزوج الشيخ صالح في نهاية أربعينيات القرن العشرين، وبعد أن تحسنت ظروفه الاقتصادية، بدأ بالبحث عن والدته، فنجح أخيراً في الوصول إليها خلال النصف الأول من ستينيات القرن العشرين، ثم جلبها إلى العراق لزيارة عائلته، وخلال هذه الزيارة، أخذها معهُ في رحلةٍ للحج شملت زيارة القُدس، علاوة على مكة المكرمة والمدينة.

نجح بإقناع والدته بترك أبناءها في سوريا، والانتقال للعيش مع عائلته في العراق بصورة دائميه، فبقيت مع عائلة ولدها الأكبر حتى وفاتها عام 1983م.

تولى الشيخ صالح رئاسة عشيرة العيسى الحوري (الطويرات) منذ بداية سبعينيات القرن العشرين، فعمل على توحيد صف عشيرته، والدفاع عن حقوقها العادلة أمام العشائر الأخرى، وأصبح أحد الركائز العشائرية الأساسية في مدينة الشرقاط بشكل خاص، ومحافظات صلاح الدين ونينوى وكركوك والأنبار بشكل عام، فأستمر بالعمل على إحلال

السلام المجتمعي عن طريق التدخل في حل النزاعات وإطفاء الفتن، حتى وفاته المفاجئة في التاسع عشر من نيسان / أبريل عام 1993م.

الشيخ صالح ضامن الطوير خلال إحدى الدعوات التي أُقيمت في مضيفه عام 1992م ويظهر وسط الصورة رافعاً يده.



والدة الشيخ خطّاب الضامن

والدة الشيخ خطّاب هي الشيخة صبحة خضر عبد الواحد حسين الطوير، أبنة عم والده وزوجته الثالثة، ولدت في قرية النمل بالقرب من قرية الزوية عام 1942م، أتصفت بالكرم ورحابة الصدر، كما كانت متسامحة لا تحمل الحقد على من أساء لها، فسرعان ما تتسامح وتتناسى، بالإضافة إلى ميلها للمزاح والفكاهة.

تميّزت والدة الشيخ خطّاب بحنانها الشديد وحرصها على صلة الرحم والتواصل مع الأقارب والأصدقاء، أذكر أنها كانت ترافق أُسرتي لأيام في المستشفى، عندما كنت أُرزق بمولودٍ جديد، شعوراً منها بالمسؤولية كونها جدةٌ لنا، تاركةً ورائها بيتها الكبير وواجباتها الكثيرة فيه.

ومن صفاتها حُبها للعمل والكفاح في سبيل توفير ظروف العيش الأفضل لأبنائها، وفي سبيل ذلك أستمرت في تربية المواشي والدواجن حتى الأيام الأخيرة من حياتها، في دار ولدها الشيخ خطّاب، وقد حزِنَت على مقتله كثيراً، ولا أذكر إنني قابلتها دون أن تذرف الدموع وتتأسف على ولدها الأكبر، وتروي لنا قصصاً عن مواقفه وصفاته.

حرِصت الشيخة أم خطّاب على زيارتنا وامضاء 3 إلى 5 أيام في دارنا، كل ما أتاحت لها الظروف ذلك، وفي زيارتها الاخيرة، وبعد أن أمضت ثلاثة ليالٍ معنا، طلبت مني صباحاً أن أوصلها إلى دارها، حاولت إقناعها بالبقاء معنا ليومين آخرين، وذلك لحنانِها وشدة تعلق والدتي وأفراد العائلة بها، فقالت:

لا وليدي، لازم أروح لبيتي!. (لا يا ولدي، يجب أن اذهب إلى داري).

قلت: كما تشائين يا حجية (كذلك كُنت أُسميها).

وعند خروجها من المنزل إلى الحديقة لصعود السيارة، دخلت في موجة من البُكاء على ولدها الشيخ خطّاب، كما اعتادت منذ رحيله، تقدمتُ نحوها وقلت:

والله يا حجية إن جرح فقدان عمي الشيخ خطّاب كبير جداً، ولا يمر عليَ يوم دون أن أذكره، وأستذكرُ مواقفه ووقفاته وصفاته النبيلة، لكن الأمر لله تعالى، ليس بيدنا شيء.

وبعد أن أتممت حديثي لها، نَظَرت إلي بتمعن لثوانٍ قليلة، ثم قالت:

أبو عبدالله؛ أنت خَلَفَهُ.

قلت: والله يا حاجه من المستحيل لأحد أن يخلف الشيخ خطّاب، لكن، نسأل الله أن يُعيننا ويوفقنا على مواصلة السير على طريقهُ المُشرِّف في كافة مجالات الحياة والتأريخ....

توُفيت الشيخة أم خطّاب في التاسع عشر من شهر أيلول / سبتمبر عام 2020م، وبعد ستة أيام من مغادرتها لمنزلنا، تاركةً خلفها مكانةً لا يُمكن تعويضها، وفراغاً يستحيل شغره، شأنها شأن العِظام من الأُمهات العراقيات الأصيلات والمضحيات.



الشيخة صبحة خضر عبد الواحد الطوير عام 2020م.



إخوة الشيخ خطّاب الضامن

ترعرع الشيخ **خطّاب صالح الضامن** في عائلة كبيرة نسبياً، حيث تزوج والده بأربعة نساء، وأنجب مِنهُن سبعة عشر ولداً، وعشر بنات، وكان تسلسله الخامس بين الأبناء الذكور كما ذكرنا، لعب الشيخ خطّاب دور الأخ والصديق بين إخوته، فحرص على دعمهم في إكمال دراستهم، وعلى تنمية مهاراتهم، وقد كُنت شاهداً على الكثير من محاضرات التنمية البشرية التي كان ينظمها ويلقيها على إخوته وأنا من ضمنهم، حيث يُذكرنا بأهمية العِلم وإكمال الدراسة، ويضرب لنا الكثير من الأمثلة التاريخية والواقعية حول سُبُل نجاح الفرد والأسرة، وأسباب الفشل والانحلال التي وصلت إليها بعض الأُسَر، كما كان يروي لنا تاريخ وأمجاد عائلتنا وعشيرتنا، طالباً منا أخذ العبرة من التأريخ، وعدم تكرار الأخطاء التي وقع بها غيرنا، وفي هذا المجال أذكرُ النصّ الآتي والذي ألقاه خلال أحد محاضراته أمامنا في منتصف التسعينيات، حيث كان يرتدي زيّه العربي واقفاً، بينما نحن جلوس في حديقة منزله:

" لقد ترك لنا آباؤنا وأجدادنا مجداً تليداً، مجداً مِلؤه الكرم والشجاعة والتسامح وإصلاح ذات البين، علينا أولاً أن نصون ذلك المجد، وأن لا ننقِصُ مِنهُ شيئاً عبر الإساءة أو التجاوز على الآخرين، ثم علينا أن نُديم ذلك المجد من خلال التواصل السليم فيما بيننا، ومع جيراننا، ومع المجتمع ككل، إخوتي وأبنائي، إن المجد الذي ورثناه عن أهلنا يُشبِهُ هذا الجدار الكونكريتي (سياج المنزل الخارجي)، قوي ومرتفع، وكل تصرف خاطئ بيننا أو مع مجتمعنا سوف يهدّ إحدى قطع الطابوق التي يتكون منها هذا الجدار، علينا أن نُعلي هذا الجدار من خلال إضافة المزيد من الطابوق إليه، وعلينا أن نُحَسِن من منظر هذا الجدار من خلال لبخِهِ بالإسمنت وطلائه بالألوان الجميلة، وهذا لا يتمّ إلّا عن طريق التسامح والعطاء في ما بيننا ومع الآخرين".

علاقة الشيخ خطاب بأخيه الأكبر

الأخ الأكبر للشيخ خطاب الضامن هو الملازم عمران صالح الضامن، وهو أخوه لأبيه، من مواليد عام (1952م)، تخرّج في كلية الآداب قسم الجغرافية / جامعة البصرة عام (1978م)، دخل بعدها كلية الضباط الاحتياط وتخرّج فيها عام (1979م)، وبعد اندلاع الحرب العراقية الإيرانية عام (1980م) نُقِل إلى الجبهة الجنوبية في محافظة ميسان، فجُرِح في معركة نهر الكارون بداية عام (1981م)، وأخيراً فُـقِد في معركة البسيتين الشهيرة والتي شهدت قيام قوات الحرس الثوري الإيراني بإعدام الآلاف من الأسرى العراقيين بتاريخ (1981/11/29م)، ولم يُعثَر على جثمانه ولم ترد أي أخبار من معسكرات الأسر عنهُ، أستمر بالخدمة والترفيع كونه مفقود حتى وصل إلى رتبة مقدم، فأصدرت المحاكم العراقية شهادة وفاته عام (2005م).

تعلّق الشيخ خطّاب بأخيه الأكبر الفقيد عمران كثيراً، كان لهُ بمثابة الأب والقدوة، وقد شجعه كثيراً لإكمال دراسته الإعدادية والجامعية، ثم للالتحاق بالكلية العسكرية، وبعد فُقدانهِ في الحرب، تعلق كثيراً بأمل عودته التي تلاشت بعد الاحتلال الأمريكي للعراق عام (2003م) وعودة وجبات أخيرة شملت أسرى عراقيين أُطلق سراحهم من السجون الإيرانية.

الملازم عمران صالح الضامن مع أحد المقاتلين أمام جبل بيره مگرون في السليمانية

شمال العراق عام 1980م.



صفات الشيخ خطّاب الضامن

أتصف الشيخ خطّاب بصفاتٍ ميزت شخصيته بشكل ملفت للنظر، ودليلنا على ذلك مواقفه التي خلدتها أبيات الشعر التي نُظِمت في حقه، سواءً خلال حياته أو بعد رحيله، ومن صفاته على سبيل المثال كرم اليد والنفس، كرم اليد؛ من خلال قدرته الكبيرة على التضحية المادية من أجل الأخرين، من خلال منح الأموال للفقراء والمحتاجين، أو من خلال إكرام الضيوف وإقامة الولائم، تقديراً لكل من زاره أو قصده سواءً كان من أقاربه أو أصدقاءه، أو كان من عامة الناس.

وكرم النفس؛ عبر تقديره المعنوي لكل من أحاط به وقصده، من خلال التقدير والتكبير والإجلال، أو من خلال ترفعه عن إيذاء الآخرين في غيابهم، وفي هذا المجال، لا أذكرُ خلال قربي مِنه لأكثر من ثلاثة عقود أنّهُ أغتاب شخصاً أو قلل من قيمته في غيابه، بالرغم من كثرة حاسديه ومعاديه وكثرة المكائد والأذى التي تعرض لها بسببهم.

كما أتصف الشيخ خطّاب بالشجاعة المطلقة في اتخاذ المواقف والتعبير عن الرأي، ودليلنا على ذلك مقاومته لضغوط وتهديدات التنظيمات الإرهابية لإجباره على ترك العمل في الجيش والشرطة العراقية بعد عام 2003م، لكنه قاوم وصمد أمام تلك المخاطر، وكانت النتيجة أن تعرض لعدة محاولات اغتيال، لكنها مجتمعةً فشِلت في ثنيهِ عن مزاولة عمله في فرض الأمن من خلال قوات الجيش والشرطة العراقية.

ومن صفاتهِ أنّهُ كان مُحباً للحياة بكل ما تحمله من مباهج ومفاتن، ومنها المال والنساء، إلاّ أنُّه كان متجنباً للمال الحرام، والعلاقات غير الشرعية مع النساء، بالرغم مما قدمت لهُ الحياة من مغريات خلال شبابه، وخلال توليه لمناصب في الجيش والشرطة مُنذُ تخرجه في الكلية العسكرية العراقية عام 1983م، وحتى رحيله عام 2015م، فقد عُرِفَ باجتناب

العلاقات النسائية خارج الزواج منذ بدايات المراهقة والشباب، وحتى الأيام الأخيرة من حياته، ولم يسعَ للحصول على المال عبر الطرق المخالفة للدين والأخلاق والقانون، بالرغم من حاجة الكرام الملحة والمستمرة للأموال في سبيل مساعدة المحتاجين وإكرام الضيوف، لكنهُ أتجه للزواج الشرعي في سبيل إشباع الرغبة نحو المرأة، فتزوج ثلاثة نساء، واعتمد على ما حصل عليه من استحقاقات وظيفية على شكل رواتب وسيارات وعقارات منحتها الدولة لهُ ولأقرانهِ من الضابط خلال خدمته العسكرية، إلى جانب ما حصل عليه من ميراث والده الشيخ صالح الضامن، إذ كان ثرياً وفقاً لمقاييس فترة التسعينيات من القرن العشرين.

كانت للشيخ خطّاب قدرة كبيرة على التسامح، التسامح مع من تعمد الاساءة والتجاوز عليه، وبالرغم من شجاعته، كان لطيفاً مع خُصومه، يحرص على حفظ كرامتهم واحترام مشاعرهم، معتمداً في ذلك التسامح على علو هِمته، وقوة شخصيته، وسمو نفسه التي ترفعت عن رد الأذى لكل من تعمد الاساءة والتجاوز، ولسانُ حالهِ يقول؛ أن السماح والعفو سِمة الكِرام، وإن عاقبة الحقد والانتقام غير محمودة، ولن تجلب سوى المزيد من الأذى والكراهية، وبالنتيجة سيعم الشر بين الجميع، بالإضافة إلى بعد نظره للمستقبل، واطلاعهِ على صفحات من التأريخ الاجتماعي والسياسي للعراق، وحرِصهِ على مد جسور السلام والأُلفة بين مكونات مجتمعه.

كذلك أتصف الشيخ خطّاب بقدرتهِ الاستثنائية على حُب الآخرين، والشعور بمعاناتهم وظروفهم الصعبة، لذلك كان يواسي الفقراء والمظلومين ويحرص على دعمهم وزيارتهم، ولطالما كُنت شاهداً على تقديمه الأموال دعماً للفقراء والمرضى، وذرفهِ للدموع خلال زياراتنا لمجالس العزاء، حيث كان يتحسس مشاعر الفقراء، ويشعر بعمق حزن الأب الذي خسر ابناً، أو الزوج الذي خسر زوجه الخ...

كان الشيخ خطّاب صادقاً بأحاسيسه ووجدانه، يواجه الناس برأيٍ واحد، ونيةٍ واحدةٍ على قلبهُ ولسانه، ولم يكن من أصحاب المشيتين ولا الفكرتين، وهو ما جعلهُ مصدراً للثقة والأمان من قبل كل من عرفه أو عمل معه، فأصبحَ أهلا للقيادة والزعامة.

وقد أختصر الشاعر نضال العياش صفات الشيخ خطّاب بقصيدة قصيره هذا نصها:

كم وصّفوك وكم أعلَوك يا رجُلاً

فوق التواصيفِ لا تحويك ألقابُ

إلاّ إذا قلت يا خطّاب عندئذٍ

تحلو المعاني فخير الوصفِ خطّابُ

كل ما تم توضيحه عن صفات الشيخ خطّاب سوف يتم إثباته من خلال الوقائع والشهادات والقصائد التي سيتم عرضها في أجزاء هذا الكتاب.

واقعة تعبر عن حجم احترام الشيخ خطّاب لوالده

أروي لكم حديث الشيخ خطّاب عن مدى احترامه لوالده الشيخ صالح الضامن إذ يقول: لم أُدخن السيجارة مطلقاً، وذلك تنفيذاً لوصايا والدي المتكررة لي ولأخوتي، حول ضرورة الابتعاد عن التدخين، تجنباً لأضراره الصحية الجسيمة، والرائحة الكريهة التي يترُكها في جسم الإنسان وملابسه، وفي إحدى الصباحات الربيعية عام 1989م، نزلت إلى مركز سوق الشرقاط برفقة مجموعة من أصدقائي، وبينما كنا نتمشى بالقرب من البناية التي كان والدي يُشرف على بنائها وسط السوق، ناولني أحد الأصدقاء سيجارة بعد أن اشعلها لي، وضعت السيجارة في يدي اليسرى بين أصِبعي السبابة والوسطى مجاملة له، دون أن تكون لدي أي رغبة أو نية لتدخينها، بعد ذلك بلحظات، رفعت رأسي فشاهدت والدي وهو يقترب مِنّا، وقعت عيوني عليه وهو يرتدي كامل زيه العربي المعتاد، تمشي خلفه مجموعة من إخوتي الاصغر سناً، ارتبكت كثيراً بسبب وجود السيجارة في يدي، فحاولت أن أتخلص منها، لكنه كان قد أقتربَ مِنّا كثيراً، بحيث لا مجال لرميها، بادرنا بابتسامته المعهودة، سأل عن أحوالنا، استغرق الأمر كله دقيقة واحده تقريباً، ثم مضا مواصلاً سيره، وبعد أن تجاوزنا، سألت نفسي:

أين السيجارة؟، فأنا لم أرميها، وبعد أن فتحت يدي اليسرى، وجدت السيجارة فيها وقد تحولت إلى حُطّام، وذلك بعد أن تسببت بحرق راحة يدي، هكذا كنتُ أجلُ والدي وأحترمه، كنت حينها متزوجاً وبرتبة نقيب.

واقعة ذات تأثير كبير على حياة الشيخ خطّاب وشخصيته

تميّز الشيخ ركاض الضامن (عم الشيخ خطّاب) بشخصيةٍ تحمل صفات متميزة قياساً بمعاصريه وأقرانه خلال عقدي الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين، منها الكرم الشديد والقدرة على إنفاق الأموال الطائلة لإكرام الضيوف وإصلاح ذات البين ومساعدة الفقراء، والشجاعة المطلقة في أتخاذ القرارات والتعبير عن الرأي، والحكمة والتروي، واللباقة التي اعتمدت على الذكاء وسعة الاطلاع والثقافة، مكّنته هذه الصفات من زعامة عشيرته وهي عشيرة العيسى الحوري، علاوة على تأثيره الشديد وتقديره داخل عشيرة الحوري بشكل خاص، والعشائر الأخرى في بغداد وكركوك والموصل والأنبار بشكل عام.

وعلى المستوى السياسي، تميّز الشيخ ركاض بإقامة علاقات سياسية واجتماعية واسعة على مستوى العراق، فقد كان على صلاتٍ وثيقة مع مصادر القرار السياسي والعسكري، منها على سبيل المثال لا الحصر علاقته مع نوري الراوي الذي كان يشغل منصب متصرف لواء (محافظة) كركوك في منتصف الستينيات، واللواء سعيد حمو قائد الفرقة العسكرية الثانية في كركوك آنذاك، إذ تمَّ تكليفهُ من قبلهم بتشكيل قوات فرسان العشائر لدعم الجيش العراقي في مناطق كركوك، وذلك قُبيل مقتله مع كوكبة من اقاربه عام 1966م، وقد روى لي الشيخ أبو حسون الحماد (وهو رجل طاعن في السن من أهالي قرية الزوية) شهادتهُ على تلك المرحلة، وردد أبياتٍ من الشعر أنشدها هو شخصياً للشيخ ركاض ومقاتليه عند تجمعهم في قرية الزوية للالتحاق إلى ساحات القتال في كركوك، أورِدُ لكم منها الأبيات الآتية:

أبو ضامن فاز بالعلم الوكادي. (الشيخ ركاض فازَ بالخبر اليقين)

منتخي الربعو يجيب الهم أعتادي. (أنتخى لمقاتليه ويجلب لهم العتاد).

شهادة زوجة الشيخ ركاض الضامن

(أم مشعان) حول واقعة مقتله

لبّى الشيخ ركاض الضامن دعوة الدولة العراقية لدعم الجيش العراقي وحمايته من هجمات المتمردين في محافظة كركوك، فعُيّنَ آمراً لأحد أفواج العشائر لمسك الأرض في كركوك وتحديداً منطقة شوان.

الشيخ ركاض يَمضي بتقاليدهِ العربية الأصيلة

بعد الالتحاق ومسك الأرض، فتح الشيخ ركاض مضيفه لأهل المنطقة والقرى المجاورة لها، وكوَّن علاقات اجتماعية وطيدة مع محيطه، وذلك وفقاً لثقافته العربية العشائرية القائمة على إشاعة السلام والألفة وإكرام الضيوف.

المتمردون يستغلون ظلمة الليل

صحونا على إطلاق نار كثيف وانفجارات من كل الاتجاهات، كانت ظُلمةُ الليل شديدة، والقمر في مرحلة المحاق ولا كهرباء لدينا آنذاك، قاوم مقاتلو الفوج ببسالةٍ من نُقاطِ حراستهم، وكان الشيخ ركاض يطوف عليهم حاملاً بُندقيته الكلاشنكوف، يشجعهم، ويقدّم لهم العتاد ويطلق النار دون أن يرى أو يروا المهاجمين بسبب الظلام الدامس، أستمرت المعركة حتى الصباح، قُتِل معظم مقاتلينا بعد أن قتلوا وأصابوا عدداً لم أعلمه من المهاجمين.

الشيخ ركاض يُقاوم حتى اللحظة الأخيرة

بعد أن علم بما آلت إليه نتائج المعركة، دخل الشيخ ركاض إلى الربعة الطينية (المضيف)، حاملاً معه بندقيته والعشرات من مخازن العتاد، كان يُطلق النار عليهم بصورةٍ توحي أنّهُ ليس وحده، يرمي من الباب تارة، ومن النوافذ تاراتٍ أُخرى بسرعةٍ شديدة، فأحدث فيهم إصابات كثيرة حيث كنّا نسمع صياحهم وعويلهم.

الشيخ ركاض يُقتَل في سبيل عراقية كركوك

بعد ساعةٍ من دخوله لمضيفهِ مُقاوماً، سكتت فوهة بُندقيته، تقدّم المهاجمون وسألوا: من هي زوجة الشيخ ركاض؟.

تقدّمت وقلت لهم أنا زوجته.

كانت الشمس مُشرِقةً، قالوا أُدخلي إلى المضيف وأطلبي مِنهُ أن يستسلم، وسوف نُحسنُ معاملتهَ لأنّهُ كان كريماً مع أهلنِا.

الشيخ ركاض الضامن يخيف المتمردين حياً وميتاً

دخلت المضيف، فوجدت زوجي أبو ضامن وهو مضرجاً بدمائه، حيث أصابتهُ رصاصاتٍ في صدره وكتفهِ الأيمن، كلّمتُه فلم يُجب، فأيقنت أنّه لقي حتفه، خرجتُ من المضيف وقلتُ لهم أنّ أبو ضامن قد فارق الحياة، أدخلوا وتأكدوا.

قالوا: لا نُصدقُكِ، ربّما هي حيلةٌ مِنهُ لاستدراجنا وقتلنا، طلبوا مني إخراجه من المضيف، حاولت ولم أستطع حيث كان رجُلاً عظيم الجسم.

بعد ذلك، صعدوا على سطح المضيف الطيني، أحدثوا فتحةٍ فيه وأشعلوا النار كي يتأكدوا أنّه ليس حي، وبعد نشوب النار وتصاعد أعمدة الدخان أيقنوا أنّهُ ميت، فدخلوا لمضيفه، شاهدوه ورحلوا.

الشيخ ركاض الضامن عام 1964م.



رد فعل الشيخ حسين الضامن

على واقعة مقتل الشيخ ركاض الضامن

كان لواقعة مقتل الشيخ ركاض الضامن أثراً كبيراً على عائلته وإخوته بصورة خاصة، وعلى عموم عشيرة الحوري والعشائر العربية المجاورة لها بصورة عامة، حيث فقدوا أحد الركائز الاجتماعية والسياسية الأساسية التي طالما اعتمدوا عليها.

بعد مقتل الشيخ ركاض الضامن في كركوك، انتقلت زعامة عشيرة العيسى الحوري إلى أخيه الشيخ حسين الضامن، والذي كان هو الآخر شديد التأثّـر والتأثير بالمشهد السياسي، إضافةً إلى تخصصه في الأعمال الزراعية والتجارية، روى لي الأستاذ محمد خلف عبد الكريم حسين الطوير العيسى الحوري شهادتهُ الآتية:

بسبب الموقف السلبي لقطعات الجيش العراقي في عدم دعم قوة الشيخ ركاض أثناء المعركة التي قُـتِل في نهايتها على يد المتمردين، أتخذ الشيخ حسين الضامن موقفاً عدائياً من قيادات الفرقة العسكرية التي كانت مسؤولة عن حماية محافظة كركوك، على رأسهم اللواء سعيد حمو قائد الفرقة العسكرية الثانية في كركوك آنذاك، وعند زيارة سعيد حمو لمدينة الشرقاط عام 1967م، دخل الشيخ حسين الضامن إلى مكان التجمع الذي نُصِبت فيه سرادق لاستقبال قائد الفرقة، وهو يرتدي مسدسه على زيه العربي (العباءة والزبون) قائلاً:

لا يحقّ لأحد الاحتفاء بقائد الفرقة، لقد خذل أخي وقوته خلال معركتهم ضدّ المتمردين.

أسمع يا قائد الفرقة:

أنت غير مرحبٌ بِكَ في الشرقاط، أنت مطلوب ثأر، دم أخي الشيخ ركاض ومقاتليه برقبتك!.

لم يُجب قائد الفرقة ولا من كان في صحبته بكلمة واحدة، بعدها خرج الشيخ حسين الضامن المعروف بشجاعته وصلابته وهو يشيط غضباً متوعداً من خَذَل أخيه بالعقاب.

طال حُزن الشيخ حسين على أخيه الشيخ ركاض، حتى وافته المنية في مدينة الشرقاط عام (1970م) أثر نوبة قلبية مُفاجئة.



صورة مخطوطة للشيخ حسين الضامن في ستينيات القرن العشرين.



الانتقال من قرية الزوية إلى مدينة الشرقاط

بعد مقتل الشيخ ركاض الضامن، بدأ الشيخ صالح الضامن يفكّر بالرحيل من قرية الزوية إلى مدينة الشرقاط، وذلك لعدم وجود مدرسة ثانوية في القرية، ولعدم وجود الخدمات الصحية فيها، علاوة على عدم وجود الأسواق وصعوبة وصول البضائع إلى القرية، ولوجود المدارس والخدمات المذكورة في مدينة الشرقاط، وبعد استشارة أخوَية الشيخ حسين الضامن والشيخ خلف الضامن، أجازا له الرحيل صوب الشرقاط، على أن يلحقوا بهِ في ما بعد.

أشترى الشيخ صالح قطعة أرض في مدينة الشرقاط، وتحديداً في قرية التّل التي تبعد عن مركز مدينة الشرقاط حوالي كيلو متراً واحداً، فأكمل بناء دار كونكريتي حديث عام (1968م)، وانتقل إليه مع عائلته في نفس العام.

مرحلة الصِبا في حياة الشيخ خطّاب الضامن

يدخُل الإنسان في مرحلة الصبا بعد تجاوزه لمرحلة الطفولة، وتبدأ هذه المرحلة غالباً عند سن العاشرة، وتنتهي بسن العشرين، وهي مرحلة بداية تكوين الشخصية والثقافة والمعرفة في حياة الإنسان، تعكس هذه المرحلة حداثة التجربة في الحياة، وتحمل في طياتها رؤية الصِبا المفعمة بالطموح وحب الحياة والاندفاع نحو التجارب الجديدة.

دخل الشيخ خطّاب هذه المرحلة مع بداية سبعينيات القرن العشرين، في مدينة الشرقاط، حيث ألتحق بالدراسة في مدرسة الشرقاط الابتدائية عام 1968م، ثم تخرج فيها عام 1974م، والتحق بعدها بإعدادية االشرقاط للبنين، وتخرج فيها عام 1980م حاملاً شهادة الإعدادية من الفرع الأدبي.

الشيخ خطّاب الضامن مع مجموعة من زملاءه خلال مرحلة الإعدادية عام 1979م، وهو الثاني من اليمين.



شهد العراق خلال الفترة الممتدة بين الأعوام 1970م – 1984م تقدماً واضحاً في مختلف مجالات الخدمات التي تقدمها الدولة للسكان، وفي مقدمتها الخدمات والتربوية والتعليمية، وذلك من خلال تطبيق برنامج التعليم المجاني لجميع فئات السكان، وإجبار أولياء الأمور على إلحاق ابنائهم في المدارس ومن كلا الجنسين، وتخصيص نسبة بلغت حوالي 20٪ من حجم الموازنات العامة للنهوض بقطاع التربية والتعليم، وتوجيهها لبناء المدارس وتجهيزها بالمعدات والتجهيزات التربوية اللازمة، فضلاً عن تنفيذ برنامج الغذاء المدرسي، والذي تضمن تقديم وجبات غذائية يومية للطلبة، بهدف التأكد من التنشئة البدنية السليمة للطالب، إلى جانب ذلك، أولت الدولة اهتماماً كبيراً بعملية إعداد وتطوير الكوادر التربوية والتعليمية، فتم التوسع في تأسيس الكليات التربوية في مختلف الاختصاصات، كما تمت الاستعانة بكوادر تربوية مصرية لهذا الغرض، وكذلك تم الاهتمام بتحديث المناهج والكتب التربوية، فكانت النتائج أن ازدادت نسبة الالتحاق بالمدارس حتى بلغت 100٪ في عموم البلاد، وانخفضت نسبة الأمية بين الاعمار 15–45 إلى 10٪ فقط خلال تلك الفترة[1].

(1) شبكة الجزيرة الإعلامية، العراق من رائد في التعليم إلى أكثر البلدان نقصا بعدد المدارس، تقرير منشور على موقع شبكة الجزيرة بتاريخ 14/ 7/ 2019م متاح على الرابط التالي:
https://www.aljazeera.net/news/politics/2019/7/14

مجموعة من التلاميذ العراقيين خلال تناولهم وجبه الفطور ضمن برنامج الغذاء المدرسي خلال العقد السابع من القرن العشرين.



إلى جانب ذلك، نفذت الحكومات العراقية حملات تدريب للطلبة في مخيمات الكشافة والفتوة والطلائع، وقد تضمنت برامج المخيمات الطلابية التدريب على ارتداء الزي العسكري، بالإضافة إلى التمرين على المسير العسكري، وقراءة الأناشيد الوطنية، إلى جانب ذلك، عملت المدارس على تنفيذ استعراضات مدرسية ومسابقات رياضية سنوية.

تلقى الشيخ خطّاب تعليمه الابتدائي والثانوي والإعدادي خلال تلك المرحلة ولمدة 12 عام، شأنه شأن أقرانهُ في جميع أنحاء العراق، فتلقى الدروس الوطنية جنباً إلى جنب مع الدروس العلمية، وشارك في المخيمات الطلابية في مراحل الكشافة والفتوة والطلائع، الأمر الذي ساهم مساهمةً فاعلة في بناء وتنمية قدراته التربوية والعلمية والمعرفية، وتشكيل شخصيته الوطنية التي آمنت بحب وطنه العراق، فبانت فيها الميول العسكرية، واستعدت للدفاع عن أرضه وشعبه خلال الحروب والأزمات التي عاصرها، وذلك بعد تخرجه من الكلية العسكرية العراقية عام 1983م.

تأثر الشيخ خطّاب بأعمامه ووالده

تأثر الشيخ خطّاب كثيراً بشخصية والده، شخصية الأب المركزية والقوية، شخصية الأب الشيخ، فقد تفتحت عيناه على مضيف ممتلئ بالشيوخ والوجهاء والأعيان، في الصباح وفي المساء، المضيف حيث تقام الولائم، وتنعقد الجلسات، وتقدم أجود انواع القهوة العربية، المضيف الذي تُحل فيه أكثر المشاكل الاجتماعية تعقيداً، وتتلاشى فيه كل الفتن والخلافات خلال ساعات قليلة، وإلى الأبد.

كما تأثر الشيخ خطّاب كثيراً بتأريخ أعمامه وشخصياتهم، فطالما كان يروي لي عن مآثرهم ومواقفهم، مذكراً ومفتخراً بمواقف في الكرم والشجاعة والتضحية في سبيل الإصلاح، أورد لكم في هذا المجال بعض ما سمعته منِهُ شخصياً.

واقعة لعم الشيخ خطّاب الشيخ عيسى الضامن

في معرض الحديث عن تأثر الشيخ خطاب بشخصيات أعمامه ووالده ومواقفهم المأثورة، هنالك رواية معروفة وجديرة بالذكر عن الشيخ عيسى الضامن، حدثت في عشرينات القرن العشرين في منطقة بيجي شمال تكريت، حيث كان الشيخ عيسى حينها يسكن المنطقة مع مجموعة من أبناء عمومته الحوري، وكان يعتمد على الزراعة كمصدر أساسي للرزق، شأنهُ شأن معظم العراقيين خلال تلك المرحلة، ويملك ثوراً يستخدمه لحراثة الأرض وجلب الماء من النهر لأغراض الشرب والسقي، وحدث أن جاءت مجموعة من الفرسان (الخيْالة) من عشيرة البو طعمه، إذ كانوا يسعون لعقد صلح مع إحدى عشائر المنطقة، فاعترضهم الشيخ عيسى الضامن، وأقسم عليهم أن يحلّوا ضيوفاً عليه، ولم يكن لديه في تلك الساعة ما يصلح للذبح من المواشي أو الأغنام سوى ذلك الثور الذي كان يسمى بـ (ثور الچرد).

قام الشيخ عيسى بذبح ثوره ليعد الطعام لضيوفه، كما قام بدعوة بعض وجهاء القرى المجاورة، وبعد أن قدّم الطعام، تفاجأ الضيوف ورجال المنطقة بأنه ذبح ثور الچرد!، وهي تضحية مالية كبيرة في ذلك الوقت، فقال لهُ أحد الحاضرين متهكماً:

وش هل غرباويات يا أخوي؟، شلون تذبح ثور الچرد؟، وش هل مصيبة؟، شلون راح تحير بزرعك بعد هالثور؟.

(ما هذا البطر يا أخي؟، كيف تذبح ثور الكَرد؟، ما هذه المصيبة التي حلّت بك؟، كيف ستسقي زرعك بعد هذا الثور؟)

فأجابه الشيخ عيسى الضامن على الفور بأبيات عتابة مرتجلة قائلاً:

تحير ابنا المصايب من هلينا. (تحير بنا المصائب منذ أن وجدنا).

وعلى الجودات دفگ المنهلينا. (تجود ايدينا كجود دجلة والفرات).

فرگنا عالعشاير من هلينا. (تميزنا عن العشائر الأخرى عندما رحبنا).

بالطروش الـ لفو والغير هاب. (بالضيوف الذين قدموا، وغيرنا تهيب من ضيافتهم).

واقعة لعم الشيخ خطّاب الشيخ حسين الضامن

دارت أحداث هذه الواقعة قبل فترة العشرينيات من القرن العشرين، حيث كان الشيخ حسين الضامن شاباً حينها ولم يتجاوز الثامنة عشرة من العمر، وإذا ما علمنا أن الشيخ حسين هو من مواليد عام 1898م (مواليده الحقيقية)، فإن أحداث هذه الواقعة تكون قد حدثت قبل عام 1916م، وتحديداً قبل حوالي ثلاث سنوات من هزيمة القوات العثمانية أمام القوات البريطانية في تشرين الثاني / نوفمبر عام 1918م، حيث أعلن البريطانيون احتلال العراق بشكل كامل.

أما بالنسبة لمكان حدوث هذه الواقعة، فهو بين مركز ناحية الزاب (الشگ) شرق نهر دجلة، وقرية الماحوز، إحدى قرى عشيرة البو جبر في ناحية الحويجة التابعة لكركوك، ويفصل بين الموقعين مسافة تصل الى (60 كم) تقريباً.

روى لي الشيخ خطّاب تفاصيل هذه الواقعة نقلاً عن والده، وتبدأ أحداثها عندما كان الشيخ الشاب حسين وشقيقه الشيخ ركاض في زيارة لبيت خالهما في قرية الماحوز، فجاءتهم الأخبار بأن مجموعة من جلاوزة السلطات العثمانية عبرت نهر دجلة من جهة ناحية الزاب شرقاً، إلى قرية الزوية غرباً بحثاً عن حسين الضامن، وبعد أن عجزوا عن العثور عليه، أبلغوا السكان أن حسين متهم بتنفيذ أعمال سرقة وقطع طرق!.

أندهش الشيخ حسين من سماع هذا الخبر، وأبلغ خاله أن الموضوع لا بد أن يكون فيه خطأ والتباس، وأنّهُ لم يقترف أي عمل فيه تجاوز على أموال الاخرين أو أمنهم، وبعد أن تأكد خاله من براءته، نصحهُ بالبقاء في داره ريثما يجد حلاً لهذه المشكلة عن طريق علاقاته، إلّا أن الشيخ حسين رفض البقاء، وأصر على مواجهة الموقف واثبات براءته، فقرر الذهاب إلى مجلس ذلك الجلواز في ناحية الزاب، وذلك بعد أن زوده خاله بسيفٍ للدفاع عن نفسه،

حاول الشيخ ركاض مرافقة أخيه ومواجهة الموقف معه بالرغم من صغر سِنّه، كونه يصغر أخيه حسين بسنتين، وهو بذلك كان في الخامسة عشر من العمر تقريباً، إلّا أن الشيخ حسين رفض مرافقة أخيه له، وأبلغه بأن لدينا إخوة وأخوات صِغار، ويجب عليك أن تبقى للعناية بهم إذا ما تم قتلي من قبل تلك العصابة.

في فجر اليوم التالي، أنطلق الشيخ الشاب حسين الضامن مُمتَطياً صهوة جواده، فوصل عصراً إلى مجلس ذلك الجلواز في ناحية الزاب، وبقي فوق ظهر حصِانه على مقربة من المجلس دون أن يبدأ بالسلام وحدث الآتي:

الشيخ حسين: بلغني أنكم ذهبتم إلى الزوية بحثاً عني، ها أنا أمامكم، فما الذي تريدونه مني؟.

الجلواز: أنت متهم بقطع الطرق وتنفيذ أعمال سرقة.

الشيخ حسين: هذا الكلام كلهُ كذب وتلفيق، أنتم تعرفون من يقوم بهذه الأعمال جيداً، لكنكم لا تجرؤون على ملاحقته، لأنكم تعرفون أنّه سيقتلكم إن حاولتم، لذلك تحاولون إلصاق هذه التهمة بي لإرضاء اسيادكم، وأنا بريءُ منها براءةً تامة.

غضِب الجلواز من رد الشيخ حسين غضباً شديداً، فأومأ لعصابتهِ أن أقبضوا عليه، وبعد أن حاولت عصابة الجلواز التحرك نحو الشيخ حسين، فكان أن أشهر سيفه بوجوههم مهدداً وقال:

من يحاول الاقتراب مني سوف أجعله يسحل مصارينه من خلفه!.

تفاجأ الجلواز من شجاعة الشيخ حسين وجرأته، وعجز رجاله عن الاقتراب منه لخطورة الموقف، بعدها نكز الشيخ حسين حصانه، وعاد إلى قرية الزوية.

قد تكون أحداث هذه الواقعة طبيعية من وجهة نظرنا في الوقت الراهن، فمن الطبيعي أن يقوم أي فرد بالدفاع عن نفسه في العراق عام 2022م، عندما يُتّهم بجريمةٍ لم يقترفها، إلّا أنها كانت عملية غاية في الصعوبة والخطورة خلال العهود التي كان العراق فيها أشبه بغابة تحكمها عصابات من الجلاوزة المجرمين، نيابة عن السلطات العثمانية أو الإنكليزية فيما بعد، حيث كان أولئك الجلاوزة يرتكبون أبشع الجرائم ضد السكان، بينها القتل والاختطاف والتعذيب، في سبيل تنفيذ كل ما تطلبه السلطات الاجنبية الغاشمة منهم آنذاك، منها إرهاب السكان وإذلالهم، تحصيل الضرائب غير العادلة من الرعاة والمزارعين، وتجنيد الشباب وغيرها من الأعمال التعسفية، مستغلين قوة عصاباتهم أمام السكان العزل، وعدم وجود قوات شرطة وجيش وطنية، ومحاكم نظامية تفرض القانون والنظام وفقاً لأسس العدل والحقوق والواجبات، لذلك كان موقف الشيخ حسين هذا موقفاً شجاعاً نادراً، تمرد فيه على جلاوزة السلطات الاجنبية الظالمة في ذلك العصر المُظلم من تاريخ العراق الحديث، متحدياً عواقبه الرهيبة، وهي التعرض للسجن والتعذيب والقتل، دون حِساب أو عِقاب لتلك الزُمر الأثمة والخائنة لشعبها ووطنها.

مواقف لعم الشيخ خطاب الشيخ ركاض الضامن

كان الشيخ خطّاب شديد الفخر والاعتزاز بسيرة عمه الشيخ ركاض، ومن المواقف التي كان يذكرها على الدوام هي دبلوماسية عمه الشيخ ركاض، وسعة علاقاته الاجتماعية، وقدرته على حل المشكلات والخلافات بين أفراد المجتمع، عن طريق تدخله، وتحمله لمتطلبات الصلح المادية من ماله الخاص، دون أن يَعلّم أطراف النزاع أنّهُ دفع شيئاً، حيث كان يحاور الطرف الأول الذي يطالب بحق مالي ويتفاوض معه على الحد الأدنى لمطالبه المادية، بعدها يذهب إلى الطرف الثاني، فيُبلّغه بما طلبه الطرف الأول، وعندما يرفض الطرف الثاني دفع ما يطلبه الطرف الأول، يقوم بدفع المبلغ المطلوب من ماله الخاص دون علم الطرفين، بهدف الإصلاح بين المتخاصمين، وحماية السلم المجتمعي، وقد حدثني بمثل ذلك الشيخ أبو حسون الحماد، وقد أوردنا ذكره أنفاً.

موقف لوالده الشيخ صالح الضامن

حدثني السيد عاصي علي سليم المربد عن هذا الموقف، قائلاً:

" تعرض أبن السيد محمود محمد عبدالله الدوخي ذو العشر سنوات لحادث دهس غير متعمد أدى لوفاته، وذلك على الطريق العام الذي كان يمر من وسط قرية الخصم في الشرقاط، حدث ذلك عام 1974م، وصادف وجود الشيخ صالح الضامن أثناء وقوع الحادث، فعلِمَ أن السائق لم يتعمد دهس ذلك الطفل، وأن الموضوع حادث قضاء وقدر، لجأ سائق السيارة وهو من الطائفة اليزيدية إلى الشيخ صالح الضامن، فقدم له واجب الضيافة، وأخذ اسمه وعنوانه وأرسله إلى أهله في الموصل، بعدها ذهب الشيخ صالح الضامن إلى العزاء وقال للحضور:

أيها الأقارب، لقد مُنت عليكم، وأرسلت الجاني إلى أهله، فقد شاهدت الحادث بنفسي، ولم يكن السائق متعمداً في دهس ولدكم، لذلك لا حاجة للإجراءات القانونية التي تؤدي إلى إيداعه السجن وحجز سيارته، أتعهد لكم أن يؤدي الدية، فهل أنتم معترضون؟.

فأجابه السيد محمود الدوخي قائلاً:

على مونتك أبو عمران.

فتم بعدها الصلح وتقديم الديه، دون أن يُسجَن سائق السيارة الذي تسبب بحادث الدهس.

بعد مرور 35 عاماً على تلك الحادثة، حصل موقف مشابه مع أحد أبناء عشيرة الحوري، حيث أطلق النار بالخطأ خلال واجب عسكري على أحد أبناء الطائفة اليزيدية، مما أدى إلى وفاته، وعندما ذهب أبناء الحوري لعقد الصلح ودفع الدية، ذكر اليزيديون موقف السيد

محمود الدوخي والشيخ صالح الضامن وأهل الشرقاط، فتنازلوا عن حقوقهم القانونية، وأكرموا وفد عشيرة الحوري تقديراً لذلك الموقف.

الوقائع التي تم ذكرنها آنفاً تفسر لنا سبب افتخار الشيخ خطاب بتأريخ عائلته وعشيرته، ولذلك كان دائماً ما يردد القصيدة الشعبية الآتية:

أهلي اكرام النفس والجود شيملهم (الكرم من شيمهم).

صدور المجالس واهل ديوان شيملهم (يتصدرون المجالس ولهم ديوان ولا يمكن أن يُمَلّون).

الفهم عدهم من الرحمن شي ملهم (ذكائهم هو شيء ألهمه الله سبحانه وتعالى لهم).

هزلين وكت الهزل وبجدهم اجدادي (وهم هزلين مرحين أثناء الهزل وجديين أثناء الجد).

أمعربين الأصل والساس واجدادي (أصلهم عرب منذ الأجداد).

نالوا معاني الفخر قديم وجدادي (نالوا معاني الفخر في الزمن القديم والجديد).

سيوف الملاگه هلي وخشوم شمُ أهم (فهم كالسيوف وقت المعارك ولهم نفوس ذات أنفة وعزة).

الالتحاق بالكلية العسكرية

بعد تخرج الشيخ خطّاب من مرحلة الإعدادية عام 1980م، ظهر أسمه ضمن قوائم القبول المركزي للجامعات العراقية، وتحديداً في كلية التربية / جامعة البصرة، والواقعة آنذاك في منطقة التنومه، وذلك خلال الأسابيع الأولى من اندلاع الحرب العراقية الإيرانية، أورد لكم الحديث الذي دار بيني وبينه حول تلك المرحلة:

" تم قبولي في كلية التربية / جامعة البصرة، التحقت للدراسة في بداية العام الدراسي 1980م – 1981م، وتحديداً خلال الاسابيع الأولى لبدء الحرب مع إيران، كانت ظروف الدوام والدراسة صعبة وخطرة للغاية، حيث كانت قذائف المدفعية الإيرانية تنفجر على مقربة من القاعات الدراسية لبعض اقسام كليتنا في منطقة التنومه، بضمنها القسم الذي كنت أحد طلابه، بعد ثلاثة أسابيع من التحاقي في الجامعة قررت النزول إلى الشرقاط، وهناك كان أخي الملازم عمران في إجازته الدورية من جبهات القتال الجنوبية، فدار بيننا الحديث الآتي:

الحمد لله على سلامتك خطّاب، شلون وضعك هناك؟، شلون دراستك؟.

قلت: الحمد لله، المهم أنت بخير أبو خطّاب، شلون وضعك بالجبهة؟.

قال: والله يا خطّاب لا أعرف ماذا أقول لك؟، الأوضاع صعبة جداً في الجبهات الجنوبية، وحدتي العسكرية تقع ضمن القطعات المتقدمة في منطقة الأهواز داخل الأراضي الإيرانية، وتحديداً في منطقة البسيتين، وموضعي يبعد مئات الأمتار عن القوات الإيرانية، قبل أيام تعرضنا لهجوم كاسح من قبل الإيرانيين، فاضطررنا لعبور نهر الكارون سباحة باتجاه القطعات العراقية في الضفة الثانية من النهر، سقط العديد من زملائي شهداء وجرحى، وقد أُصبت إصابة خفيفة في كتفي الأيمن، والجرح في طريقه للشفاء، لكن إذا بقيت الأوضاع على ما هي عليه، فالأمور لا تبشر بخير، لنأمل أن تُثمر جهود السياسية الدولية بوضع حد لهذه

الحرب في الأشهر القليلة القادمة، وإذا لم يحصل تقدم في جهود الوساطة الدولية، فإن القادم لا يحمدُ عُقباه.

قلت: الحمد لله على سلامتك أبو خطّاب، ألمهم إنّكَ عُدتَ سالماً...

حثني بعدها أخي عمران على ضرورة الالتزام بالدراسة، وتحمل كافة الصعوبات والمعوقات لأنّها مؤقته، والأهم هو أن أكمل دراستي وأن أحصل على شهادة تؤهلني لوظيفة تليق بي، وفي سبيل ذلك قالي لي حرفياً؛ إنّهُ مستعد لتقاسم راتبه معي مناصفةً في سبيل إكمال دراستي.

هكذا كان أخي الاكبر عمران، قدوة في العلم والاخلاق، ورمزاً من رموز الشجاعة والتضحية، وملجأً نلوذ بهِ خلال المِحن والأزمات، افتقدتهُ كثيراً، لكن هذا هو أمر الله، والحمد لله إنّهُ خَلفَك بيننا، فأنت في نظري عمران آخر، أنت بالنسبة لي بمثابة أخ وليس ابن أخ فقط، أنت اخي يا أبو عبدالله".

بعد أن أكمل الشيخ خطّاب دراسة المرحلة الأولى في جامعة البصرة، ظهر أسمه في قوائم قبول الكلية العسكرية العراقية للدورة 66، ونتيجة لولعه بالجيش والخدمة العسكرية، ولما كانت تمنحه الرتبة العسكرية من مميزات معنوية ومادية في ذلك الحين، ترك الدراسة في جامعة البصرة، والتحق على الفور في الكلية العسكرية، ليتخرج منها برتبة ملازم ثاني في الجيش العراقي، وتحديداً بتاريخ السادس من كانون الثاني / يناير عام 1983م، ومن الواضح أن فترة الدراسة والتدريب كانت سريعة ولم تستغرق ثلاث سنوات كما هو معتاد في الكلية العسكرية العراقية، وربما لم تتجاوز سنة واحدة، وذلك نتيجة لظروف الحرب العراقية الإيرانية، والتي تطلبت إمداد جبهات القتال بالآلاف من الضباط والمقاتلين.

مدرسة قتال الحرس الجمهوري

نتيجةً لتفوق الشيخ خطّاب خلال فترة دراسته وتدريبه في الكلية العسكرية، تم تنسيبه للعمل بصفة ضابط تدريب في مدرسة قتال الحرس الجمهوري، والتي كانت تقع في معسكر الرشيد ببغداد، ومدرسة قتال الحرس الجمهوري هذه كانت عبارة عن مركز تدريب أساسي، تقوم بتعليم وتدريب المقاتلين الجدد على فنون ومهارات القتال الأساسية، فعمل الشيخ خطّاب مدرباً في هذه المدرسة منذ تخرجه عام 1983م وحتى عملية غزو الكويت عام 1990م.

الشيخ خطاب بعد تخرجه من الكلية العسكرية عام 1983م



أولت السلطات السياسية والعسكرية اهتماماً كبيراً بقوات الحرس الجمهوري كجزء من القوات المسلحة العراقية، حيث حصلت هذه القوات على أسلحةً وتجهيزات عسكرية كانت الأفضل على مستوى القوات المسلحة، كما تلقت تدريبات قتالية مركزة وعالية المستوى، جعلتها الأقوى والأكثر انضباطاً وجهوزية للقتال خلال تلك المرحلة.

تميز الشيخ خطّاب بشخصية عسكرية قوية متميزة منذ الأيام الأولى لتخرجه من الكلية العسكرية وعمله في مدرسة القتال، حيث أتصف بمستوىً عالٍ من الالتزام والانضباط العسكري، والنزاهة، والشجاعة، والإحاطة بالقوانين والتعليمات العسكرية.

حادثة جديرة بالذكر

أروي لكم شهادة أحد المقاتلين الذي خضعوا للتدريب في مدرسة قتال الحرس الجمهوري، وتحديداً عام 1984م، وهو المقاتل السابق فيصل عصمان صالح عباس الجبوري- يسكن حالياً قرية الابيتر- ناحية الملتقى، محافظة كركوك.

لتقيت هذا المقاتل عن طريق الصدفة، وذلك خلال زيارتي لقرية باجوان في كركوك مع وفد من شيوخ ووجهاء الشرقاط، للمشاركة في جلسة صلح عشائري بين أبناء عشيرة الگضاة (القضاة) الجبورية في كركوك، في أواسط أيلول / سبتمبر عام 2019م، وأليكم تفاصيل ذلك اللقاء.

بعد دقائق من وصولي مع الوفد المذكور، وبعد أن قُمنا بمصافحة الحضور وجلسنا في السرادق التي أُقيمت لتلك المناسبة، وقف أمامي رجل طويل القامة، رشيق، تجاوز العقد الخامس من العمر، يرتدي الزي العربي، وسألني:

هل أنت خطّاب؟.

نهضت على الفور، مددت يدي مصافحاً لهُ وقلت: نعم أنا خطّاب.

هل أنت أبن أخ ملازم خطّاب؟.

قلت: نعم.

دخل الرجل في موجةٍ من البُكاء الصامت، ضمني إلى صدره والدموع تنهمر من عينيه بغزاره، أيقنت أنّهُ من أصدقاء أو معارف الشيخ خطّاب، فطلبت مِنهُ الجلوس بجانبي.

جلس الرجل على يميني، وبعد أن أكمل عَبرته، مسح الدموع التي بللت وجهه مستخدماً يشماغه العراقي الأبيض المنقط بالأسود، فبادر بسؤالي عن أوضاع عائلة الشيخ

خطّاب وأحوالهم، وبعد أن أجبته إنهم بخير وأن أولاده مستمرون بإدامة مضيفه، قال لي الآتي:

عرفت عمك الملازم خطّاب لأول مرة عام 1984م، عندما تم تجنيدي للخدمة العسكرية في مدرسة قتال الحرس الجمهوري، كانت ظروف التدريب قاسية، وبعد مرور بضع أيام على وجودنا في المعسكر سألت المقاتلين:

ألّا يوجد ضابط من الديرة ليساعدنا؟.

قالوا نعم، ملازم خطّاب صالح الضامن، وهو من أهل الشرقاط.

توجهت إلى مكتبه بصحبة ثلاثة مقاتلين من كركوك، وهم كل من شهاب احمد شيخ المفرجي، يسكن قرية الممدودة، وبكر شكر عثمان وهو تركماني يسكن ناحية يايجي، وغازي حسن عطية، يسكن قرية كواز.

رحب بنا الملازم خطّاب، وعلى الفور اكمل دفتر الإجازات من دُرج مكتبه، فحرر لكل واحدٍ منّا إجازة لمدة أربعة أيام، تبدأ من يوم الاثنين حتى السبت من الأسبوع القادم، بعد ذلك أخرج محفظته ليعطي لكل مِنّا مصاريف الذِهاب والإياب، لكننا رفضنا أخذ المال بالرغم من إصراره، حيث كانت أوضاعنا المالية جيده حينها.

فرِحنا كثيراً بحصولنا على إجازة الأربع أيام وشكرناه قبل أن نغادر المعسكر.

الشيخ خطّاب الضامن في مكتبه بمدرسة قتال الحرس الجمهوري

عام 1984م.



وعند عودتنا إلى ساحة عرضات مدرسة القتال في بداية الأسبوع التالي، وبينما كان ضباط المدرسة ومقاتليها واقفين فجر يوم السبت، حدث الآتي:

تقدمَ آمر مدرسة قتال الحرس الجمهوري وهو العقيد الركن حقي شفيق صالح نحو الملازم خطّاب، فخاطبه بأعلى صوته قائلاً:

خطّاب؛ على أي أساس تمنح إجازات لأربعة مقاتلين بدون علمي؟.

كان الملازم خطّاب يتقدم فصيله، وهو في حالة الاستعداد، بكامل قيافته العسكرية وانضباطه ورشاقته متأبطاً عصا التبختر، فأجاب آمر المدرسة على الفور قائلاً:

أولاً: أنا لستُ خطّاب، أنا ملازم خطّاب، ويجب عليك احترام المرسوم الجمهوري الذي أحمِلّهُ.

ثانياً: منحتُ إجازات للمقاتلين وفقاً لصلاحيتي العسكرية، عندك ورقة وقلم، أكتب ولا تقصر.

حبستُ أنفاسي أمام هذا الموقف الرهيب، وتمنيتُ لو إنني لم أذهب مع رفاقي طلباً للإجازة، فمن يعلم ما الذي سيحدث بعد رد الملازم خطّاب وتحديه لآمر المدرسة بهذا الشكل، لكن النتائج التي جاءت سريعاً بددت مخاوفي، وجاءت بعكس ما خشيتُه، حيث تفاجئ آمر المدرسة برد الملازم خطّاب، فما كان مِنهُ إلّا أن أنهى الموقف وتراجع بهدوء.

أتممتُ فترة التدريب مع رفاقي، وتم نقلي إلى إحدى وحدات الحرس الجمهوري، فشغلتني ظروف الحرب والحياة عن التواصل مع الملازم خطّاب، علمتُ خلال عام 2015م أنّهُ موجود في كركوك، فحاولت معرفة عنوانه وزيارته، لكن الأقدار لم تهبني فرصةً أُخرى للقائه مع الأسف الشديد، إذ جاءني خبر مقتله فحزِنتُ عليه حزناً شديداً، لقد كان الملازم خطّاب من خيرة رجال العراق الشُجعان، ومن أبنائهِ البررةِ والخيرين، وبخسارتهِ طوّيت صفحة مشرقة ومنيرة من صفحات الرجال التي تضبط موازين الحياة، وتصنع التأريخ.

الشيخ خطّاب مع مجموعة من المقاتلين المتدربين في مدرسة قتال الحرس الجمهوري في النصف الأول من ثمانينيات القرن العشرين، يظهر في منتصف الصف الأول من المجموعة ويرتدي بدلة فاتحة اللون.

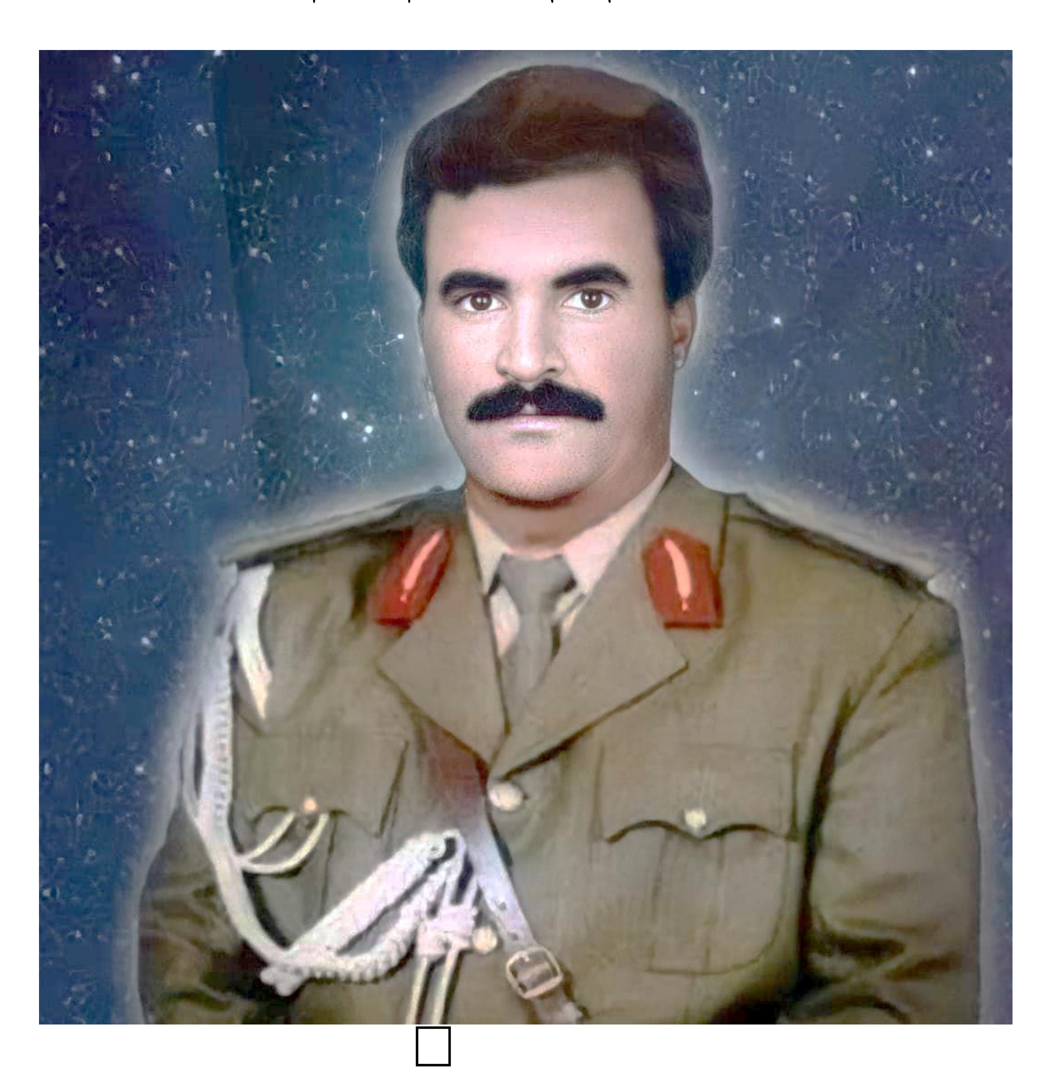


أحداث ذات تأثير مهم على حياة الشيخ خطّاب

حدثت خلال سنوات الفترة 1990م – 1993م أحداث ذات تأثير كبير على الحياة العسكرية والمدنية للشيخ المقدم خطّاب، **أولُ هذه الأحداث** كان محاولة الانقلاب التي خططت لها مجموعة من ضباط الحرس الجمهوري عام 1990م، على رأسهم النقيب سطم غانم الجبوري، والنقيب سطم الجبوري هو من الأصدقاء المقربين للشيخ خطّاب، حيث جمعتهم ظروف التقديم والقبول والتدريب في الكلية العسكرية منذ عام 1981م، علاوة على استمرار علاقات الصداقة بينهما في بغداد بعد التخرج من الكلية العسكرية، أضف إلى ذلك كون النقيب سطم من سكنة الساحل الأيسر للشرقاط، وتحديداً قرية اسديره، وبعد فشل محاولة الانقلاب تم تنفيذ حكم الإعدام بحق النقيب سطم ومجموعته التي خططت معه لتنفيذ الانقلاب عام 1990م، الأمر الذي جعل الشيخ المقدم خطّاب تحت دائرة الشك والمتابعة من قبل أجهزة الأمن والاستخبارات العراقية، نتيجةً لعلاقتِه الوثيقة بالنقيب سطم.

أما الحدثُ الثاني فكان تنفيذ حكم الإعدام بحق الشيخ درع الدين الشيخ ركاض الضامن، والشيخ درع الدين هو شقيق السياسي المعروف مشعان الجبوري، وأبن عم الشيخ خطّاب، إذ ربطت الشيخ درع الدين بالشيخ خطّاب علاقةُ ودٍ واحترام نتيجةً لصلة القربى الوثيقة، ونتيجة لتقارب السن بينهما، مما زاد من شكوك الأجهزة الأمنية بولاء الشيخ خطّاب للنظام آنذاك، وساهم بتشديد المراقبة على تحركاته، وخصوصاً قُبيل تنفيذ حكم الإعدام بحق الشيخ درع الدين في بداية عام 1993م.

النقيب سطم غانم الجبوري عام 1989م.



□

أسباب إعدام الشيخ درع الدين ركاض الضامن

وُلِد الشيخ درع الدين في قرية الزوية عام 1965م، وأمتلك شخصية متميزة أتصفت بالشجاعة والكرم والميل للمغامرة، كما كانت له قدرة كبيرة على بناء العلاقات الاجتماعية والسياسية من خلال الكاريزما الفطرية التي أمتلكها، مع ضرورة الإشارة إلى صفات النخوة للقريب والبعيد، والفكاهة وحسن النية التي تميز بها، وهو في ذلك يكونُ قريباً من الصفات التي ميزت والده الشيخ ركاض الضامن.

لمعَ نجم الشيخ درع الدين بعد غزو الكويت، وتحديداً مع نهاية عام 1990م، وهو في منتصف العشرينيات من العمر، إذ نجح في بناء علاقات اجتماعية وسياسية مع المجتمع العراقي في بغداد، ومع رموز السلطة الحاكمة، وتحديداً مع حسين كامل، وعزت ابراهيم، وعلي حسن المجيد، وغيرهم الكثير من الرموز العسكرية والمدنية للنظام خلال تلك المرحلة.

أستمد الشيخ درع الدين من قوة تأثير شخصيته أساساً في بناء علاقاته المذكورة مع رموز السلطة، بالإضافة إلى أنتهاجه للمنهج الإسلامي الصوفي، وتمرسه في علاج بعض الحالات المرضية عن طريق القرآن والسنة النبوية، حيث أفتتح عام 1991م عيادة للطب النبوي في منطقة 14 رمضان ببغداد، فضجت عيادته بالمئات من المراجعين وبشكل يومي، ونجح في علاج الكثير من المرضى، بضمنهم مرضى لعائلات كبار المسؤولين، الأمر الذي ساهم في تقوية علاقاته المذكورة برموز السلطة، وبعد أن تعاظم نفوذه داخل الحلقات المهمة في الجيش والحزب، أستشعر جهاز المخابرات خطورته على أمن الدولة، كونه أخ لرجل الأعمال والمعارض للنظام مشعان الجبوري، والذي نجح في مغادرة العراق إلى الكويت ثم إلى الاردن منذ عام 1989م، بالإضافة إلى ما شكلته محاولة انقلاب النقيب سطم الغانم ومجموعته من علامات استفهام وشك في ولاء أبناء قبيلة الجبور للسلطة، وبعد متابعة جهاز

المخابرات لتحركات الشيخ درع الدين وعلاقاته المذكورة، قرر صدام حسين التخلص مِنهُ عن طريق اعتقاله في منتصف عام 1992م، ثم إعدامه في آذار / مارس عام 1993م.

الشيخ درع الدين الشيخ ركاض الضامن عام 1992م.



غزو العراق للكويت

في الثاني من آب / اغسطس عام 1990م، وبأوامر مباشرة من الرئيس الأسبق صدام حسين، عبرت قوات الحرس الجمهوري العراقي الحدود مع الكويت، فيما عُرِف حينها بعملية غزو الكويت، وذلك نتيجة لتذمر صدام من انخفاض اسعار النفط الدولية منذ نهاية الثمانينيات، ولتورط العراق بديون طائلة خلفتها للحرب العراقية الإيرانية خلال الاعوام 1980م-1988م، بالإضافة إلى ارتفاع تكاليف برامج التسلح في العراق آنذاك، فجاء قرار اجتياح الكويت كمحاولة مجنونة للسيطرة على الاحتياطي المالي والنفطي الكويتي الهائل، وفرضاً لأمر واقع بضم الكويت إلى العراق، من خلال القوة العسكرية الكبيرة التي كان العراق يمتلكها على المستوى الإقليمي.

تسببت عملية غزو الكويت بعواقب وخيمة على الشعبين العراقي والكويتي، حيث خلفت الأشهر الأولى لعملية لغزو جرائم وانتهاكات ضد الإنسانية بحق الشعب الكويتي، بالإضافة إلى عمليات نهب وتخريب واسعة النطاق، تعرضت لها الممتلكات الكويتية العامة والخاصة، على يد بعض اللصوص من رموز السلطة العراقية، والكثير من اللصوص المدنيين الذين دخلوا الكويت بعد الغزو، مستغلين ظروف الاضطراب وعدم الاستقرار.

انتشار دبابات الجيش العراقي وسط مدينة الكويت في الثاني من آب / أغسطس عام 1990م.



كانت عواقب الغزو على الشعب العراقي أشدُ وأقسى من تلك التي تعرض لها الشعب الكويتي، وذلك نتيجةً لرفض الرئيس الأسبق صدام حسين لقرارات مجلس الأمن الدولي بالانسحاب من الكويت، الأمر الذي جعل العراق في مواجه مباشرة مع حرب دولية مُدمرة، قادتها الولايات المتحدة الأمريكية بمشاركة جيوش (32) دولة، فيما عُرِف حينها بالتحالف الدولي لتحرير الكويت.

بدأت العمليات العسكرية لطرد الجيش العراقي من الكويت ليلة 16/ 17 كانون الثاني/ يناير عام 1991م، من خلال عمليات قصف جوي وصاروخي مكثفة طالت قطعات الجيش العراقي في الكويت وكافة أرجاء العراق، بالإضافة إلى عمليات مُشابهه

استهدفت البنى التحية العراقية من طرق وجسور ومحطات توليد كهرباء ومصانع ومنشآت في كافة أنحاء العراق، فانتهت العمليات العسكرية باستسلام العراق لقوات التحالف الدولي دون قيدٍ أو شرط، في الثامن والعشرين من شباط / فبراير عام 1991م، بعد أن سُحِقت القدرات العسكرية والبنى التحتية العراقية تحت نيران القصف، وقُتِل عشرات الآلاف من العسكريين والمدنيين العراقيين.

وعقِب انتهاء العمليات العسكرية بين العراق وقوات التحالف الدولي، اندلعت عمليات تمرد مسلح واسعة النطاق في جنوب العراق وشماله عُرفت فيما بعد بالانتفاضة الشعبانية في الوسط والجنوب، وانتفاضة الكرد في الشمال، فسيطر المتمردون خلالها على 14 محافظة عراقية من أصل 18 محافظة، وهي محافظات أربيل والسليمانية ودهوك وأجزاء من كركوك في الشمال، ومحافظات بابل، كربلاء، النجف، ميسان، ذي قار، القادسية، البصرة، المثنى، ديالى وواسط في الوسط والجنوب والشرق.

تمكنت قوات النظام من إخماد عمليات التمرد بعد لملمة صفوفها عقب الانسحاب من الكويت، والتوقيع على معاهدة الاستسلام مع قوات التحالف، فاستخدمت مبدأ القوة المفرطة والعقوبة الجماعية ضد المتمردين والسكان في المحافظات التي سيطر عليها المتمردون، الأمر الذي تسبب بمقتل الآلاف من المدنيين والمتمردين، ونزوح مئات الآلاف من السكان داخل العراق وخارجه، انتهت عمليات التمرد بعد حوالي شهرين من اندلاعها، وتحديداً في شهر نيسان / أبريل عام 1991م.

أستمرت عواقب عملية غزو العراقي للكويت بعد انسحاب العراق وانتهاء عمليات التمرد، حيث فُرِض الحضر الاقتصادي الشامل على العراق منذ عام 1992م حتى عام 2003م، وتسبب بمأساة إنسانية كبيرة، نتيجةً لتجميد الأموال العراقية في الخارج، بالإضافة

إلى منع العراق من أنشطة الاستيراد والتصدير بشكل شبه كامل، الأمر الذي أدى إلى تجويع الشعب العراقي، وموت مئات الآلاف من الأطفال وكبار السن، نتيجةً لنقص الغذاء والدواء.

لم تنته عواقب علمية غزو الكويت عند هذا الحد، بل أستمرت لتشمل قيام القوات الأمريكية باحتلال العراق وإسقاط نظام الحكم فيه، وحل كافة المؤسسات العسكرية والأمنية والمدنية عام 2003م، الأمر الذي أدى إلى فتح الحدود العراقية أمام أجهزة المخابرات الدولية والمنظمات الإرهابية، فتحول العراق إلى ساحة حرب دولية بين القوات الأمريكية وبعض دول الجوار، فأصبحت الأرض العراقية مرتعًا للمنظمات الإرهابية الدولية، والتي نفذت عمليات إرهابية واسعة النطاق ضد الشعب العراقي، وعمدت على تخريب البنى التحتية للعراق، وأعاقت تقدمه لفترة أستمرت لأكثر من عقد.

أستمرت الأوضاع على ما هي عليه منذ عام 2003م حتى منتصف عام 2014م، عندما سيطرت التنظيمات الإرهابية على عدد من المحافظات العراقية، وهي محافظات نينوى والأنبار، وعلى أجزاء واسعة من محافظات كركوك وصلاح الدين وديالى.

تمكن الشعب العراقي وبعد فتوى الجهاد التي أطلقها المرجع الديني الأعلى في العراق السيد علي السيستاني من توحيد صفوفه لمقاومة العصابات الإرهابية، وتحقق الانتصار على تلك التنظيمات التي أقترف أبشع الجرائم بحق أبناء الشعب العراقي، ومن مختلف الاطياف والمكونات، فتم سحق العناصر الإرهابية التكفيرية بشكل كامل، بعد أن تمت محاصرتها في مدينة الموصل عام 2017م.

زياره للكويت

أروي لكم عن لسان الشيخ خطّاب وقائع زيارته للكويت بعد احتلالها من القوات المسلحة العراقية، وتحديداً في نهاية شهر آب/ أغسطس 1990م:

" لم تُشارك وحدتي العسكرية في عمليات اجتياح الكويت، حيث كنت حينها آمر سرية في مدرسة قتال الحرس الجمهوري بمعسكر الرشيد، برتبة رائد، وفي نهاية شهر الاجتياح، حصلت على إجازتي الدورية، فقررت زيارة الكويت بصفتي المدنية حباً للاستطلاع لا غير، استقليت سيارتي الخاصة نوع أولدز موبيل موديل 1990م، وتوجهت من بغداد نحو البصرة، في صباح اليوم التالي دخلت مدينة الكويت، كانت المشاهد صادمة ومؤلمة جداً بالنسبة لي، شاهدت عمليات نهب واسعة النطاق تعرضت لها منازل الكويتيين وممتلكاتهم، كان المئات من العراقيين يفترشون الأرصفة ليبيعوا الأجهزة الكهربائية والأثاث الكويتي بأسعار بخسة، أحتلت قطعات الجيش كافة الدوائر الحكومية، أصبحت المباني الفخمة للشركات والمصارف والفنادق الكويتية مقرات شبه مدمرة ومنهوبة لسرايا الجيش وفصائله.

قررت مغادرة الكويت بعد ساعات من وصولي، وقبل عودتي شاهدت الباعة يفترشون الأرض بأجهزة الفيديو كاسيت والتلفزيونات وغيرها من الأجهزة المنزلية الحديثة في حينها فاشتريتُ مجموعة من الأجهزة المنزلية واتجهت إلى البصرة .

أمضيت ليلتي عند أحد الأصدقاء في البصرة، وهو النقيب احمد حسن، من سكنة منطقة العشار، في الصباح سافرت إلى بغداد، وفي اليوم التالي توجهتُ إلى الشرقاط.

وصلت إلى مدينة الشرقاط عصراً، وعند وصولي بالقرب من منزلي، شاهدت والدي وهو يرتدي بدلته العربية (الزبون العربي)، وغترته البيضاء، جالساً على كرسي أمام مضيفه الذي يقع على تلة عالية بجوار دارنا، هيأته أوحت لي أنّهُ على موعد مع أحد زملائه لأداء

واجب اجتماعي أو للتدخل في حل مشكلة معينة، قلت لنفسي، يجب أن أتجه إليه لأداء السلام والتحية قبل أن أذهب إلى منزلي الذي يبعد حوالي 100 متراً عن المضيف، صعدت بسيارتي لأعلى التل، أوقفتها بالقرب من والدي ونزلت للسلام عليه، فدار بيننا الحديث الآتي:

السلام عليكم، شلونك يابه؟.

بادرني والدي بابتسامته المعهودة، بوجهه الثمانيني، وبهيبته التي تملئني التزاماً وهيبةً وانضباط، انضباطاً يفوق حتى انضباطي في وحدتي العسكرية.

قال: هلا وليدي، الحمد لله على سلامتك، شلونك؟.

تعانقنا طويلاً، شممت في غترته رائحته الزكية التي لم تتبدل منذ أن كنت في الرابعة من العمر، أستطيع الآن أن اتخيلها، بل إنها دخلت إلى انفي بالفعل، الله كم كانت طيبة وزكية، إنها رائحة الآب.

وبعد أن أطمئن على صحتي وأحوالي، طلب مني الانصراف لأخذ قسط من الراحة، وأبلغني أنّهُ متجه إلى قرية الزوية لأداء واجب عزاء مع أحد اصدقائه، قلت حسناً يا أبي، سار بجانبي نحو السيارة ليودعني، فشاهد أجهزة الفيديو والتلفزيون وغسالة الملابس داخل السيارة، أمتعض على الفور، فسألني:

ما هذه الأجهزة؟، هل أنت ممن شاركوا بنهب الكويت؟ اخبرني؟، هل ربيتكم على النهب أو أكل المال الحرام، هذه ممتلكات ناس كويتيين، جاوبني بسرعة.

انتابتني نوبه من التوتر والإحراج، تمالكت نفسي بسرعة فأجبت:

لا والله يابه، لا نهبت ولا سرقت ولا يمكن أن أقوم بمثل هذا ابداً، فوحدتي العسكرية لم تشارك في احتلال الكويت أصلاً، لقد ذهبت للكويت خلال إجازتي بهدف الاطلاع على الأوضاع هناك، وعند عودتي اشتريت هذه الأجهزة من مالي الخاص، من راتبي.

سكت قليلاً، إلّا أن آثار الامتعاض وعدم الرضى كانت مستمرة على وجهه، وقال:

ما كان لازم تروح، وما كان لازم تشتري هذه المواد المسروقة، هذه أموال حرام، وقد دخلت إلى بيوت معظم العراقيين، وسوف ترى ما سيحصل لنا في المستقبل عقاباً من الله، سوف ندفع الثمن أضعافاً مضاعفه!.

قصيدة شكوى للشيخ خطّاب من أحد شعراء الشرقاط

حدثني الشاعر الشعبي محمد جلال السبع اللويزي، وهو من أهالي قرية بعاجة في مدينة الشرقاط، إنّهُ سمع عن مآثر الشيخ خطّاب ومواقفه في مجالات الشجاعة والكرم واحترام الآخرين وتقديرهم، كان هذا عام 1991م، وذلك قبل أن يلتقي به، فأرسل لهُ القصيدة الشعبية الآتية، شاكياً فيها من ظلم الزمان وجوره [1]:

أرسل سلامي واخص خطّاب ابن ضامني. (ارسل سلامي خصيصاً لخطاب أبن ضامن)

اشكيله امن الوكت جار وعدا وضامني. (أشكي له من الزمن الذي جار عليَّ ولم ينصفني).

كلما اگول اخلصت يجاوب ألك ضامني. (كلما ظننت أن ظلم الزمن قد أنتهى، أجابني بأنّهُ يخبئ لي المزيد).

هم ومغثه وجلت الراح والبيني. (ومنها الهم، والقهر، وقلة الراحة والحزن).

علش البغض يا وكت شل بينك وبيني؟. (لماذا تكرهني أيها الزمن، ما الذي بيننا؟).

دايم بأمرك شتطلب البي أني. (فأنا دائماً ألبي ما تطلبه ايها الزمن).

أكفيك عن الخلگ للهم أنا ضامني. (أتكفل لك بهموم الخَلّق واضمن لك تحملها).

(1) المقابلة الشخصية التي أجراها الباحث مع الشاعر الشعبي السيد محمد جلال السبع اللويزي، وهو من مواليد عام 1972م، أُجريت المقابلة بتاريخ 19/ 10/ 2022م.

عبر الشاعر الشعبي محمد الجلال عن الظروف العصيبة التي كان يقاسيها يوم كان طالباً في مرحلة السادس إعدادي، وهو شاب بعمر تسعة عشر عام، فحدث أن التقى الشاعر محمد بالشيخ خطّاب بعد أن أرسل له تلك القصيدة، وتسعفني الذاكرة أن الشيخ خطّاب مد له يد العون، لمواجهة المصاعب والمتاعب التي كان يُقاسيها، فأصبحا صديقين حميمين منذ تأريخ لقائهم الأول.

مواجهة التمرد المسلح في جنوب العراق

يتنكر معظم البشر لقيمهم الإنسانية النبيلة والعالية خلال تعرضهم لضغوط عنيفة، أو عند مرورهم بظروف قاهرة، عندها تكون الحياة على المحك، فيُترك الإنسان أمام خيارين أثنين لا ثالث لهما، ولا حالة وسيطة تقرب بينهما، ولا وقت للتفكير أو النقاش، عندها يكون المرء أمام خيار واحد فقط، إما التخلي عن أخلاقه وقيمه الإنسانية في سبيل البقاء على قيد الحياة، الحياة بجمالها وسحرها، مستقبلها ومغرياتها، وإما الموت، الموت الذي يعني النهاية، النهاية الأبدية، وأعظم الخسارات التي يمكن أن يخسرها الإنسان على الاطلاق، إنها خسارة الحياة، الخسارة التي لا يمكن تعويضها، وحدهم الذين يتغلبون على الخوف من الموت بإمكانهم الثبات على قيمهم واخلاقياتهم، بعد أن يتخذوا قرار التضحية بالحياة، لا لكرههم لها، بل لسمو نفوسهم وعلو هممهم، وقدرتهم على التضحية في سبيل الآخرين، إنهم الشجعان والمضحون والمتسامون، والعظماء بتعبيرٍ آخر، وحدهم لديهم القدرة على التضحية من أجل الإصلاح، ومن أجل الآخرين، وحدهم يبقون خالدين في التأريخ وفي النفوس.

في إحدى ليالي آذار / مارس عام 1991م، كان البردُ شديداً ، والجو ممطراً والأرض مغطاة بالماء والوحل، التيار الكهربائي مقطوع بالكامل والظلام دامس، وحدها المدفأة النفطية نوع (عشتار) كانت تمد غرفتنا الطينية المستطيلة بالنور والدفء، كانت غرفتنا قبل أن نسكنها عبارةً عن مضيف طيني يملكه جدي لأمي الحاج عيسى العروة، بناهُ له ابناؤه يوم كان مختاراً لأبناء عمومته في مناطق الشرقاط، ليستقبل بهِ ضيوفه، موقعهُ كان في نهاية حديقة دارهم، أحسنوا بناءه وأبدعوا فيه، فهو بالرغم من كونه مضيفاً طينياً، كانت جُدرانه مجصصه بطريقة فنية راقية، ومطلية باللون السمائي، أرضيتهُ كونكريتية مستوية وناعمة، أعمدة سقفهِ حديدية من الشيلمان الفاخر، مطلية باللون الأحمر لمقاومة الصدأ، صرائف السعف فوق

أعمدة السقف كانت ذهبية، بابهِ كان من خشب الصاج بمقبض حديث، هكذا كنت ولا زلت احسبهُ، انتقلتُ إليه مع والدتي بعد فقدان والدي في الحرب العراقية – الإيرانية كما ذكرت، وتحديداً في شتاء عام 1985م، حيث تنازل جدي في أيامه الاخيرة لأبنته وحفيده بمضيفه الجميل، يا لها من تضحية، ويا لهُ من رجُلٍ حنون وكريم.

وبينما كنت جالساً أمام المدفأة في ذلك المساء، يتلقف جسمي الدفء، وأُحلقُ في فانوسها الذي كان يشع بالنور، طُرِق الباب بإلحاحً شديد، نهضت وفتحت الباب، وإذا به أحد أعمامي، فأبلغني بالآتي:

خطّابنا عاد من وحدته العسكرية هذا اليوم، وأرسلني لأجلبكم، سيارتي في الخارج، هيا بنا لنذهب بسرعة، فالجو باردٌ جداً كما ترى.

خرجنا أنا ووالدتي بعد دقائق قليلة واستقلينا سيارته ذات الباب المنفرد، كانت صغيره، زرقاء اللون، كنت ولا زلت أجهل نوعها، لكن كنا نسميها بـ (الزوبه).

وصلنا إلى دار الشيخ خطّاب، كان نور الربعة (المضيف) شديد، مصدر النور كان شيء مثبت على قنينة غاز، يصدر صوتاً ويشع بالنور، في ما بعد عرفت أسمه، إنّهُ (اللوكس)، وهو مصباح يعمل على الغاز، توجهت إلى عمي الشيخ خطّاب لأسلم عليه، لم يتمكن من الوقوف، انحنيت فقبلني وقبلته، ناداني بالاسم الذي كان يناديني به خلال طفولتي، هلا بـ (توبي)، هكذا كان يسميني!.

جلسنا لبضع دقائق، بعدها شاهدت زوجته وهي تحمل اللفافات الطبية ومعقم الديتول، اقتربت فشاهدت جُرح كبير في فخذه الأيمن، جُرح قُطر فتحته تتجاوز حوالي الـ (2) انج، علمت في ما بعد أنّهُ قد أُصيب بإطلاقة قناص، وأن الجرح من الجهة الأمامية

للفخذ هو مخرج الرصاصة، أما مدخلها من الجهة المعاكسة فقد كان صغير جداً، صغير بحجم قطر السيجارة.

انهمكنا باستقبال الضيوف الذين حضروا للسلام عليه والتهنئة بمناسبة سلامته وعودته، أذكر منهم العقيد صباح حجاب الجاسم، وزوجته، وعدد من الجيران، مرت ساعات على وجودنا ووجود الضيوف، وبعد مغادرة الضيوف، سأل الشيخ خطّاب أهلهُ قائلاً: هل بقي أحد من الضيوف في المنزل؟.

أجابوه: كلا، الجميع غادروا.

دخل الشيخ خطّاب على الفور في موجة عميقة من البكاء، بكاء بصوتٍ عالٍ، وضع راحات يديه على وجهه، والدموع تنزل كالمطر على وجنتيه، أستغرب الجميع من هذه الحالة، فقالوا له:

توكل بالله، نحن فرحون بسلامتك وعودتك، جرحك لا يعتبر خطر والحمد لله، لماذا تبكي؟.

بعد دقائق من البكاء أجابهم:

إنني لا أبكي على جُرحي، لا لا، أنتم لا تعلمون ما الذي حصل، لقد حلت كوراث في الناس، أستطرد بعدها ليروي ما حصل قائلاً:

جاءتنا الأوامر من قيادتنا في الحرس الجمهوري بالتوجه إلى محافظة كربلاء لمواجهة المتمردين هناك، وبعد أن وصلنا إلى أطراف مدينة كربلاء، تم تكليفي بواجب آمر سيطرة مدخل كربلاء الشمالي، استلمت مهام عملي مع القوة المخصصة لمسك السيطرة منذ إشراقات الصباح الأولى، موقع سيطرتنا كان على طريق رئيسي شمال مدينة كربلاء، يقع بين بساتين نخيل كثيفة، دخلت طائرات الهليكوبتر إلى المنطقة وبدأت بقصف المدينة، دخلت بعدها

الأرتال العسكرية المدرعة عبر سيطرتنا إلى مدينة كربلاء، وبعد ساعات على انطلاق العمليات العسكرية، بدأت مجاميع من الأهالي تتجمع تحت أشجار النخيل على مقربة منا، كانوا مجاميع من النساء والأطفال وكبار السن فقط، تفهمت أنهم كانوا خائفين من القصف فجاءوا إلى مكان آمن بالقرب من سيطرة عسكرية، فأرسلت لهم الماء مع المقاتلين.

بعد مرور حوالي ساعة على تجمع الأهالي، فوجئنا برتل عسكري كبير، مكون من سيارات عسكرية نوع لاندكرويزر، وسيارات حمل عسكرية نوع داينا، توقف الرتل، ترجلت مِنهُ مجموعة من الضباط، بينهم الفريق حسين كامل المكلف من الرئاسة بقيادة القطعات العسكرية في محافظة كربلاء، كان يرتدي بدلته العسكرية مع رتبته العسكرية الكبيرة، ويلف يشماغ أحمر فوق رأسه (چراوية)، وقد قام بكف أكمام قميصه فوق كواحله.

تقدمت نحوهم، أديت التحية العسكرية وقدمت نفسي، رحب حسين كامل بي، وسألني عن الأوضاع في منطقة السيطرة، أجبته بأنها على أتم وجه وأن ليس لدينا أي معوقات، بعدها ألتفت حسين كامل نحو مكان تجمهر الأهالي فسألني:

(منو ذولي؟) من هؤلاء؟.

قلت: إنهم مجموعة من النساء والأطفال وكبار السن هربوا من القصف وتجمعوا بالقرب منا يا سيدي.

قال: تنفذ فيهم حكم الإعدام وفوراً!.

جاءت كلماته كالصاعقة على رأسي.

قلت: نعم سيدي.

وقبل أن يواصلوا مسيرهم نحو مدينة كربلاء، سحبني مرافقه الشخصي من يدي وهو يحمل دفتر ملاحظات، أسمهُ كان قائد، ورتبته عقيد ركن، قال لي الكلمات الآتية وهو يدونها في دفتر ملاحظاته:

ما أسمُك؟.

قلت: رائد خطّاب صالح ضامن.

قال: ما هو عنوانك المدني؟.

قلت: قرية التل، قضاء الشرقاط، محافظة صلاح الدين.

قال: عليك أن تنفذ أوامر السيد الفريق حسين كامل وفوراً.

قلت: نعم سيدي.

قال: عليك أن تبقى في سيطرتك وغير مسموح لك بتركها مطلقاً.

قلت: نعم سيدي.

قال: إذا بلغني إِنكَ تركت السيطرة لأي سبب سوف أعدمك.

قلت: نعم سيدي.

أكمل تدوين ملاحظاته وأنطلق مع موكب الفريق حسين كامل نحو مدينة كربلاء.

بعد أن غادر الرتل، شعرت بالدوار، لم تعد الأرض تحملني، نظرت نحو السماء، ثم نحو الأطفال والشيوخ والنساء وهم يشعرون بالأمان النسبي كونهم بالقرب من سيطرة عسكرية، وكونهم مدنيون.

فتقدمتُ نحوهم بمفردي، بِخُطىً متثاقله، وصلتهم، فخاطبتهم قائلاً:

السلام عليكم.

أجاب كبار السن،: وعليكم السلام أهلا وسهلاً بويه.

قلت: هل تعرفون من كان في الموكب الذي توقف في السيطرة قبل قليل؟.

قالوا: نعم نعرفه، إنّهُ السيد الفريق حسين كامل.

قلت: يا أهلي، لقد آمرني أن أعدمكم، أن أرميكم بالرصاص، ولا يمكن لي أن انفذ مثل هذا الأمر حتى لو كانت حياتي الثمن، أرجوكم أهربوا من هنا فوراً، أذهبوا لمكان آخر!.

تفاجأ الجميع بما سمعوه مني، فحملوا الأطفال وهربوا على الفور، مشهدهم وهم يركضون أثر بي كثيراً، والحمد لله أنهم نجوا من ذلك الموقف الرهيب.

بعد وقت قليل على هذه الحادثة، وردني عبر جهاز الاتصال اللاسلكي خبر إصابة آمر وحدتي وهو برتبة عميد ركن، ربطتني به علاقة ود واحترام، فركبت سيارة الواز العسكرية، وتوجهت فوراً نحو وحدة طبابة الميدان التي كان يتلقى الاسعافات الأولية فيها، وجدتهُ وقد أُصيب بطلقة قناص اخترقت وجهه من جهة اليسار إلى اليمين، فهشمت عظام الفك ومنعته من الكلام، وبينما كنت أمسك بيدهِ للاطمئنان عليه وتشجيعه، فوجئت بوجود مرافق الفريق حسين كامل في وحدة طبابة الميدان، وهو العقيد الركن قائد، وعندما شاهدني صرخ بوجهي قائلاً:

رائد خطّاب، ألم أقل لك إنني سوف أعدمك إذا تركت سيطرتك لأي سببٍ كان؟.

وقبل أن أُجيبه، بادره العميد الركن المُصاب بإشارات اليد ومن خلال التمتمات طالباً منه تركي وشأني، ولحسن الحظ كانا على معرفة وعلاقة جيدة.

قال العقيد الركن قائد: حسناً، عُد إلى سيطرتك فوراً.

قلت: نعم سيدي.

عند خروجي من وحدة طبابة الميدان، وقبل صعودي إلى سيارة الواز، أُصِبتُ بطلقة قناص، فتم إسعافي، وعدت بإجازة مرضية، وها أنا الآن بينكم.

حادثة في النجف الأشرف

بينما كُنت في الأيام الأولى من عطلة نصف السنة، في مرحلة الأول متوسط نهاية شهر كانون الثاني / يناير عام 1993م، أرسل في طلبي الشيخ خطّاب، وأبلغني أن عليَّ تجهيز نفسي للسفر معه إلى وحدته العسكرية في مركز محافظة النجف الأشرف، انطلقنا في صباح اليوم التالي نحو بغداد، فوصلناها بعد الظهر، وبعد جولاتٍ زار خلالها الشيخ خطّاب منازل بعض أصدقاءه، أستقرينا في دار أحد رفاقه الضباط والواقعة في منطقة الأعظمية، فأمضينا الليلة في منزلهم، وفي الصباح انطلقنا نحو مدينة النجف، فوصلنا إلى مكان عمل الشيخ خطّاب، وهو مقر لواء 23 حرس جمهوري، إذ كان يشغل منصب آمر سرية مقر اللواء برتبة رائد حينها، يقع مقر اللواء في منطقة خضراء مليئة بالأشجار وسط مدينة النجف، وتحديداً في مدينة ألعاب النجف، حيث اقتطعت قوات الحرس الجمهوري حوالي نصف مساحة وأبنية مدينة الألعاب واتخذتها مقراً لقيادة اللواء 23، بينما أستمرت مدينة الألعاب بتقديم خدماتها للسكان من خلال النصف الثاني من المساحة المذكورة.

تجولت في مدينة النجف برفقة الشيخ خطّاب خلال معظم الأيام التي قضيناها هناك، حيث نظم لي زيارات يومية شملت المزارات المقدسة في النجف وكربلاء، أسواق مدينة النجف ومطاعمها، مدينة الالعاب ومقبرة النجف الكُبرى، كانت مخلفات حرب الكويت ومواجهة التمرد واضحة في المدينة، فقد لاحظت تجنب الناس للاختلاط مع العسكريين، كما شاهدت ذوي الضحايا العسكريين والمدنيين وهم يبكون أبنائهم ويحملون صورهم في مقبرة النجف الكُبرى، شاهدت أيضاً بعض النساء اللواتي يرتدين العباءات والجبب السوداء، يترددن إلى بوابة اللواء الخلفية الملاصقة لمدينة الألعاب، ومعظمهن كُنَّ يحملن قدور تحتوي على وجبات من الطعام، فيقدمنها لبعض الضباط، شاهدت ذلك خلال جولاتي المتكررة في

تلك الغابة المصغرة، والحقيقة إنني لم أجد تفسيراً لتلك المشاهدات، حيث كانت تلك النسوة على قدير كبير من الحشمة والوقار، ولم أرَ ما أوحى لي بوجود علاقات مشبوهة، فيما بعد، وبعد سقوط النظام عام 2003م، توصلت إلى استنتاج مفاده أن معظم النساء اللواتي كُن يترددن إلى بوابة مقر اللواء هُن ممن فقدت أبناً أو أخاً أو زوج خلال أحداث قمع التمرد عام 1991م، وربما كُن يحاولن معرفة مصير ذويهن من خلال تقديم الهدايا والطعام لبعض الضباط، وبالتأكيد باءت كل محاولاتهن بالفشل في ذلك الحين.

في أحد الصباحات، وبينما كان الشيخ خطّاب منهمكاً بأداء واجباته العسكرية في مقر اللواء، كنت جالساً لتناول وجبة الفطور في بهو الضباط، وتحديداً بعد الساعة التاسعة صباحاً، ففوجئت بجلوس أحد زملاء الشيخ خطّاب على طاولة الطعام التي كنت أجلس عليها، كان هذا الضابط من أهالي بغداد برتبة مقدم، أذكر إنّهُ كان وسيماً ولبق، أسمه مقدم عصام، دار بيننا الحديث الآتي:

مقدم عصام: أهلا وسهلاً بخطّاب الصغير، شلونك؟.

قلت: الحمد لله بخير.

قال: ماذا تعرف عن نقيب سطام، هل كانت تربطه علاقة بعمك خطّاب؟ (يقصد النقيب سطم الجبوري وكان يسميه نقيب سطام).

قلت: لا أعرف النقيب سطام.

قال: كيف لا تعرفه، إنّهُ نقيب جبوري من الشرقاط، وقد أُعدِم قبل ثلاث سنوات.

قلت: أها، نعم، إنّهُ النقيب سطم، وهو صديق عمي خطّاب.

قال: وكيف عرفت ذلك؟.

قلت: رأيت صورهم أثناء التدريب في الكلية العسكرية.

قال: وما الذي قالهُ عمك خطّاب بعد إعدام صديقه النقيب سطام؟.

قلت: لم يقل شيئاً، لم أسمع منه شيئاً حول إعدام النقيب سطم.

قال: وهل كان عمك حزين على إعدامه؟.

قلت: أذكر أنّهُ ذهب إلى عزاء النقيب سطم، ومن الطبيعي أن يحزن الشخص لموت أحد أصدقائه، وبعد دقائق معدودة، ودعني المقدم عصام وغادر البهو.

بعد نهاية ذلك الحديث، عاد الشيخ خطّاب إلى غرفته بعد الظهر حيث كنت جالساً، أبلغته عن الحوار الذي دار بيني وبيني المقدم عصام، فبانت على وجهه مشاعر القلق والاستغراب، وأبلغني على الفور بعدم التحدث مع أي شخص حول هذا الموضوع مجدداً.

في مساء اليوم التالي، وبينما كنت بصحبة الشيخ خطّاب لتناول وجبة العشاء في بهو الضباط، جلس المقدم عصام على مقربة من الشيخ خطّاب، فدار بينهم الحديث الآتي وبصوت مرتفع:

المقدم عصام: ألف رحمه على روحك سطام، ألف رحمه على روحك سطام، والله بطل، والله بطل، لو الله موفقك چان خلصتنا من هل وضعية التعبانة.

الشيخ خطّاب بعد أن نهض من على كرسيه وأخذ يُهدد بسبابته اليمنى نحو المقدم عصام:

أحترم نفسك، لا أسمح لك أن تتكلم بمثل هذا الكلام أمامي، أنت تتكلم عن شخص حاول اغتيال السيد الرئيس حفظه الله، رجاءً لا تفتح مثل هذه المواضيع أمامي مستقبلاً وابداً.

لم يرد المقدم عصام على الشيخ خطّاب ولا حتى بكلمة واحدة، أخفض رأسه وبقي صامتاً لدقائق، ثم غادر البهو بهدوء.

قال الشيخ خطّاب تلك العبارات وهو في حالة شديدة من العصبية والانفعال، كان يعلم أن المقدم عصام يعمل لصالح أجهزة الاستخبارات العسكرية، وبالتأكد كان يحمل جهاز تسجيل بهدف الإيقاع به وإعدامه، وذلك نتيجة لعلم الأجهزة الاستخبارية بعلاقته بالنقيب سطم من جهة، وكونهُ أبن عم الشيخ درع الدين الذي كان ينتظر تنفيذ حكم الإعدام في سجون المخابرات العراقية، وبالفعل تم تنفيذ حكم الإعدام بالشيخ درع الدين بعد أقل من شهر على هذه الحادثة. وهكذا تظاهر الشيخ خطّاب بغير حقيقته لحماية نفسه من الفخ المنصوب له، فنفى صِلته بالنقيب سطم رغم إنّهُ كان من أعز أصدقائه .

أنتهى الحديث بين المقدم عصام والشيخ خطّاب عند هذا الحد، وبعد عودتنا بأشهر قليلة، تمت إحالة الشيخ خطّاب إلى دائرة المحاربين في وزارة الدفاع، والإحالة إلى هذه الدائرة كانت بمثابة الإحالة إلى قوة الاحتياط القريب، حيث يذهب الضباط المُحالين إليها لاستلام رواتبهم مرة واحدة في الشهر فقط، دون أي حاجة لتواجدهم خلال طيلة الأيام المتبقة من الشهر.

أُحيل الشيخ خطّاب إلى دائرة المحاربين وهو في بداية شبابه وقمة عطاءه العسكري، برتبة رائد وبعمر واحد وثلاثين سنة، بعد أن نجا بأعجوبة من المحاولة التي دبرتها الاستخبارات العسكرية للإيقاع به وإعدامه من خلال المقدم عصام، نتيجةً لعلامات الاستفهام والشكوك التي وضِعت حوله، فبقي في هذه الدائرة حتى عام 2001م، حيث تم نقله إلى إحدى تشكيلات جيش القُدس، وتحديداً إلى فوج جيش القُدس في قضاء بلد شمال بغداد.

تغير مهم في مسار حياة الشيخ خطّاب

توفي الشيخ صالح الضامن في التاسع عشر من نيسان / أبريل عام 1993م كما ذكرنا، جاءت وفاته بشكل مفاجئ، حيث كان يمتع بصحة جيده، وكان يؤدي واجباته الاجتماعية على أتم وجه، وذلك بالرغم من بلوغه سن الثالثة والثمانين من العمر، إذ كان مهتماً بصحته، لا يُدخن ويحرصُ على تناول الغذاء الصحي.

أُقيم للشيخ صالح الضامن مراسم تشييع مهيبة، شارك فيها المئات من أبناء وشيوخ ووجهاء الشرقاط والمدن المحيطة بها، بعد أن تم نشر خبر رحيله في الصحف الرسمية العراقية، كما أُقيمَ لهُ مجلس عزاء كبير أستمر لحوالي أسبوعين، أستقبل فيه أهل الشرقاط وفود المعزين من كافة أنحاء العراق، وأذكر إننا كُنّا نجهل الكثير من الوفود المعزية القادمة من مدن العراق المختلفة، وذلك لاتساع علاقاته الاجتماعية وانتشارها من جهة، ولحُرصِه على أداء الواجبات الاجتماعية لأصدقائه ومعارفه في جميع أنحاء العراق.

منذ اليوم الأول لعزاء والده، أرتدى الشيخ خطّاب الزي العربي وبشكل مستمر طوال حياته، بعد أن كان يرتدي العقال العربي خلال بعض المناسبات الاجتماعية فقط، تقديراً منه لحجم المسؤولية الاجتماعية التي أُلقيت على عاتقه برحيل والده، ونظراً لتفرغه من الالتزامات العسكرية بسبب أحالته إلى دائرة المحاربين في وزارة الدفاع، فقد حرص على تكريس معظم وقته لمواصلة مسيرة والده الاجتماعية والعشائرية، واهتم بأداء الواجبات الاجتماعية المختلفة وبشكل مستمر، منها واجبات العزاء، وعيادة المرضى والمشاركة في الأفراح، والتدخل في حل النزاعات وإخماد الفتن في مدينة الشرقاط والمدن المحيطة بها، مستنداً على طاقته الفكرية المتقدة، وقدرته الكبيرة على التضحية بالوقت والمال في سبيل الآخرين، فحقق نجاحاً منقطع النظير في هذا المجال، حيث لم يغب عن مختلف الأحداث

التي واكبت منطقة الشرقاط والمناطق المحيطة بها منذ عام 1993م وحتى اليوم الأخير في حياته، وساهمت مواقفة المتكررة في الكرم والتسامح والإصلاح بحب الناس له، وازداد تقديره من مختلف فئات المجتمع، حتى أصبح مرجعاً رئيسياً تلجأُ إليه مكونات المجتمع خلال الأزمات والتحديات والفتن في مدينة الشرقاط ومحيطها.

طريفة جديرة بالذكر خلال عزاء والد الشيخ خطّاب

قُلنا أن عزاء والده الشيخ صالح الضامن كان كبيراً وضم وفوداً من مختلف مدن العراق، الأمر الذي جعل معظم شيوخ ووجهاء الحوري والشرقاط عامه يواظبون على استقبال وتوديع المعزين، ومن بين هؤلاء الشيوخ والوجهاء كان الحاج حسن الزليط، والحاج حسن الزليط كان من الشخصيات المعروفة على مستوى عشيرة والحوري ومدينة الشرقاط، إذ كانت له قدرة كبيرة على التأثير في الحضور، بعمره الذي تجاوز الثمانين آنذاك، وبمظهره المهيب وهو يحمل مسدسه فوق الزبون والعباءة العربية، وبصوته الجهوري، وبألفاظهِ المنتقاة والمنمقة، وبعاطفته المرهفة التي تجعله يبكي خلال المواقف المؤثرة، وفي إحدى ليالي العزاء، وبينما كان الحاج حسن الزليط يتناول وجبه العشاء على صينية (منسف) كبيرة، بادره الشيخ خطّاب قائلاً:

عمي أبو مرعي، ماذا تحب أن نضيف إلى منسفك (صينيتك)؟، لحم ومرق أحمر؟، أم لحم ومرق ابيض؟.

بعد أن سمع ما قاله الشيخ خطّاب، بدأ الحاج حسن الزليط بالبكاء مباشرةً، ثم قال مقولته الشهيرة على مستوى الشرقاط والمناطق المحيطةِ به، وبصوته المبحوح والمؤثر:

أبن اخوي، أبوك چان يجيبهن اثنينهن!. (أبن أخي؛ والدك كان يجلب الاثنين)، في اشارةٍ منهُ إلى رغبته بصنفي الطعام، فضحِك الشيخ خطّاب كثيراً على هذه المقولة التي دخلت سجل التأريخ الاجتماعي للمنطقة، وأمرنا بجلب قدرين من اللحم والمرق من كل صنف، كُنتُ حاضراً وشاهداً على هذه الطريفة الجميلة.

انتشرت هذه المقولة في الشرقاط والمناطق المحيطة بها، منذ اللحظة التي قالها فيها الحاج حسن الزليط وحتى اليوم، فأصبحت إجابة طريفة وجاهزة لمن يتم تخييره بين خيارين كلاهما

يعجبه، والغريب أن بعض الشباب أصبح اليوم يستخدمها دون أن يعرف لِمَن قيلت، ومن الذي قالها.

الحاج حسن الزليط (أبو مرعي) في نهاية تسعينيات القرن العشرين



أصدقاء الشيخ خطّاب وزملاءه في الشرقاط.

عاش الشيخ خطّاب معظم سنين حياته في مدينة الشرقاط، منذ عام 1968م وحتى منتصف عام 2014م عندما غادرها بسبب سيطرة عصابات الدولة الإسلامية عليها، فتشكلت شخصيته وعلاقاته الاجتماعية وصداقاته هناك، وأبرز اصدقائه الذين عاصرتهم هو الضابط المتقاعد والرياضي الراحل الأستاذ عبد الرزاق عطية العلوله، حيث جمعتهم روابط الجوار وتقارب السن والدراسة، وحب الرياضة، والأستاذ عبد الرزاق كان من رواد الرياضة في مدينة الشرقاط، حيث يعود الفضل لهُ في تأسيس نادي الاتحاد لكرة القدم، والذي تطور في ما بعد ليصبح نادي الشرقاط الرياضي، فاستمر في إدارة هذا النادي حتى أصبح أحد أندية الدرجة الأولى على مستوى العراق، وقد تولى منصب مدير قسم تربية قضاء الشرقاط لمدة أربع سنوات، أطلق خلالها أسم الشيخ خطّاب الضامن على إحدى القاعات الدراسية الرئيسية في ثانوية الشرقاط للبنين، حيث درسا معاً وتخرجا، توفي الاستاذ عبد الرزاق صيف عام 2019م، على إثر حُزنٍ شديد على رحيل صديقه الشيخ خطّاب.

ومن أصدقاء الشيخ خطّاب الآخرين هو الملازم صالح خلف الشويخ، وهو من سكنة قرية التل في الشرقاط، قُتل في الحرب العراقية – الإيرانية.

ونتيجة لولع الشيخ خطّاب بالشعر الشعبي والأدب، ربطته علاقات ود وتقدير مع معظم الشعراء الشعبيين في مدينة الشرقاط منذ بداية تسعينيات القرن العشرين، منهم الشاعر محمد الجلال، والشاعر نضال العياش، والشاعر احمد ثامر الصحن، والشاعر جمعة الشرار، والشاعر بيج الماجد، والشاعر حمد خليل الفرحان، والشاعر ابراهيم عگلة القيسي، والشاعر عواد التبان، والشاعر عبد الرحمن احمد الثامر، وغيرهم من الشعراء والادباء خلال الفترة 1993م–2015م.

موقف للشيخ خطاب مع أحد الشعراء

شهدت فترة الحصار الاقتصادي الذي فُرِض على العراق خلال المدة 1990م-2003م ظروف اقتصادية عصيبة، حيث تراجعت القدرة الشرائية للرواتب الحكومية بشكل كبير جداً، حتى بلغ متوسط الراتب الشهري للموظف الحكومي حوالي دولارين أو ثلاثة فقط، فتباطأت حركة التجارة، وأُصيبت الاسواق بحالة من الركود نتيجةً لشحة الأموال، الأمر الذي فاقم ظروف العوز والحرمان لدى معظم فئات المجتمع العراقي.

في عام 1994م، ضاقت الظروف الاقتصادية الصعبة ذرعاً بالشاعر ابراهيم عگلة القيسي، والذي كان ينوي الزواج من إحدى قريباته وهو في العشرينات من العمر، فقصد الشيخ خطّاب طلباً للمساعدة في دفع مهر الزواج من خلال القصيدة الشعبية الآتية:

حياك يا جبرتي ياخوي يابو عمر.

اشكيلك من الضيم بضلوع گلبي عمر (أستقر الضيم في اضلاع قلبي).

فيكم كرم من علي وفيكم عدالة عمر.

من حيث طايح أنا بحبال كثره وشرك (أمر بمصاعب معقدة كتعقد الحبال والشباك).

أنخاك يا عزوتي تكون بهمومي شرك (أطلب مِنك أن تُشاركني همومي).

أسال الله الذي مالو قريب وشرك (اسأل الله الذي ليس له اقارب ولا شركاء)

يخليك النه سند وادوم يابو عمر (أن يبقيك ويديمك سنداً لنا).

فأجابه الشيخ خطّاب على طلبه، وتبرع له بكامل مبلغ المهر، وذلك بالرغم من مرور الشيخ خطّاب بظروف اقتصادية صعبة أيضاً، نتيجة لظروف الحصار التي ذكرناها، لكنه قرر أن يؤثر على نفسه في سبيل مساعدة الشاب ابراهيم، حيث ربطتهم علاقات القربى وحسن الجوار.

موقف إصلاحي جدير بالذكر

واحدة من أهم إنجازات المصلحين والمبدعين هي تمردهم على بعض القيم والأعراف المتوارثة، وذلك في سبيل إصلاح الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لآسرهم ومجتمعاتهم، يحدث ذلك عندما تتنافى تلك القيم التي وجدت في ظروفٍ تاريخية سابقة، وتختلف بطبيعة الحال مع أسس العدالة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية اللاحقة، وعندما توجد شخصية إصلاحية شجاعة، صادقة وأمينةً وفذه، ومن الأمثلة التاريخية على ذلك، الإصلاحات التي نفذها الخليفة عمر بن الخطّاب على بعض التعاليم التي وجد أنها لا تتناسب مع مصلحة المجتمع خلال فترة حُكمِه، منها على سبيل المثال لا الحصر، أنّهُ أمر بقطع الأموال التي كانت تُمنح للمؤلفةِ قلوبهم، في سبيل استمالتهم للإسلام ومنع شرهم عن المسلمين، عندما تأكد أن الإسلام بلغ قدر من القوة والتماسك تنفي أي حاجةٍ لاستمالة المؤلفة قلوبهم، ولا أضن أننا نختلف اليوم على أن ذلك القرار عاد بالنفع على المجتمع الإسلامي منذ لحظة تطبيقه وحتى الوقت الراهن، بغض النظر عن خلفياتنا الدينية والمذهبية.

نعود إلى الموقف الإصلاحي الذي اتخذه الشيخ خطّاب، حيث ترك والده الشيخ صالح الضامن بعد وفاته عام 1993م بعض الأموال، منها عقارات تجارية، وأموال مختلفة، وهي بطبيعة الحال يجب أن تقسم على ورثته من زوجات وأبناء وبنات، وبالرغم من ظروف الحصار الاقتصادي القاسية التي مر بها العراق بعد غزو الكويت، قرر الشيخ خطّاب تأجيل تقسيم الميراث بين ورثة والده، تقديراً منه لذكرى والده، ومحاولةً منِهُ لمنح فرصة لأخوته الصغار الذين كانوا يعيشون مع والده، كي يرتبوا أوضاعهم المعيشية والاقتصادية، لذلك تأخر تقسيم الميراث لأكثر من سنتان.

وفي عام 1995م، تشاور الشيخ خطّاب مع إخوته، وتم الاتفاق على إحصاء تركة والده وتوزيعها بين الورثة، وفي سبيل ذلك أستدعى الشيخ خطّاب رجل دين ليشرف على توزيع الحصص بين ورثة والده، كما أستدعى أبن عمه الشيخ الحاج عبد الكريم حسين الضامن، ليكون شاهداً على تقييم الأموال وتوزيعها، وكذلك حرص على حضور جميع إخوته ليطلعوا على إجراءات التقسيم والتوزيع وكنت بضمنهم، وبعد أن أطلع رجل الدين على التفاصيل الاحصائية لأفراد عائلة الشيخ صالح الضامن، تكلم بالآتي:

لدي ملاحظة مهمة، بعض أحفاد الشيخ صالح ليس لهم نصيب من ميراثه، إذ توفي آبائهم قبل وفاة والدهم، وهم أبناء إخوتكم كل من عمران، طه، واحمد.

أستغرب الشيخ خطّاب من رأي رجل الدين وقال له:

رأيك فيه غُبن لإخوتي المتوفين وأبنائهم، كيف يمكن أن أحصل أنا شخصياً على حصة من ميراث والدي بينما يُحرم أبناء إخوتي من حصص آبائهم، أنا لا أريد أن أختلف مع الشرع ولا معك، لكن لدي حل، نتبرع نحن أبناء الشيخ صالح الضامن من حصصنا ليحصل أبناء إخوتنا المتوفين على حصص تساوي حصة كل واحد منا، طرح رأيه على إخوته وطلب منهم التصويت على القبول أو الرفض، فقبل الجميع، وتم منح الأحفاد حِصص تُعادل حِصص أعمامهم، وبفضل ذلك حصلت على مبلغ (2.1) مليون دينار في تلك الظروف الاقتصادية بالغة الصعوبة، وقد ساعدني ذلك المبلغ على إنجاز مراحل مهمة من بناء بيت لي ولوالدتي، نفس الأمر ينطبق على بنت عمي طه، وأبناء عمي احمد.

فوج جيش القُدس في قضاء بلد

جيش القُدس، هو قوة عسكرية أسسها الرئيس العراقي الأسبق صدام حسين بتاريخ السابع عشر من شباط / فبراير عام 2001م، جاء قرار تشكيل جيش القُدس بعد الانتفاضة الفلسطينية الثانية في أواخر أيلول / سبتمبر عام 2000م، الاهداف المعلنة لهذا الجيش كانت مساعدة الفلسطينيين في محاربة الاسرائيليين بهدف تحرير مدينة القُدس، من ثم تحرير فلسطين، وفي بداية اعلان الحكومة العراقية عن تشكيل جيش القُدس، قامت بتحويل خدمة جزء كبير من الضباط المحالين إلى دائرة المحاربين في وزارة الدفاع، ودائرة التقاعد العسكري إلى صفوف هذا الجيش، كما قامت بمنح رتب عسكرية وصلت إلى مستوى عقيد لمسؤولي حزب البعث العراقي المدنيين الذين انظموا إلى قواته، بالإضافة إلى فتح المجال أمام المتطوعين المدنيين للانضمام إلى صفوفه، ومن كلا الجنسين.

قدمت الحكومة العراقية آنذاك محفزات مادية ووظيفية لمن يرغب بالانضمام إلى جيش القُدس المذكور، بضمنها تحسين مرتبات الضباط المتقاعدين، وترفيعهم إلى رتب اعلى، كذلك قبول الطلاب الراسبين في مرحلة السادس إعدادي في الكلية العسكرية، تمهيداً لتخريجهم ضباطاً وزجهم في صفوفه.

على المستوى الداخلي، لعب الإعلام الحكومي دوراً مهماً ومؤثراً في الترويج للجيش وامكانياته الواعدة والقادرة على تحرير القُدس، فكانت النتيجة أن تحول الآلاف من الضباط والمراتب من حالة التجميد العسكري أو التقاعد إلى صفوف هذا الجيش، كذلك الحال بالنسبة للمدنيين الذين تطوعوا لجيش القُدس، وقد كنت شاهداً على حماس أحد المتشددين الدينيين للتطوع في سبيل تحرير القُدس، إذ كان يهتف بحياة القائد البطل صدام، واصفاً اياه

بالقائد العربي الإسلامي الوحيد الذي فتح الباب أمام شعبه لمقاتلة اليهود وتحرير القُدس!، ولا أُنكر إنني كنت من بين الذين تأثروا بتلك الدعاية خلال الاعوام 2001م-2003م.

لا شك لدي وأنا أكتب هذه السطور، أن تأسيس جيش القُدس العراقي لم يهدف لتحرير القُدس مطلقاً، ولا حتى للدخول في صراع مع اسرائيل، بل إن عملية تأسيسه جاءت بناءً على مجموعة أهداف خطط صدام حسين لتحقيقها، أهمها الحصول على قوة مسلحة رسمية إضافية تساعده في تعزيز قبضته العسكرية والأمنية في الداخل، وتسويق شخصيته داخلياً وخارجياً، وتصويرها على أنها الشخصية الوطنية والقومية البطلة والمحررة، لربطها بالشخصية التاريخية للقائد صلاح الدين الايوبي، الذين حرر القُدس من السيطرة الصليبية بتاريخ الرابع من تموز / يوليو عام 1187م، بعد انتصار قواته في معركة حطين الشهيرة.

لم يحسب صدام العواقب السياسية الدولية الخطيرة التي أنتجتها عملية تشكيل جيش القُدس على العراق حكومةً وشعباً، فقد انزعجت اسرائيل وقبلها حليفتها الكبرى الولايات المتحدة الأمريكية من التأثيرات الإعلامية لجيش القُدس على الشعوب العربية، واعتبرتها تهديداً واضحاً لأمن اسرائيل ومعاداةً صارخة للسامية، فكانت النتائج أن اتخذت الولايات المتحدة قرار غزو العراق وتدمير نظام الحكم السائد فيه، وجاءت أحداث الحادي عشر من أيلول / سبتمبر 2001م لتشكل تبريراً مناسباً لقرار غزو العراق الذي تم اتخاذه مسبقاً، فدخلت قوات الاحتلال الأمريكي إلى العراق عام 2003م بعد أن تبخر جيش القُدس ومعظم القوات المسلحة العراقية خلال فترة وجيزة، كما هو معلوم للجميع.

نعود إلى التحاق الشيخ خطّاب الضامن بجيش القُدس، فقد تم نقله إلى صفوف ذلك الجيش عام 2001م، بعد أن تم ترفيعه إلى رتبة مقدم، شغل بعدها منصب معاون آمر فوج، وتحديداً في إحدى أفواج جيش القُدس التي كانت تُعسكر في قضاء بلد شمال بغداد.

تخرجتُ في كلية الادارة والاقتصاد جامعة الموصل منتصف عام 2002م، وكنت من التواقين لإكمال دراستي في الماجستير، ونتيجةً لانخفاض عدد مقاعد القبول في جامعة الموصل، وتخصيص نصفها للموظفين، كانت فرصة قبولي هناك شُبه مستحيلة، فعدد المقاعد الكلي لدراسة الماجستير ضمن تخصصي كان مقعدين فقط، وبعد استبعاد مقعد الموظفين، يكون عدد المقاعد المتبقة للمنافسة بين المتقدمين غير الموظفين واحد فقط، إذ أن الخريجين الأوائل من دفعتي والدفعات السابقة كانوا يتنافسون على هذا المقعد وبشكل سنوي، نتيجةً لارتفاع معدلاتهم التنافسية.

فكّرت بالتقديم إلى جامعات الوسط والجنوب، حيث لم تكن دراسة الماجستير قد اُفتتحت في جامعة تكريت، وبطبيعة الحال ذهبت إلى الشيخ خطّاب طلباً للاستشارة والعون، فنصحني بالتقديم إلى جامعة الكوفة في محافظة النجف، إذ أن المنافسة في جامعات بغداد والبصرة قد تكون مماثلة لمستوى التنافس في جامعة الموصل، كما أبلغني بتجهيز نفسي للسفر معه إلى معسكر جيش القُدس في بلد، ومن هناك إلى النجف حيث جامعة الكوفة.

في صباح اليوم التالي، انطلقنا من الشرقاط إلى بلد بواسطة سيارة عسكرية استلمها الشيخ خطّاب من وحدته، كانت سيارة حديثة نوع نسيان بيك آب دبل قمارة، موديل 2002م، زيتونية اللون، فوصلنا إلى المعسكر المذكور في قضاء بلد، والمعسكر كان عبارة مجموعة من بنايات متناثرة، تُحيطها مجموعة من الأشجار، تعود تلك البنايات لدائرة التجنيد العسكري التابعة لوزارة الدفاع، بدت البنايات بشكل جيد بعد أعمال الترميم التي أُجريت عليها.

هناك، لاحظتُ أتساع علاقات الشيخ خطّاب مع الأهالي المحيطين بالمعسكر المذكور، فهم سرعان ما عرفوا بعودته من إجازته، حتى بدأوا بالتوافد لزيارته، وأقاموا لنا دعوة

للعشاء، وبعد أن تناولنا وجبه العشاء في منزل ريفي يقع بالقرب من مزارع وجداول ري، أصر اصحاب الدار على أن أمضي ليلتي في دارهم، فوافق الشيخ خطّاب على بقائي لديهم، وأبلغني أنّهُ سيأتي في الصباح الباكر ليأخذني ونكمل سفرنا نحو محافظة النجف الأشرف حيث جامعة الكوفة.

وفي وقتٍ متأخر من تلك الليلة، صحوت على صوت أهل الدار وهم يتحدثون حول موضوع محاولة اغتيال الرئيس الأسبق صدام في مدينة الدجيل عام 1982م، وكيف أن قوات الأمن اعتقلت عوائل بأكملها، بضمنها أطفال ونساء في أعقاب تلك المحاولة، ففهمت أن عدد المعتقلين الكلي تجاوز الـ 160 فرداً، وأن لا أحد يعرف مصيرهم حتى الآن، أي بعد مضي حوالي عشرين سنة حينذاك!.

في الصباح، توجهنا نحو النجف الأشرف، وبعد أن تجاوزنا بغداد على الطريق الجنوبي السريع، طلبت من الشيخ خطّاب ان يُريني موقع سيطرة مدخل كربلاء الشمالي التي عمل بها خلال أحداث عام 1991م، وعندما وصلنا إلى الموقع المذكور، أوقف الشيخ خطّاب سيارته، وقال لي:

هنا كان مقر السيطرة، هنا تجمع الأهالي، وهنا توقف موكب حسين كامل.

كان الموقع عبارة غابة كثيفة من النخيل يفصلها طريق معبد بالأسفلت، ولا أُبالغ إذا قلت أن تلك الغابة كانت تحتوي على عشرات الآلاف من أشجار النخيل الخضراء، مزروعة بشكل كثيف ومحملة بعراجين التمر.

وصلنا ظهر ذلك اليوم إلى كلية الادارة والاقتصاد في جامعة الكوفة، سِرتُ خلف الشيخ خطّاب بقيافته العسكرية وبمشيته المهيبة نحو مكتب العميد، أستقبلنا سكرتير مكتبه، رحب بنا، فأبلغه الشيخ خطّاب أننا جئنا لمقابلة العميد، أجاب السكرتير بلهجة أهل النجف:

اعتذر والله العميد ما هوه، لكن تفضلوا معي إلى مكتب معاون العميد.

ولسوء الحظ، أو ربما لِحُسنه، أبلغنا معاون العميد أن كليتهم لم تفتتح بعد دراسة الماجستير في تخصصي.

وفي طريق عودتنا من هناك نحو بغداد ثم بلد، سألت الشيخ خطّاب عن معنى كلمة (ما هوه)؟، والحقيقة إنني لم أسمعها من قبل نهائياً.

فأبتسم الشيخ خطّاب، وقال:

(ما هوه) تعني غير موجود!.

الشيخ خطّاب خلال عمله في جيش القُدس عام 2001م.



الاحتلال الأمريكي للعراق

في التاسع عشر من آذار/ مارس 2003م أعلنت الولايات المتحدة الأمريكية انطلاق عملياتها العسكرية بالتعاون مع حلفائها بهدف احتلال العراق، لم تواجه قوات الاحتلال الأمريكي خلال اجتياحها للبلاد مقاومة تليق باسم العراق وتأريخه، سواءً من الجيش أو بقية صنوف القوات المسلحة، ولا حتى من الشعب، باستثناء مقاومة بعض القطعات العسكرية في منطقة أم قصر بمحافظة البصرة، والتي ساهمت بإبطاء تقدم القوات الأمريكية نحو محافظة البصرة لبضع أيام، وذلك نتيجة للقطيعة التي حدثت بين الشعب والسلطة الحاكمة، بسبب تسلط النظام الحاكم وديكتاتوريته الشديدة، ودخولهِ في العديد من الحروب والنزاعات التي دفع الشعب والقوات المسلحة ثمنها، أضف إلى ذلك تطرف النظام في استخدام القوة لقمع معارضيه، ناهيك عن ظروف الحصار الاقتصادي التي كابدها الشعب العراقي منذ عام 1990م وحتى بداية الاحتلال، والتي أفقرت الشعب العراقي، وساهمت في أنتشار الفساد والرشوة في صفوف الجيش ومعظم مؤسسات الدولة.

نجحت القوات الأمريكية في دخول بغداد بتاريخ التاسع من نيسان / أبريل عام 2003م، بعد أن اجتازت الحدود العراقية من الجنوب وتحديداً من الكويت، بدءً من محافظة البصرة، مما أدى إلى انهيار الدولة، وهروب قيادات السلطة السياسية، جنباً إلى جنب مع قيادات القوات المسلحة والأجهزة الأمنية.

جنود جيش الاحتلال الأمريكي في بغداد عام 2003م



تصدي الشيخ خطّاب

لعمليات النهب والتخريب في مدينة الشرقاط.

أولى نتائج انهيار الدولة في أعقاب الاحتلال الأمريكي للعراق كانت أنتشار عمليات النهب والتخريب واسعة النطاق، والتي تعرضت لها وزارات الدولة ومؤسساتها المختلفة، بسبب انهيار كافة سلطات الدولة، حيث هرب المسؤولين والموظفين من كافة الوزارات والمؤسسات العامة، وتخلت القوات الأمريكية المحتلة للعراق عن مسؤوليتها في حماية الوزارات والمؤسسات العامة، باعتبارها قوات احتلال مسؤولة عن حماية الأرواح والممتلكات العامة والخاصة في البلد الذي قامت باحتلاله، وذلك وفقاً للقانون الدولي، وعوضاً عن ذلك، قامت القوات الأمريكية المحتلة بحماية مقر وزارة النفط العراقية، بينما سمحت للصوص والمخربين الذين خرج جزء منهم من سجون الدولة عقب الاحتلال، بنهب وحرق مقرات الوزارات الأخرى وكافة المؤسسات العامة، بما فيها المدارس والمستشفيات والمراكز الصحية.

في صباح يوم العاشر من نيسان / أبريل عام 2003م، علمتُ بسقوط نظام صدام حسين وانهيار الدولة العراقية من خلال إحدى القنوات التلفزيونية التابعة للحزب الديمقراطي الكردستاني، والتي كانت تبث برامجها من محافظة أربيل، خرجت من منزلي الواقع في قرية التل بمدينة الشرقاط في تمام الساعة العاشرة صباحاً، وعند مروري بجانب مدرسة اليعربية الابتدائية التي تخرجت فيها، فوجئت بوجود بعض أبناء المنطقة وهم ينهبون أثاث المدرسة، كانوا يسرقون رحلات الطلاب الخشبية، شاهدتهم وهم يدحرجونها بشكل

أدى إلى تحطمها، وجعلها غير صالحة لأي نوع من أنواع الاستخدام، باستثناء استخدامها كحطب، استوقفت أحدهم وخاطبتهُ قائلاً:

لماذا تقوم بهذا؟. أنت تسرق رحلات مدرستنا، لقد كسرت الرحلات ولن تصلح للاستعمال ابداً، لماذا هذا التخريب؟.

أجابني قائلاً: سقط صدام حسين. أستمر في دحرجة الرحلات مع إخوته ومضى على عجالة غير مُكترثٍ بكلامي.

والعجيب أن هذا اللص المُخرب تحول إلى مسؤول في إحدى مؤسسات الدولة العراقية!، وأظنه لا يزال يمارس عمليات النهب والتخريب من خلال عمله في ذلك المنصب الرفيع!.

واصلت سيري نحو الشارع الرئيسي الذي يقطع المدينة من شمالها حتى الجنوب، وهو طريق مرصوف ذو أتجاهين، وبعد وصولي إلى الشارع من جهته الغربية، التفتُ يميناً، فشاهدت تجمهراً أمام إعدادية الشرقاط التي تخرجت فيها أيضاً، توجهت نحو بناية الإعدادية المطلة على الشارع من جهته الغربية، أو اليسرى باتجاه الشمال بتعبيرٍ آخر، فشاهدت عمليات نهب وتخريب مماثله، كانت أعمال النُهاب والمخربين مخزية وتدعو إلى الاشمئزاز، هذا ينثر وثائق الطلبة على الأرض، بصورهم ودرجات تخرجهم، والآخر يحطم الزجاج ويقتلع الأبواب....

بعد ما شاهدته في المدارس المذكورة، قررت التوجه نحو مقر بناية شعبة حزب البعث في مركز المدينة، وهو رمز نظام الحكم السياسي والأمني في الشرقاط آنذاك، لأرى ما الذي حل بهِ مقارنةً بما حدث للمدارس، كنت أسير وآثار الحزن والنقمة على ما يحدث في المدينة تكاد تفجر رأسي، خلال مسيري نحو مركز مدينة الشرقاط، شاهدت مجاميع أخرى من الناهبين،

كانوا بعض أبناء الأهالي الذين أعرف بعضهم حق المعرفة، استغلوا غياب سلطات الدولة، وسلطات الأخلاق والشرف التي تمنع السرقة والاعتداء، هذا يحمل كرسي بلاستيكي مستعمل على ظهره، وذاك يحمل جهاز هاتف أرضي رخيص تتدلى سماعته على الأرض، والغريب أن من سرق جهاز الهاتف كان يسكن في قرية لم تُخدم بخدمة خطوط الهاتف الأرضي منذ ذلك التأريخ وحتى لحظة كتابة هذه الكلمات!.

أحزنتني مشاهد النهب والتخريب والتدمير الذي تعرضت له الممتلكات العامة الحيوية والأساسية، ولم تتح لي الفرصة، أو ربما لم أفكر في زيارة مؤسسات عامة أخرى، لاطلع على ما حدث في دائرة الجنسية العامة، والمستشفى، والمراكز الصحية ومقرات الجيش والشرطة، لكنني علمت إنها نُهِبت بالكامل ثم أُحرِق بعضها، بالنتيجة، لم أتخيل أن هنالك من لديه القدرة على نهب أثاث مدرسة درس فيها هو وإخوته، أو تخريب مركزاً صحي خدم قريته، أو تخريب مقر للقوات الأمنية التي كانت تسهر على حماية أمن مجتمعه، في مناطقنا التي لم تشهد عمليات قمع من السلطات الحكومية قياساً بجنوب العراق أو شماله، وعلى أيةِ حال، لا أنكر كوني ممن سئموا ديكتاتورية السلطة والمآسي التي تسببت بها، ولا أُنكِر أني كنت من التواقين للخلاص من نظام الحكم الذي تسبب بحروبٍ طويلة حصدت أرواح مئات الآلاف من العراقيين، وضيعت فرص تنمية هذه البلاد ورفاهها، إلّا إنني لم أتوقع أن زوال هذا النظام سوف يكشف لي مستوى الجهل والأنانية والانحطاط في بعض النفوس البشرية، والذي كبتتهُ قوة النظام والسلطة إلى هذا الحد المقرف، وفي النتيجة، اكتشفت متأخراً أن الإنسان ليس سوى حيوان ناطق، متطورٍ وشرس، ناهبٍ وسارقٍ ومعتدِ، تضبطه الأديان والأخلاق وتمنعه عن الاعتداء بما لا يتجاوز 10٪، و90٪ من وسائل ضبط الإنسان هي قوة القانون والقضاء التي ترتكز على قدرات قوات الجيش والشرطة والأمن.

واصلت مسيري من موقع ثانوية الشرقاط نحو مقر شعبة حزب البعث، بمسافة بلغت حوالي كيلو متر ونصف تقريباً، اقتربت من ذلك المقر الذي كان يضج بالقيادات الحزبية والأمنية والمئات من المسلحين، قبل نحو 48 ساعة من ذلك الصباح.

أذكر إنني دخلت ذلك المقر عام 1998م، عندما كنت طالباً في الصف السادس الإعدادي، كنت حينها رئيساً لاتحاد طلبة إعدادية الشرقاط، حيث طلبت شعبة حزب البعث الاجتماع مع جميع رؤساء اتحادات الطلاب في قضاء الشرقاط، عند وصولي إلى الشارع المؤدي إلى بناية مقر شعبة حزب البعث، وعلى بعد عشرات الأمتار منها، شاهدت عدد من الحراس عند حاجز تفتيش، سألني احدهم:

من أنت؟.

قلت: أنا الطالب خطّاب عمران صالح، رئيس اتحاد طلبة ثانوية الشرقاط.

قال: تفضل.

تقدمت نحو تلك البناية الضخمة والمكونة من ثلاثة طوابق، شاهدت صورة كبيرة لرئيس العراق الأسبق صدام حسين، رُسِمت على جدارٍ كونكريتي كبير توسط الشارع، مقابل البناية، كما شاهدت العديد من شعارات حزب البعث العراقي، كُتِبت على الجدران المحيطة بالشارع، منها أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة، العراق وطن الجميع وحماية أمنه وسيادته مسؤولية الجميع ...

صعدت إلى الطابق الأول، فتم إدخالي إلى قاعة اجتماعات فخمة وضخمة، نُصِبت في وسطها طاولة اجتماعات مستطيلة بطول عشرة أمتار تقريباً، وبعد أن أكتمل حضور رؤساء اتحادات طلاب إعداديات الشرقاط من ذكور واناث، كنا حوالي 12 رئيساً من رؤساء اتحادات الطلبة، فدخل إلى القاعة رجل خمسيني، متوسط القامة، رشيق، يرتدي بدلة عسكرية

زيتونية بدون رتبة، محاط بمجموعة من المرافقين العسكريين، كنت أعلم أنّهُ المسؤول الحزبي لحزب البعث في الشرقاط، وهو كامل عطية حمود، آمين سر شعبة الشرقاط لحزب البعث، وعضو مكتب صلاح الدين للحزب، لكنني لم ألتق بهِ مسبقاً.

أتخذ الرجل موقعه على رأس طاولة الاجتماع، عرّفنا بنفسه، رحب بنا وطلب منا التعريف بأنفسنا، وعندما جاءني الدور للتعريف بنفسي قلت:

أنا الطالب خطّاب عمران صالح، رئيس اتحاد طلبة اعدادية الشرقاط.

نهض الرجل من كرسيه على الفور وقال:

أهلا وسهلاً أبني، لقد كان والدك أحد زملائي في دراسة الإعدادية، وهو من الأبطال الذين دافعوا عن العراق، أعرف انه فُقد في الحرب عام 1981م، أدعو الله أن يكون على قيد الحياة ويعود إلى أرض الوطن سالماً، تعال يا ولدي لأسلم عليك.

تقدمت من مقعدي نحو الرجل، احتضنني وقبلني، ثم عدت إلى مكاني.

استأنف الرجل بعد ذلك فقرات الاجتماع، تضمن الاجتماع توصيات عامة عن واجبات اتحادات الطلاب في تمثيل الطلبة أمام ادارة المدرسة، وأمام المؤسسة التربوية في المدينة، ولم يخلو الاجتماع من التأكيد على دعوات الالتزام بمبادئ الحزب والثورة ووصايا الرئيس الأسبق صدام، وفي نهاية الاجتماع سألنا إن كنا نواجه أية مشاكل أو تحديات في مدارسنا، وبالتأكيد أجاب الجميع بأن لا وجود لأي مشكلات ولا تحديات، نتيجةً لصغر أعمارنا وقصر تجربتنا في مجالات التعامل مع المسؤولين رفيعي المستوى.

ترك التقدير الذي خصني بهِ مسؤول الحزب أثراً إيجابياً كبيراً في نفسي، وشعرت بأن هنالك من يُثمن تضحيات من قُتِلوا أو فُقِدوا في الحرب مع إيران، ويقدر أبنائهم وعوائلهم، وقد شاءت الأقدار أن ألتقي بنفس هذا المسؤول الحزبي بعد حوالي سبع سنوات، وتحديداً

عام 2005م، لكن ظروف اللقاء الأخير اختلفت عن ظروف اللقاء الأول، حيث عانى ذلك الرجل من مطاردة القوات الأمريكية لحوالي ثلاث سنوات، وقاسى ما قاساه من ظروف التخفي، بالإضافة إلى المرض، وأظن أني رددتُ لهُ احترامه وتقديره، وسوف أشرح تفاصيل ذلك اللقاء في هذا الكتاب ضمن التسلسل الزمني للأحداث.

نعود إلى أحداث يوم 10 نيسان / أبريل عام 2003م، حيث وصلت إلى مقر شعبة حزب البعث في الشرقاط، دخلت بوابة المقر برفقة أحد الاصدقاء ، ففوجئت بوجود الشيخ خطّاب وهو يرتدي دشداشه، يلف رأسه بيشماغ أحمر، ويرتدي نطاق عسكري مع جعبة مسدس، رأيته وهو في حالة عصبية شديدة، يرافقه الشيخ عبد الله الروضان، كان الشيخ خطّاب يصرخ بوجه مجاميع النهاب والسراق، يحمل بيده مسدس نوع ويبلي (ريفولفر)، وفي هذه الأثناء حصل الموقف الآتي بين الشيخ خطّاب وأحد السراق؛ كان السارق في بداية الأربعين من العمر، أسمر الوجه، قصير القامة، رث الهيئة، لم يحلق شعر رأسه لشهرين على أقل تقدير، يحمل صندوق خشبي كبير، كان يحتوي على أسلحة وعتاد، وقد دار بينه وبين الشيخ خطّاب الحديث الآتي في الطابق الأرضي من البناية:

الشيخ خطّاب:

عليك أن تترك هذا الصندوق، هذه أموال عامة، يجب أن نحافظ عليها، سوف نحتاج السلاح قريباً، يجب أن نعيد تشكيل قوات الشرطة لحماية الشرقاط.

السارق: لقد دمر صدام حياتي، فصلني من وظيفتي، هذا حقي ولن أتركه.

صوب الشيخ خطّاب مسدسة نحو السارق وقال:

والله إن لم ترمِه لأطلق الرصاصة على رأسك ايها الحرامي!.

فما كان من السارق إلّا أن ترك الصندوق على الأرض دون كلام وخرج من البناية.

كان هذا موقف واحد من عشرات المواقف التي نجح الشيخ خطّاب من خلالها في إيقاف جزء من عمليات النهب والتخريب التي طالت المدينة، كانت لهُ مواقف أخرى في مركز شرطة الشرقاط ومبنى القائم مقامية، ومصرف الرشيد فرع الشرقاط، ومستشفى الشرقاط، بالتعاون مع الشيخ عبد الله الروضان، والسيد حسين يعقوب عگلة الحمدان ومجموعه من إخوته وأقاربه، شاهدت جزء منها، ورويت لي بعضها فيما بعد.

ألمهم، نجح الشيخ خطّاب في حماية مبنى مقر شعبة حزب البعث التي كانت على مستوى عالٍ من التجهيز، كانت بناية كبيرة من ثلاث طوابق، حولها الشيخ خطّاب لاحقاً إلى مقر لقوة الأمن والمتابعة في مدينة الشرقاط برئاسته، كفرع من فروع مديرية شرطة الشرقاط، لكن للأسف، تمكن تنظيم القاعدة من تفجيرها بعد الانهيار الأمني الذي تعرضت له مدينة الشرقاط عام 2007م.

حماية السلم الأهلي

من تداعيات انهيار الدولة الأخرى في العراق هي عمليات الانتقام من عناصر حزب البعث وضباط الأجهزة الأمنية، وبالنسبة لمدينة الشرقاط، كانت منطقة قصبة الشرقاط التي تسكنها أغلبية من عشيرة التكارته رمزاً للنظام السابق، إذ انخرط معظم أبناء هذه العشيرة في تشكيلات الجيش والأمن الخاص والمخابرات والحرس الخاص، نتيجة لصلاتهم مع قيادات النظام في تكريت، الأمر الذي دفع بعض المتضررين من النظام السابق إلى تهديد عوائلهم ومضايقتها، مما أدى إلى هلع سكان قصبة الشرقاط خلال تلك الظروف الحرجة، وهنا كان للشيخ خطّاب موقف حازم في مواجهة هذا التهديد، حيث قام بتشكيل قوة مسلحة خلال الأيام الأولى لانِهيار الدولة، ونفذ زيارات منتظمة لعوائل المنطقة وأهاليها، وذلك لحمايتهم وتطمينهم بأن لا أحد يستطيع التجاوز أو الاعتداء عليهم، فأستمر في تسيير دوريات حماية لمنطقة القصبة، حتى هدأت الأوضاع وتم إعادة تشكيل مديرية شرطة الشرقاط، لتتولى واجبات حماية السكان وفرض الأمن في منطقة القصبة وجميع مناطق المدينة.

حماية مصرف الرشيد فرع الشرقاط.

حاول بعض اللصوص الذين خرجوا من السجون نتيجة لانِهيار الدولة اقتحام مصرف الرشيد فرع الشرقاط، في محاولة لكسر خزائنه والاستيلاء على الأموال التي كانت مخزونة بداخله، ونتيجة لمناعة الخزائن والحاجة لمعدات فنية لفتحها فشل اللصوص في تحقيق مبتغاهم خلال اليوم الأول لانِهيار الدولة، فقام الشيخ خطّاب بتعيين حراس يعملون بالمناوبة خلال 24 ساعة لحماية المصرف، جهزهم بالسلاح ووفر لهم الطعام في سبيل حماية المصرف، شاهدتهم بأم عيني وهم يتناوبون على الحراسة وأذكر منهم:

1- محمود صالح ضامن.

2- هادي صالح ضامن.

3- اسماعيل خلف عبد الكريم الطوير.

4- محمد حسين (محمد النايلة)، وآخرون.

معظمهم كانوا من أخوة الشيخ خطّاب وأقاربه وجيرانه.

نجحت القوة المكلفة بحماية المصرف في تأمينه، وعجز اللصوص عن الاقتراب من محيطه، نتيجة لتسليح قوة الحماية، ومتابعتها بشكل مباشر ويومي من قبل الشيخ خطّاب، وبعد مرور عدة أشهر من الحراسة المشددة، كنت حاضراً عندما جاءت لجنة من إدارة مصرف الرشيد في محافظة نينوى، تصحبهم قوة حماية من قوات التحالف، كانت قوة الحماية من دولة فيجي على ما أظن، إذ كان المسلحون من ذوي البشرة السوداء، فتسلمت اللجنة موقع المصرف، وقامت بفتح الخزائن من خلال المفاتيح الأصلية التي كانت مخبأة لدى مدير المصرف الأستاذ يونس الحادي آنذاك، وتم نقل الأموال إلى مقر المصرف الرئيسي في الموصل، وبهذا تمت حماية الأموال العامة في أحد فروع المصارف العامة، خلال تلك الظروف التي سادتها مظاهر الفوضى والنهب وغياب الأمن، على خلاف ما حدث لمعظم المصارف العامة في بقية المحافظات العراقية، حيث تعرضت للنهب، باستثناء محافظات إقليم كردستان العراق.

تشكيل قوة الأمن والمتابعة

بعد أن نجح الشيخ المقدم خطّاب وبمساعدة الشيخ عبدالله الروضان والسيد حسين يعقوب العگله وعدد من المتطوعين بإيقاف جزء من عمليات نهب المؤسسات العامة في مركز مدينة الشرقاط، وبعد طرد اللصوص بقوة السلاح، وفرض حراسات مشددة على بناية مصرف الرشيد فرع الشرقاط، وعدد من المباني الحكومية الحيوية الأخرى في المدينة، بضمنها بناية قائم مقامية الشرقاط (الإدارة المحلية للمدينة)، مديرية الشرطة، وبناية مقر شعبة حزب البعث، ومستشفى الشرقاط العام، شكل الشيخ خطّاب قوة أمنية مسلحه بقيادته، وبمشاركة عدد من المتطوعين، بضمنهم ضباط وشباب، أذكر منهم الملازم ماجد حجاب، والملازم احمد عسل، والملازم احمد ناصر، وعدد من الضباط والمقاتلين الآخرين، أطلق الشيخ خطّاب على هذه القوة أسم فصيل الأمن والمتابعة، وأتخذ من بناية شعبة حزب البعث التي ذكرناها مقراً للقوة.

الشيخ خطّاب مع مجموعة من مقاتلي قوة الأمن والمتابعة نهاية عام 2003م.



كانت أولى واجبات قوة الأمن والمتابعة تسيير الدوريات المسلحة الراجلة في مركز مدينة الشرقاط، لمنع حالات التجاوز والاعتداء، والتي كان ينفذها بعض المجرمون ممن خرجوا من السجون نتيجةً لانهيار الدولة، منها حالات سرقات، وتهديدات تعرضت لها عناصر حزب البعث، ومنتسبي الأجهزة الأمنية السابقة في مركز المدينة، وقد نجحت قوة الأمن والمتابعة نجاحاً منقطع النظير في تأدية واجباتها، نتيجةً للمهارات القيادية التي تمتع بها الشيخ خطّاب، والتي ساهمت في انضباط عناصر القوة، وأيمانها بالمهام الوطنية والاخلاقية الموكلة إليها، بالإضافة إلى حكمة قائد القوة وقدرته على معالجة التحديات التي واجهت القوة خلال تنفيذ واجباتها، في خضم تلك المرحلة الحرِجة.

2003م حادثة أمنية جديرة بالذكر

بعد مرور حوالي شهر من تشكيل قوة الأمن والمتابعة، وبينما كنت جالساً مع عناصر القوة في مبنى قوة الأمن والمتابعة وسط مركز مدينة الشرقاط، دخل المبنى عدد من عناصر القوة على عجالة، وأبلغوا قائد القوة بوجود شخص يقوم بلصق منشورات على الجدران في وسط سوق الشرقاط، تحرض تلك المنشورات الأهالي على تنفيذ عمليات مسلحة، بضمنها استهداف قوى الأمن في المدينة، وتحديداً مقر قوة الأمن والمتابعة.

كان الوقت ليلاً، فتحرك قائد القوة مع مجموعة من أفراد قوته إلى موقع لصق المنشورات على الفور، وبعد حوالي ساعتين من ورود المعلومات، تمكن من إلقاء القبض على الشخص الذي قام بلصق المنشورات، كان شاباً وسيماً في بداية الثلاثين من العمر، ينتمي لأحد عشائر الشرقاط ويسكن في كركوك، لكنه عاد إلى الشرقاط بعد الاحتلال الأمريكي، وبعد تحقيق قائد القوة معه، تبين أنّهُ تم تكليفه بتوزيع تلك المنشورات من قبل تنظيمات حزب البعث خارج الشرقاط، وبعد انتهاء التحقيق، تعامل قائد القوة مع الحادث بحكمة وتروي، حيث أرسل في طلب والده وأحد أعمامه، فناقش معهم طبيعة الواجبات التي تقوم بها قوة الأمن والمتابعة في سبيل حماية المدينة، ومنع الخروقات التي تهدد أمن سكانها، وشرح لهم خطورة ما قام بهِ ولدهم على أمن السكان وحياتهم.

تفهم ذوي الشاب خطورة ما تورط به ولدهم، فوقعوا على ورقة تدين العمل الذي نفذه، وأقروا بخطورته على أمن المدينة، وتعهدوا بعدم تكراره مستقبلاً، فقام قائد القوة الشيخ خطّاب بإطلاق سراح ولدهم على الفور، وكانت أجواء التقدير والاحترام بين ذوي لشاب وقائد القوة هي سيدة الموقف، والعجيب أن هذا الشاب أستقام بعد ذلك الحادث بشكل ملفت للنظر، حيث لم يتورط بأي أعمال تتعارض مع أمن واستقرار المدينة، وقد تفرغ للعمل التجاري في سوق الشرقاط منذ تلك الحادثة عام 2003م، وحتى لحظة كتابة هذه السطور.

موقف قوات الاحتلال الأمريكي من قوة الأمن والمتابعة.

تعاملت قوات الاحتلال الأمريكي مع قوة الأمن والمتابعة على أنها قوة تساعد في حفظ الأمن والسلام في مدينة الشرقاط، حيث قامت بزيارة قائد القوة في مقر حزب البعث وبحضوري، معترفةً بوجود القوة وشرعيتها، وضرورة التنسيق معها لتجنب حدوث تصادم بين القوات الأمريكية وعناصر القوة خلال تنفيذ دورياتها المسلحة في مدينة الشرقاط، وفي سبيل ذلك، أصدرت القوات الأمريكية بطاقات تعريفية لعناصر القوة، تضمنت أسماء العناصر وأرقام أسلحتهم، ولم تشهد الفترة التي عملت خلالها قوة الأمن والمتابعة قبل إعادة تشكيل مديرية شرطة الشرقاط أي تصادم بين القوات الأمريكية وعناصر القوة.

إعادة تشكيل مديرية شرطة الشرقاط

عملت القوات الأمريكية على إعادة تشكيل مديرية شرطة الشرقاط، كجزء من إعادة تشكيل شرطة محافظة صلاح الدين، وذلك في نهاية عام 2003م، حيث تسنم اللواء الركن مزهر الغنام منصب قائد شرطة صلاح الدين، بينما تسنم العقيد علي الدودح منصب مدير شرطة لشرقاط، واحتفظ الشيخ المقدم خطّاب بمنصب قائد قوة الأمن والمتابعة ضمن مديرية شرطة الشرقاط، فحصل عناصر القوة على رواتبهم وتجهيزاتهم من شرطة صلاح الدين، شأنهم شأن منتسبي شرطة صلاح الدين.

نهاية 2003م بداية الأعمال الإرهابية

ساعدت ظروف الاحتلال الأمريكي للعراق على نمو الجماعات المسلحة والتنظيمات الإرهابية من خلفيات مختلفة، بعد أن انهارت الأجهزة الأمنية، وفُتِحت حدود العراق أمام حركة دخول الخلايا الجهادية من الخارج، مع وفرة السلاح من مخلفات الجيش العراقي السابق، كانت الخلايا والتنظيمات التكفيرية هي الأشد خطورة من بين التنظيمات التي دخلت العراق، إذ وجدت فيه بيئة خصبة لممارسة انشطتها المسلحة، وتحديداً خلايا تنظيم القاعدة وأخواته، والتي بدأت تنشط في معظم أجزاء العراق، معتمدة على دعاية وشعارات الجهاد ضد المحتل الأمريكي، وتحرير العراق، إلّا أن هدفها الحقيقي كان منع إقامة اي مظهر من مظاهر الدولة، في سبيل إقامة حكم اسلامي متطرف، وهو ما تحقق بعد إحدى عشر عام، عانى الشعب العراقي خلالها من ويلات القتل والتفجير والإرهاب، وتحديداً عام 2014م.

قِوى الإرهاب تتعاظم على حدود الشرقاط

استأنفت خلايا تنظيم القاعدة أعمالها الإرهابية بشكل مكثف منذ بداية عام 2004م، حيث انتشرت عمليات الاغتيال في محافظات بغداد والبصرة والموصل، والأنبار وصلاح الدين وكركوك، وأجزاء من مدينة الشرقاط، وتحديداً في قرية العيثة والساحل الأيسر من الشرقاط، في مؤشرات واضحة على تنامي قوة تنظيم القاعدة من حيث العدد والعدة والتنظيم، بينما بقي مركز الشرقاط يتمتع بأمان نسبي، من حيث قلة عمليات الاغتيال والتفجير، قياساً بالأجزاء الأخرى من مدينة الشرقاط، وذلك نتيجة لطبيعة مجتمع مركز مدينة الشرقاط، والذي اتسم بعمق ومتانة العلاقات الاجتماعية بين مكوناته العشائرية، بالإضافة إلى علاقات الشيخ المقدم خطّاب الوطيدة مع جميع القيادات الاجتماعية والسياسية في المدينة، وتمتعه بثقة وتقدير واحترام معظم القوى الاجتماعية الفاعلة في المدينة.

التنظيم يوجه الإنذار النهائي

بدأ تنظيم القاعدة الإرهابي بتنفيذ أجنداته القائمة على إفراغ الدولة والمجتمع من وسائل القوة ومسببات الأمن، من خلال استخدام وسائله الإرهابية في القتل والتفجير، وجاء في مقدمتها منع تشكيل قوات الشرطة العراقية في المدن الواقعة تحت نفوذه، وفي سبيل ذلك، أعلن التنظيم عبر وسلائله الدعائية أن على جميع العاملين في سلك الشرطة العراقية ترك عملهم خلال فترة شهر من تاريخ الإنذار، من خلال التوقيع على وثيقة توبة، وتقديمها حضورياً بيد عناصره في مدينة الموصل، بعد أن نشر التنظيم قوائم طويلة ضمت أسماء وأماكن عمل منتسبي الشرطة العراقية في الموصل والمدن التابعة لها، متوعداً المخالفين بالقتل، حيث تم لصق تلك القوائم على جدران جوامع في مدينة الموصل، احتوت تلك القوائم على جميع اسماء عناصر مديرية شرطة الشرقاط، في إشارة واضحة على وجود التنظيم في المدينة، وعلى اختراق عملاء التنظيم لحواسيب مديرية شرطة الشرقاط.

في تلك الظروف العصيبة، وفي ظل ازدياد عمليات الاغتيال التي كان التنظيم ينفذها بشكل يومي ضد عناصر الشرطة العراقية، سيطر الخوف والرعب على معظم السكان، بضمنهم عناصر الشرطة، حيث تفنن التنظيم في اعتماد السرية والمباغتة في تنفيذ عمليات الاغتيال، وكانت عمليات قتل عناصر الشرطة تتكرر بشكل يومي، ويزيد الطابور الخامس من مشاعر الرهبة عند السكان، من خلال تضخيم قوة التنظيم، والترويج لقدرته على تنفيذ أبشع الجرائم ضد الإنسانية.

التنظيم يروج لجرائمهِ الوحشية

في خضم تلك المرحلة المعقدة والرهيبة، انتشرت تسجيلات الفيديو التي نشرها تنظيم القاعدة لعمليات ذبح ضحاياه، من المدنيين الأجانب العاملين في الشركات الأجنبية، ومن الشرطة العراقية.

وفي إحدى الأمسيات، كنت جالساً مع أحد الأصدقاء، في واحدة من كازينوهات مركز مدينة الشرقاط، وبينما كُنّا نتقاسم دخان النارجيلة ونشرب الشاي، فوجئنا بصوت غريب مصدره جهاز التلفزيون الذي كان بجانبنا، كان الصوت يشبه خوار الحيوانات حين تُذبح، ألتفتنا نحو جهاز التلفزيون، فشاهدنا بضع ثوانٍ من الفيديو قبل أن نترك المكان بلا عودة.

في المشهد، كان رجُلاً أسيوياً يرتدي بدلة حمراء، مُكتف اليدين، يُمسك رأسه من شعره أحد مجرمي تنظيم القاعدة الملثمين، يحز برقبته بسكين كبير وحاد، ببطءٍ وهدوء، والدماء تسيل من الجرح الذي أُحدِث في عُنُقهِ بغزاره، مصدر الصوت الغريب الذي سمعناه كان خروج الدم مع الهواء من حنجرة تلك الضحية المسكينة، عَبّرَ ذلك المشهد عن الإرهاب البشري في أبشع وأشنع صوره، وأوضحها، كشف عن ضحالة الإنسان، وعن وحشيته وحيوانيته، حين تُسيطر على عقله أفكار مجنونة، وأوهام تجعلهُ أكثر وحشية من أقسى الحيوانات المفترسة، فالحيوانات المفترسة تقتلُ لتأكل، تقتل كي تبقى على قيد الحياة، وهي لا تقتل أبناء جنسها، بل تقتل أجناساً أخرى من الحيوانات بهدف البقاء، بينما يقوم الإنسان الممسوخ بقتل أخيه الإنسان في سبيل أوهام سوداء، كي يرضي الله وينال جنته وفقاً لها، وحاشى لله أن يرضى بمثل هذه الجرائم الوحشية.

بعد أن دب الهلع والخوف في نفوسنا وبشكل رهيب، قُلت لصاحب الكازينو:

ما هذا؟.

لماذا شغلت هذا الفيديو؟. إنّهُ بشعٌ جداً، إنهم يذبحون إنساناً!.

قال: شكو بيها (طبيعي)، نُريد قتل، نُريد دم.

قال تلك العبارات وملامح الحقد كانت واضحةً على وجهه الأسود، وعينيه تكاد تتفجر من الغِل، بينما كان يُمسك لي النارجيلة، ويتظاهر بالفرح والبهجة.

دفعت الحساب وغادرت تلك الكازينو إلى الأبد، وعلِمت فيما بعد أن صاحب الكازينو كان ولايزال من كبار المثليين، المثليين الذين يعشقون الأطفال، وينفقون الأموال في سبيل إغوائهم وممارسة الجنس معهم، عرفت حقيقته بعد أن أنفضح أمر تحرشه بأحد القاصرين، حيث أكتشف والد ذلك القاصر محادثات وصور إباحية مثلية شاركها ذلك المثلي مع ولده القاصر في سبيل إغواءه إلى مستنقع رذيلته ودناءته، وكم من القاصرين وقعَ ضحيةً لمثل ذلك الوحش البشري قبل أن يتمكن ذويه من حمايته وإنقاذه، والغريب بالنسبة لي، هو أن يروج مثل هذا المثلي لتنظيم إرهابي كبير مثل تنظيم القاعدة، التنظيم الذي مارس أبشع الجرائم بحق المثليين، مُفارقة غريبة حقاً!، سببها وفقاً لتقديري هو الحقد وعقدة الشعور بالنقص، وإيمان بعض البشر بسفالتهم وانحطاطهم، وتوهمهم بأن استعادة قيمتهم الاجتماعية تكمن في الانتقام من المجتمع بجميع الوسائل المتاحة.

نعود إلى موضوع تهديد تنظيم القاعدة لعناصر الشرطة في محافظة نينوى والمدن القريبة منها، بضمنهم عناصر شرطة الشرقاط، واعطاءه مهلة لترك عملهم، وتقديم توبات موثقة وحضورية في جوامع مدينة الموصل، وتوعُد المخالفين بالقتل والذبح، ونظراً لكون الشيخ المقدم خطّاب كان أول من أسس قوة أمنية تم ضمها لمديرية شرطة الشرقاط، كان أسمهُ

ورتبته وعنوانه في رأس قوائم عناصر شرطة الشرقاط، وهذا ما نقله لهُ أحد أخواله وبحضوري، حيث دار بينهم الحديث الآتي:

الخال: كنت اليوم في مدينة الموصل، قرأت أسمك في مقدمة قوائم التهديد التي نشرها المجاهدين، سايم جاه الله عليك (أتوسلك بالله) أن تترك عملك في الشرطة، وأن تكتب توبه، ولا داعي أن تذهب إلى الموصل بنفسك لتسلمها، سوف أجِدُ من يوصل توبتك وينهي الموضوع.

الشيخ المقدم خطّاب: هل جُننت أم حصل لعقلِكَ شيء؟.

كيف تقبل أن أترك عملي في حماية الشرقاط؟.

بل كيف تقبل أن أكتب توبه لهؤلاء القتلةِ والمجرمين.

الخال: أتفهم موقفك تماماً، وأعرف أنك عسكري وشجاع، لكن الأوضاع خطرة جداً كما ترى، لا يوجد دولة ولا يوجد قوة لتحميك، أرجوك نفذ طلبي، نحن بحاجةٍ لك ولا نريد أن نخسرك.

الشيخ المقدم خطّاب: فل يفعلوا ما يشاؤون، لن أترك عملي، ولن أكتب أي شيء، لا ينقص الأعمار ولا يزيدها إلّا الله سبحانه وتعالى!.

لا أنكر أن مشاعر الخوف والرهبة كادت تشلني خلال ذلك الحوار، الخوف على عمي الشيخ المقدم خطّاب من ذلك التهديد والوعيد، والرهبة من الجرائم العجيبة التي كان ذلك التنظيم الوحشي يرتكبها ويبثها من خلال تسجيلات الفيديو التي نشرها وشاهدتها بنفسي.

محاولة الاغتيال

قبل أن تنتهي المهلة التي أطلقها التنظيم، سارعت أعداد كبيرة من عناصر الشرطة لترك عملها وكتابة التوبات وتقديمها للتنظيم، بينما صمدت اعدادٌ أقل، مستمدة عزمها من عشائرها ومكوناتها الاجتماعية القوية، وبينما كان المقدم خطّاب يستقل سيارته نوع نيسان باترول التابعة لشرطة الشرقاط، عصر أحد أيام أيلول / سبتمبر 2004م متجها إلى قرية الزوية، يرافقه ولده محمد ذو الثلاثة عشر عام، وزوجته وأثنان من أطفاله، وتحديداً في الطريق العام الرابط بين صلاح الدين ونينوى، تعرض لمحاولة اغتيال، وفي ما يلي تفاصيل الحادثة حسب روايته لي:

"كُنت أقود السيارة، بجانبي ولدي محمد، وإلى الخلف عائلتي، في المرآة أمامي، شاهدت سيارة بيضاء اللون نوع كورونا تسير خلفنا، لاحظت سيرها خلفنا منذ أن وصلنا إلى الطريق العام من مفرق الشرقاط، قلت لمحمد أمسك البندقية، وكن جاهزا لإطلاق النار عندما أُبلغك، أمسك محمد البندقية على صغر سنه، بينما كنت أتابع السير وأراقب السيارة خلفنا من خلال المرآة، لاحظت وجود ثلاثة عناصر داخل السيارة، حاول سائق السيارة السير بجانبنا، لكني منعته، حيث حرصت على غلق الطريق أمامه لا بقائِهِ خلفنا، كي لا أُتيح لهم فرصة أطلاق النار علينا من الجهة الجانبية، بالتزامن مع ذلك، قمت بزيادة سرعة السير لحوالي 160 كم / ساعة كي أبتعد عنهم، بعد حوالي دقيقة من زيادتي للسرعة، وبعد أن اجتزنا قرية المجمعات على الطريق العام، أيقن المهاجمون أننا أوشكنا على الافلات من مرمى نيرانهم، فخرج أحدهم من نافذة السيارة، بعد أن غطى وجهه بقناع اسود (كليته)، وقام بتوجيه فوهة بندقيته الرشاشة نوع (RBK) باتجاهنا مباشرة، فاطلق كل ما في بندقيته من رصاص نحونا بدقة متناهية، فأخترق الرصاص سيارتنا من الجهة الخلفية، وخرجت ثمان

رصاصات من زجاج سيارتنا الأمامي، استدارت سيارة فرقة الاغتيال بعد أطلاقها النار علينا، وواصلت سيرها هاربةً في الاتجاه المعاكس.

بعد انتهاء الهجوم، أوقفت سيارتي على جانب الشارع، تأكدت أن ولدي محمد لم يُصب بأذى، ألتفتُ فوجدت عمتك قد أُصيبت بإحدى الرصاصات، نزلت من سيارتنا، وسرعان ما توقفت بجانبنا سيارة لأحد المعارف، فأقلتنا على الفور إلى مستشفى الشرقاط العام".

جاءنا في الشرقاط خبر محاولة الاغتيال الفاشلة وقت الغروب، فهرعتُ حاملاً بندقيتي إلى مستشفى الشرقاط، حيث كانت زوجة الشيخ المقدم خطّاب تتلقى الإسعافات الأولية، بينما كان هو واقفاً بكل شجاعة، يطُمئن الحضور أن الحادث كان متوقع، وإن محاولة اغتياله مع عائلته لن تُثني عزيمته أبداً، وإنّهُ لن يستسلم للقتلة المجرمين مهما كلفه الأمر ومهما حصل، وأن الشرقاط ستكون مقبرةً لكل الإرهابيين والمجرمين.

وبعد تلقيه تهاني الحاضرين على سلامته ونجاته من موت محقق، ردد هذه الأبيات الشعرية البدوية أمام الجميع:

الخوف ما فك الحباري من الموت (الحباري أحد انواع الطيور).

والمدح ما يرفع مكان الهلامه (الهلامه تعني الهزيل والضعيف من الغنم).

المال يفنى وأخر اعمارنا نموت.

والذكر يبقى للنشامى علامة!.

كان يهتف بهذه الأبيات رافعاً يده اليمنى، مهدداً بسبابتها، وهو محاطٌ بالعشرات من مقاتلي فصيل الأمن والمتابعة، والعناصر المدنية التي كانت تحمل السلاح معلنة استعدادها للدفاع عنهُ واخذ الثأر من الجُناة.

علِمنا في نفس اليوم من الأهالي الساكنين على مقربةٍ من الطريق العام بين صلاح الدين ونينوى، أن سيارة المهاجمين سلكت طريق صحراوي يتفرع من الطريق العام باتجاه قرية العيثة شرقاً، وإنها دخلت إلى تلك القرية ثم اختفت، وفي محاولة لتتبع الجُناة، قُمت شخصياً برفقة مجموعة من الأقارب بتسيير دوريات مسلحة بسيارات مدنية داخل قرية العيثة بحثاً عن تلك السيارة، سألنا المارة وطرقنا الأبواب بحثاً عنها دون جدوى، فأقمنا بعدها سيطرة على الطريق الرئيسي بين الشرقاط والقيارة، بالقرب من الطريق الفرعي المؤدي إلى قرية العيثة، لكننا لم نعثر على أي أثر أو معلومة عن السيارة، والتي تبخرت هناك، ولا أنكرُ اليوم أن ما قمنا به من عمليات تفتيش ونصب سيطرات مسلحة كان محاولة طائشة لتتبع الجُناة، حيث افتقرت حركاتنا للتحوطات العسكرية والحس الأمني، في المعقل الرئيسي لأحد اخطر التنظيمات الإرهابية في العالم وفي منطقتنا آنذاك.

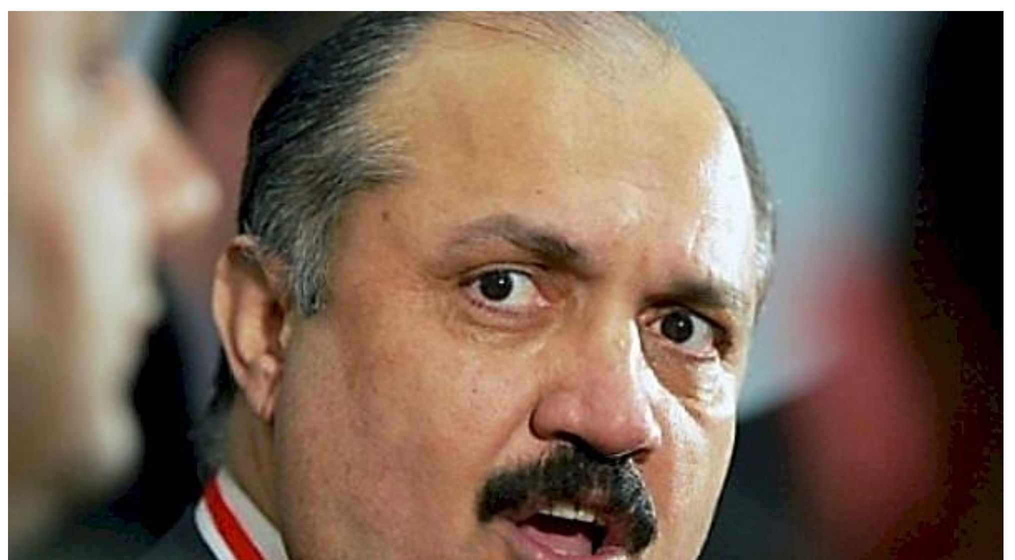
تشكيل الفوج الخامس من قوات حماية المنشآت لنفطية

شهدت الأوضاع الأمنية في الشرقاط والمناطق المجاورة لها تدهوراً أمنياً خطيراً منذ بداية عام 2004م كما ذكرنا، حيث تضاعفت العمليات الإرهابية التي نفذها تنظيم القاعدة ضد عناصر الشرطة المحلية، وتوسعت أنواعها لتشمل جرائم الاغتيال والخطف والتفجير بالعبوات الناسفة، كما عمل تنظيم القاعدة على منع السكان من التصويت في الانتخابات التشريعية من خلال وسائل القتل والإرهاب، وفي ظل هذه الأوضاع الخطيرة، نجح السياسي مشعان الجبوري في الحصول على مقعد واحد من أصل 80 مقعداً منتخباً في الجمعية الوطنية الانتقالية العراقية، بعد أن حصل على عشرات آلاف الأصوات من ناخبي الشرقاط، فردد قسم العضوية في منتصف شهر آب / أغسطس عام 2004م، وخلال الأشهر الأولى من عمله في الجمعية الوطنية، تمكن النائب مشعان الجبوري من استحصال موافقة الجمعية الوطنية الانتقالية، ورئيس مجلس الوزراء حينها على تشكيل قوات عسكرية تُناط بها مسؤولية حماية أنابيب نقل النفط من عمليات النهب والتخريب التي كانت تتعرض لها في بعض مناطق شمال غرب العراق، وتحديداً في مناطق صلاح الدين وكركوك ونينوى، وبالتنسيق مع رئاسة أركان الجيش تولى النائب مشعان الجبوري صلاحيات ترشيح الضباط والمقاتلين لتشكيل هذه القوات، وسط عزوف معظم الضباط عن الانخراط في صفوفها، نتيجة لتهديدات تنظيم القاعدة وعملياته الإرهابية.

وعلى أيةِ حال تشكلت هذه القوات على شكل أفواج، فبلغ عدد الأفواج التي تم تشكيلها لهذا الغرض (23) فوجاً، أُطلق عليها بعد تشكيلها تسمية (أفواج حماية المنشآت النفطية)، وتشكلت منها فيما بعد الفرقة الـ (12) في الجيش العراقي، وقد استقرت هذه الفرقة في محافظة كركوك، قبل أن يتم تفكيكها نتيجة لتداعيات الحرب ضد تنظيم الدولة

الإسلامية الإرهابي، وسيطرة قوات البيشمرگة الكردية على مقرها، ولم يتم إعادة تشكيلها حتى لحظة كتابة هذه السطور.

النائب مشعان الجبوري عام 2004م



تم تكليف الشيخ خطّاب بتأسيس أحد هذه الأفواج من قبل النائب مشعان الجبوري آنذاك، وهو الفوج الخامس، ليكون مقره في مدينة الشرقاط، ويتولى مهام حمايتها من هجمات تنظيم القاعدة، فوافق الشيخ خطّاب دون تردد على هذا التكليف، وذلك على الرغم من خطورة تهديدات تنظيم القاعدة على حياته وحياة أُسرته، إذ أعتبر أن تشكيل هذا الفوج فرصة مهمة لفرض الأمن وحماية المدينة، بالإضافة إلى كونه يشكل وسيلة لخلق اكثر من (1000) فرصة عمل للضباط والمقاتلين من سكان الشرقاط ومحيطها.

بتكتمُ شديد وسرية تامه، نجح الشيخ خطّاب في إقناع بعض ضباط الشرقاط للعمل معه على تشكيل الفوج، بعد أن شجعهم وبدد مخاوفهم، وأوضح لهم حجم المنافع الأمنية والاقتصادية التي ستخلقها عملية تأسيس هذا الفوج على مدينة الشرقاط والمناطق المحيطة بها.

في إحدى ليالي تشرين الأول / اكتوبر عام 2004م، زارني الشيخ خطّاب في داري، بمفرده يستقل سيارة تابعة لقوة الأمن والمتابعة، كان يحمل سجل وأوراق، دار بيننا الحديث الآتي:

الشيخ خطّاب: أبو عبدالله، راح نشكل أفواج عسكرية لحماية المنطقة من الإرهابيين والتكفيريين، نحن بحاجة لضباط، سجلت أسمك في قوائم احد الأفواج.

قلت: حاضِر.

عبر الشيخ خطّاب عن رضاه على قبولي للعمل في هذه الأفواج، فأمضى حوالي ربع ساعة في دارنا ثم غادر.

ولا أُنكر إنني شعرت بقلق شديد نتيجة لحالة الإرهاب العامة التي خلقها التنظيم وعمل على إدامتها في الشرقاط والمنطقة، فتم تشكيل الفوج الرابع بعد شهر تقريباً، وتحديداً في شهر تشرين الثاني / نوفمبر عام 2004م ومقره منطقة الـ(600 دار) بالقرب من مصفى بيجي، حيث باشرت العمل فيه قبل أن يتم نقلي إلى الفوج الخامس في مدينة الشرقاط بداية عام 2005م.

مخادعة عناصر تنظيم القاعدة شمال بغداد

بتاريخ 26 رمضان من عام 1425 هجرية، الموافق ليوم 9 تشرين الثاني / نوفمبر عام 2004م، توجه الشيخ خطّاب مع مجموعة من رفاقه الضباط والمنتسبين نحو بغداد، فاستحصل هناك على الأمر الوزاري القاضي بتشكيل الفوج بقيادته، واستلم الأسلحة والمعدات العسكرية والمركبات المخصصة للفوج من مخازن وزارة الدفاع، بالرغم من اضطراب الأوضاع الامنية وهشاشة الأمن داخل بغداد، وفي هذا المجال، أظهر الشيخ خطاب شجاعةً نادرة، حيث كان يتنقل في بغداد مع مقاتليه مرتدياً الزي العسكري لأغراض تشكيل الفوج، دون أي خوف أو وجل من شرور التنظيمات الإرهابية التي كانت تملأ شوارع بغداد وتنفذ المئات من عملياتها الإجرامية.

ونتيجة لخطورة الطريق من شمال بغداد نحو الشرقاط، وضع الشيخ خطّاب خطة أمنية محكمة، عمل من خلالها على مخادعة عناصر تنظيم القاعدة التي كانت في قمة نشاطها الإرهابي على الطريق العام شمال بغداد، بهدف تأمين سير رتل فوجه العسكري، والعمل على تجنب تعرض الرتل لهجمات تنظيم القاعدة عن طريق العبوات الناسفة، فانطلقت طلائع الفوج الخامس من بغداد في ساعة متأخرة من ليلة 13/ 14 تشرين الثاني / نوفمبر عام 2004م، حيث صادف هذا اليوم أول أيام عيد الفطر المبارك، فاجتاز رتل الفوج مناطق شمال بغداد بسلام، وفي المدخل الجنوبي لمدينة تكريت، أوقفت القوات الأمريكية رتل الفوج ومنعته من الدخول، وأبلغت الشيخ خطّاب انها قلقةً على سلامتهم من مخاطر الطريق شمال تكريت، وعرضت عليه تسيير دوريات مدرعة لإيصال رتل الفوج إلى الشرقاط، لكنه رفض عرض القوات الأمريكية، واخبرها أن قواته عبرت مناطق شمال بغداد مع مقاتليه الشجعان حتى وصل إلى تكريت، وانها ليس بحاجة إلى القوات الأمريكية لحمايها، حيث يستطيع

مقاتليه مواصلة الطريق إلى الشرقاط دون أي حماية من القوات الأمريكية، وبعد حوالي ساعة، سمحت القوات الأمريكية لرتل الفوج بعبور تكريت باتجاه الشرقاط [1].

ومع الدقائق الأولى لشروق الشمس كان رتل الفوج قد تجاوز منطقة بيجي التي لا تقل خطورة عن مناطق شمال بغداد، وفي تمام الساعة السابعة صباحاً وصل رتل الفوج بقيادة الشيخ خطّاب إلى مدينة الشرقاط، وعلى الفور دخل الرتل إلى بناية فندق شركة التصنيع العسكري في الشرقاط، وتحديداً في منطقة السكنية جنوب المدينة، معلناً عن بدء مرحلة جديدة من فرض الأمن والنظام ومواجهة قوى الإرهاب في المدينة والمناطق المحيطة بها.

الشيخ خطّاب مع مجموعة من المقاتلين في موقع القصور الرئاسية بجبل مكحول عام 2005م.



(1) المكالمة الهاتفية التي أجراها الباحث مع المقاتل جمال عبد الكريم عطية العلوله، وهو من مواليد عام 1981م، أُجريت المكالمة بتاريخ 31/ 10/ 2022م.

التنظيم يضرب

بعد أن نجح الشيخ خطّاب في تأمين وصول أسلحة وتجهيزات وآليات الفوج إلى الشرقاط، وبعد أن التحق بعض الضباط الذين ترددوا عن الالتحاق خلال الأيام الأولى لتشكيل الفوج، قام الشيخ خطّاب بتقسيم الفوج إلى خمس سرايا، وخصص لكل سرية قاطع مسؤولية يتضمن جزء من المدينة ومحيطها، فباشر المقاتلين بمسك الأرض، وتم نصب سيطرات عسكرية تابعة لسرايا الفوج في جميع مداخل الشرقاط ومفاصله الحيوية، بواقع سيطرتين رئيسيتين على الشارع العام الرابط بين الموصل وصلاح الدين ضمن الحدود الادارية لمدينة الشرقاط، إحداهما شمالية والثانية جنوبية، وسيطرتين في المداخل الجنوبية والشمالية لمدينة لشرقاط، وسيطرة في المدخل الشرقي للشرقاط من جهة معبر نهر دجلة، وذلك قبل إنشاء جسر الشرقاط الحالي، بالإضافة إلى سيطرات ثابتة ومتحركة نصبتها سرايا الفوج في مناطق متفرقة داخل الشرقاط، وفقاً لتطورات الأوضاع الأمنية ومتطلبات مواجهتها.

في صباح يوم التاسع من شباط / فبراير عام 2005م، وبينما كان الجو غائماً وممطراً، كانت إحدى عجلات الفوج المخصصة لنقل الأرزاق تحاول عبور جسر أم الشبابيط جنوب الشرقاط باتجاه مقر الفوج، فتعرضت لإطلاق نار كثيف من كمين نصبه عناصر القاعدة، ولولا بسالة وشجاعة أحد مقاتلي الفوج الذي صادف وجوده بالقرب من الكمين، لتمكن عناصر التنظيم من الاجهاز على جميع مقاتلي الفوج الذين كانوا داخل العجلة، فقد كان الكمين محكماً، والعجلة تسير بسرعة بطيئة خلال محاولتها لعبورها الجسر، وعناصر الكمين في كامل استعدادها للتصويب باتجاه عجلة الفوج، والمقاتل الذي انقذ عناصر الفوج هو

طامي ركاض محجوب الروضان، من أهالي قرية الخصم في مركز مدينة الشرقاط، وفي ما يلي شهادته لي حول تلك الواقعة[1]:

"كنت أجري عملية تبديل زيت المحرك لسيارتي عند محل صيانة سيارات بالقرب من جسر أم الشبابيط، فشاهدت عجلة الفوج المخصصة لنقل الأرزاق، بداخلها أربعة مقاتلين تسير ببطء، وهي شاحنة نوع داينا، على بعد حوالي 30م من موقعي، وفي نفس الوقت، شاهدت أربعة مسلحين ملثمين وهم يطلقون النار على عجلة الفوج من سيارتهم نوع مارك سمائية اللون، على بعد حوالي 50م مني، حيث ترجل أثنان منهم لأطلاق النار، بينما أشهر الاخرون أسلحتهم من داخل السيارة واطلقوا النار أيضاً، فأخرجت بندقيتي نوع كلاشنكوف روسي من سيارتي على الفور، واتخذت وضع اطلاق النار مصوباً فوهة سلاحي نحو المهاجمين، فأرديت اثنين منهم قتلى على الفور، بينما لاذ العنصرين الأخرين بالفرار جرياً على الاقدام، بعد أن تركوا جثث رفاقهم القتلى في موقع الحادث، قبل أن يتمموا عمليتهم الإرهابية الغادرة، وقد قُتل المقاتل محمد مرعي في هذا الحادث، وجُرِح جميع المقاتلين الذين كانوا معه في العجلة، وهم كل من جمال عبد الكريم عطية العلوله، وعمار علي السليمان واحمد عبد الله صالح، وبالرغم من اصاباتهم، أطلقوا النار معي باتجاه المسلحين الهاربين".

كنت حاضراً بعد دقائق من الهجوم، وذلك بعد أن تلقيت أتصال لاسلكي أخبرني بتفاصيله، فشاهدت أحد قتلى عناصر تنظيم القاعدة الذين قُتِلوا في ذلك الهجوم، كان شاباً لم يتجاوز الثامنة عشر من عمره، نحيف البنية وقصير القامة، يرتدي ملابس رثة، ووجهه

---

(1) المقابلة الشخصية التي أجراها الباحث مع المقاتل طامي ركاض محجوب الروضان، وهو من مواليد عام 1980م، أُجريت المقابلة بتاريخ 31/ 10/ 2022م

مغطى بلثام، وعندما قام أحد الحاضرين بإماطة اللثام عن وجهه، بدا شاحباً بلون البرتقال، نتيجةً للنزف الذي أفرغ جسده من الدماء.

خسِر الفوج نتيجة لهذا الهجوم أحد عناصره، وهو المقاتل محمد مرعي حسن من أهالي منطقة بعاجة وسط الشرقاط، ومحمد هذا كان من العناصر السلفية التي استشعرت خطورة تنظيم القاعدة التكفيري على أمن المجتمع ومستقبله، فقرر الانخراط في صفوف الفوج لمواجهة هذا التنظيم والدفاع عن المدينة، وتجدر بنا في هذا المجال الإشارة إلى رجل الدين السلفي أبي حذيفة (الملازم أول صالح حسين الزليط)، وهو ضابط متقاعد من أهالي قرية بعاجة، حيث أفتى بضرورة التطوع في صفوف أفواج حماية المنشآت النفطية، لحماية الأهالي من قوى الإرهاب، ومواجهة الفتن التي بدأ تنظيم القاعدة ينشرها في مناطق شمال غرب العراق.

المقاتل محمد مرعي حسن عام 2004م.



أظهرت هذه الحادثة رفض معظم سكان الشرقاط للجرائم التي اقترفها تنظيم القاعدة بعد 2003م، وخصوصاً من عشيرة الحوري التي كانت نسبة كبيرة من أبناءها في صفوف هذا الفوج، إلى جانب العشائر الأخرى، كما أظهرت دعم معظم السكان لمقاتلي الفوج، حيث خرج المئات من الشباب والشيوخ بسياراتهم المدنية، يحملون أسلحتهم بحثاً عن الجُناة، ويمكن اعتبار هذا الحدث بمثابة ثورة شعبية محلية ضد التنظيم، ساهمت في نجاح الفوج وعززت من قوته، فشجعت عناصره على القتال، وجعلتهم يؤمنون بأحقيتهم في الدفاع عن أنفسهم، وعن مدينتهم ضد ذلك التنظيم المتوحش.

دور الشيخ خطّاب في احتواء آثار الضربة

لا شك أن عناصر تنظيم القاعدة وغيره من التنظيمات الإرهابية السنية خرجت من صلب المجتمع السني، كنتيجة لانتشار الافكار الدينية المتطرفة، اضافة إلى تداعيات انهيار الدولة ومؤسساتها الأمنية، وانفتاح الحدود العراقية على مصراعيها أمام دول الجوار التي صدرت للعراق نفاياتها من فتأوى متطرفة، وعناصر إرهابية، مع كل ما يلزمها من اسلحة وأموال، ولسوء الحظ، كان عنصر تنظيم القاعدة الذي شارك في تنفيذ الهجوم وقتل على أثره من احد عشائر الشرقاط، الأمر الذي فتح الباب أمام فتنة عشائرية وشيكة بين عشيرة الحوري وعشيرة عنصر التنظيم، فأدرك الشيخ خطّاب خطورة الموقف على السلم المجتمعي، وقام على الفور بدعوة جميع الاطراف للتهدئة، مؤكداً أن عنصر التنظيم ينتمي لمنظومة تكفيرية متطرفة، وبالتالي لا يمكن القول انه ينتمي إلى عشيرته، ولا يمكن مطالبة عشيرته بثأر أو تعويض، فقال مقولته الشهيرة " من ينتمي لتنظيم القاعدة فقد أنتمى إلى عشيرة الإرهاب، وليس على عشيرته أن تتحمل وزره".

ولوأد الفتنة وانهاء الموضوع بشكل تام، قام الشيخ خطّاب بدفع مبلغ دية من أموال الفوج لذوي المقاتل محمد، كما قام بعقد جلسة صلح عشائري بين عائلة المقاتل محمد وعائلة عنصر القاعدة المقتول، فتم الصلح بين الجانبين على أساس أن أهل الشرقاط ينتمون لعشيرة واحدة هي عشيرة الشرقاط، وأن من ينتمي للتنظيم ينتمي لعشيرة الإرهاب بالضرورة، وليس لأي عشيرةٍ أخرى.

التعامل مع قوى المقاومة الوطنية

بالرغم من حرص الشيخ خطّاب على حفظ الأمن والاستقرار في مناطق مسؤوليته الأمنية، كان حريصاً على دعم قوى المقاومة الوطنية ضد قوات الاحتلال الأمريكي، متفهماً للمشاعر الوطنية والقومية التي كانت تجيش في صدور من اختار خيار المقاومة المسلحة لإخراج قوات الاحتلال الأمريكي من العراق، ومفرقاً بينها وبين قوى الإرهاب التكفيري التي كانت تضرب قوات الاحتلال وقوات الأمن العراقية بهدف إقامة حكمها المتطرف، عبر تدمير كل مقومات الدولة العراقية، لذلك حرص على دعم قوى المقاومة الوطنية التي لا تستهدف المدنيين والعسكريين العراقيين، وحرص على محاربة الجماعات التكفيرية المسلحة.

وفي هذا المجال، كنت شاهداً خلال عملي معه في الفوج الخامس، على دعمه لقوى المقاومة الوطنية، حيث كان يكرر خلال اجتماعاتنا في الفوج هذه العبارة:

" مقاومة الاحتلال أمر مشروع ووطني، بشرط أن لا يتم استهداف الأمريكان داخل مدينة الشرقاط، القوات الأمريكية موجودة على الشارع العام بين الموصل وبغداد، وكل من يستهدفها أنا مستعد لدعمه بالسلاح والعتاد، أما العمليات ضدهم داخل المدينة، فأنا ارفضها رفضاً قاطعاً، وسأتعامل مع من ينفذها على أنّهُ إرهابي جبان، لأنّهُ يحاول استخدام المدنيين الأبرياء كدروع بشرية ويتسبب بقتل أهلنا".

اللقاء مع كامل عطية حمود.

كامل عطية حمود الجميلي هو أمين سر شعبة الشرقاط لحزب البعث قبل الاحتلال الأمريكي، ونتيجة لطبيعة دوره الحزبي قبل الاحتلال وبعده، أصبح أحد اهم المطلوبين من قبل القوات الأمريكية في منطقة الشرقاط، وقد ذكرت إنى التقيته عام 1998م.

في أحد ظهائر تموز / يوليو الساخنة عام 2005م، وبينما كنت منهمكاً بعملي في مقر الفوج الخامس، تلقيت أتصال من الشيخ خطاب، فدار بيننا الحديث الآتي:

الشيخ خطاب: أبو عبدالله أنت وين؟ (اين أنت؟).

قلت: أنا في مقر الفوج.

قال: أنزل إلى باحة الفوج، واجلب معك مقاتل واحد تثق به وبسرعه.

نزلت من الطابق الأول لبناية الفوج حيث مكتبي إلى باحة الفوج، فوجدت الشيخ خطاب ينتظرني بمفرده، قال أركبوا معي بسرعة.

تولى الشيخ خطاب قيادة سيارتنا العسكرية نوع لانكرويزر، ومن هناك أتجه إلى منطقة صحراوية على بعد حوالي 15 كم من مقر الفوج، توقف أمام منزل هناك، فوجدنا صاحب المنزل بانتظارنا.

بعد أن رحب بنا صاحب المنزل، أدخلنا إلى صالة الضيوف، وهناك فوجئت بوجود المسؤول السابق في حزب البعث كامل عطية حمود!.

عانق الشيخ خطاب هذا الرجل وجلس بجانبه، فدار بينهما حديث شكى فيه كامل عطية من تتبع قوات الاحتلال الأمريكي له ومحاولاتها لاعتقاله، كما أبدى تذمره من الدور المشبوه للجواسيس والواشين، إذ أن علم قوات الاحتلال الأمريكي بأماكن تواجده لا بد أن يكون بسبب وشاياتهم وتجسسهم.

أبدى الشيخ خطاب احتراماً وتقديراً لكامل عطية، وكناه بـ(أبا رائد)، وأبلغه أنّهُ سيحاول إقناع القوات الأمريكية بالكف عن متابعته قدر الإمكان، ثم أنتهى ذلك اللقاء بعد حوالي 15 دقيقة.

تغير مظهر كامل عطية بشكل كبير جداً، قياساً بما كان عليه عام 1998م، حيث فقد الكثير من وزنه، وبدا وجهه شاحباً، كان قلقاً جداء أثناء جلوسه معنا، متوقعاً وصول القوات الأمريكية في أي لحظة لاعتقاله، لذلك طلب إنهاء اللقاء بسرعة.

وقد أبديتُ شخصياً احتراماً واهتماماً شديدين للرجل، تثميناً لموقفه المعنوي معي عام 1998م، وكونه من المسؤولين الذين لم يسجل عليهم إساءة أو تجاوز يذكر خلال فترة عمله في الشرقاط قبل الاحتلال الأمريكي، وقد توفي الرجل بعد سنوات قليلة على ذلك اللقاء.

الأوضاع العامة في الفوج

أحتفظ الشيخ خطّاب بالقيم والمبادئ العسكرية العراقية التي آمن بها وتدرب عليها خلال دراسته في الكلية العسكرية، وخلال خدمته العسكرية في الجيش العراقي، وأهمها قيم الانضباط والنزاهة والشرف والتضحية في سبيل حماية الأرض والممتلكات العامة، بالإضافة إلى صيانة كرامة وحقوق المقاتلين.

وقد ألتزم الشيخ خطّاب بأهم هذه القيم، وهي قيمة حفظ كرامة المقاتلين وحفظ حقوقهم، حيث حَرِصَ على أن يحصل المقاتلين على كامل مستحقاتهم المالية، وفي مقدمتها حصول المقاتل على راتبه كاملاً دون أي استقطاعات، وذلك من خلال منع جميع حالات الرشوة أو الابتزاز أو بيع الإجازات، إلى جانب ذلك حرص على أن تقدم الوجبات الغذائية اليومية للمقاتلين وبمستوى ممتاز، حيث وفرت وزارة الدفاع الأموال الكافية لهذا الغرض، فتم تهيئة بهوٍ للضباط، وبهوٍ للمراتب، تقدم ثلاث وجبات يومية، تضمنت أنواع وكميات فاخرة من الطعام، مما ساهم في إيمان المقاتلين بمهنية ونزاهة قيادة الفوج، فارتفعت الروح المعنوية والقتالية لدى أفراد الفوج، وساهمت في تحقيق النصر على الإرهاب خلال مدة عمل الفوج في الشرقاط، خلافاً لما شهدته العديد من الوحدات العسكرية الأخرى من حالات فساد، شملت استقطاع مبالغ من رواتب المقاتلين، وسرقة الأموال المخصصة للأرزاق، وحالات تقاسم الرواتب بين بعض الضباط الفاسدين والمقاتلين مقابل بقائهم في منازلهم، الأمر الذي ساهم في تراجع الروح المعنوية لدى بعض القطعات العسكرية، وتسبب بحالات من التسيب وعدم الانضباط العسكري، وأنتج اخيراً الانهيار المأساوي الذي حدثَ لجزء من القوات المسلحة العراقية في شمال غرب العراق خلال صيف عام 2014م.

مواقف إنسانية للشيخ خطاب

عمل الشيخ خطّاب على مساعدة الفئات الفقيرة المتعففة من السكان في مدينة الشرقاط، وذلك من خلال استخدام الفوائض المالية التي تكدست في خزائن الفوج، وهي عبارة عن الفرق بين ما كان يتم تخصيصه من أموال لإطعام المقاتلين بشكل شهري، وبين ما يحتاجه الفوج فعلياً لتوفير الطعام لمقاتليه، حيث كانت التخصيصات مرتفعة، بينما أسعار المواد الغذائية واللحوم في الأسواق المحلية منخفضة نسبياً، وبذلك تمكن من تخصيص ما لا يقل عن عشرة ملايين دينار شهرياً، ليوزعها من خلال لجان شكلها من ضباط الفوج، إذ شُكِلت لجنة لكل قرية في معظم مناطق الشرقاط، لتوزع تلك الأموال على الآسر الفقيرة والأرامل والأيتام، بواقع مبلغ 150 ألف دينار لكل أسرة، بالإضافة إلى تخصيص جزء من تلك المبالغ لتشغيل بعض الشباب في الفوج بصفة عقود، ليتقاضوا مرتبات بلغت 250 ألف دينار شهرياً، لمساعدتهم في إعالة أُسرهم، ولتمنع البعض منهم من الانخراط في صفوف التنظيمات الإرهابية، وبذلك تمكن الشيخ خطّاب من تحسين الأوضاع المعيشية لبعض الفئات الفقيرة من السكان، بينما أستحوذ الكثير من أقرانه على جميع الفوائض المالية التي تحققت بفضل وفرة تخصيصات أرزاق المقاتلين حينها، بل أن البعض منهم أستولى على أجزاء كبيرة من تلك الأموال من خلال تقليل كمية ونوعية الوجبات المقدمة للمقاتلين.

الصدام مع سلطات إقليم كردستان العراق

حصلت القوى السياسية الكردية العراقية على الكثير من مطالبها السياسية بعد عام 2003م، منها على سبيل المثال لا الحصر؛ تشريع دستور العراق لعام 2005م بما يحقق مطالبها، وبذلك أقامت نظام حكم في المحافظات الكردية العراقية أشبه بالمستقل عن العراق، من النواحي السياسية والعسكرية والمالية والإدارية والاقتصادية، فسُمي إقليم كردستان العراق.

خلال عام 2005م، قامت بعض سلطات إقليم كردستان العراق بمنع صهاريج نقل المشتقات النفطية من الدخول إلى مدن الإقليم، قبل أن تُزيل ملصقات العلم العراقي التي كانت تُزين الكثير منها، فأضطر عدد كبير سائقي الشاحنات للذهاب إلى المدن القريبة لإزالة العلم العراقي من شاحناتهم، والعودة مجدداً إلى سيطرات الإقليم للدخول وتفريغ حمولاتهم.

أحدث ذلك القرار تذمراً شديداً لدى العرب في المدن المجاورة للإقليم، وعدوه تجاوزاً على العلم العراقي بشكل عام، وعلى عرب العراق بشكل خاص.

عَلِم الشيخ خطّاب بتفاصيل هذه الحادثة، فقرر أن يدافع مع قوات فوجه عن كرامة عرب العراق، وعن العلم العراقي، فتوجه على رأس قوة كبيرة من مقاتلي الفوج إلى سيطرة الفوج الخامس في الشارع العام بين بغداد والموصل، حيث طريق مرور تلك الصهاريج، فقال مقولته الشهيرة:

أي صهريج ما بي علم العراق ينحجز وما يعبر إلى أربيل!.

(الشاحنات التي لا تحمل علم العراق ممنوعة من العبور إلى أربيل، وتُحجز لحين لصق العلم العراقي عليها!).

وبعد مضي نصف ساعة تقريباً، تكدست العشرات من صهاريج نقل النفط التي مُنِعت من المرور بسبب عدم حملها للعلم العراقي، فقام بعض السائقين بلصق الأعلام العراقية على شاحناتهم وتمكنوا من المرور، بينما رفض بعض السائقين وضع العلم العراقي، فبقوا عالقين بالقرب من سيطرة الفوج الخامس.

ومع مرور المزيد من الوقت، أخذت أعداد الصهاريج الممنوعة من العبور إلى أربيل تتضاعف، فبلغت أكثر من 150 صهريجاً معظم سائقيها من أربيل ودهوك، فوصلت شكواهم إلى المسؤولين في أربيل، ومن أربيل إلى وزارة الدفاع العراقية، فأتصل مدير مكتب وزير الدفاع آنذاك بالشيخ خطّاب طالباً منه فتح الطريق أمام الصهاريج، إذ أن الموضوع آخذ طابعاً سياسياً، ولا نريده أن يتطور أكثر، فقام الشيخ خطّاب بفتح الطريق أمام الصهاريج، تنفيذاً لطلب مراجعه العسكرية.

قناة الزوراء الفضائية

لابد من الإشارة هنا إلى قناة الزوراء الفضائية، وذلك لتأثير انشطة هذه القناة على الشيخ خطّاب، وقناة الزوراء هي قناة أسسها أبن عمه السياسي مشعان الجبوري في بغداد بعد فوزه في انتخابات الجمعية الوطنية الانتقالية العراقية كما ذكرنا، وبعد أن أحتدم الصدام بين النائب مشعان الجبوري وبين خصومه السياسيين في البرلمان العراقي، تم رفع الحصانة البرلمانية عن النائب مشعان الجبوري، تمهيداً لمحاكمته على خلفية الصراع السياسي المذكور، تم ذلك بتاريخ الثامن من تشرين الأول / اكتوبر 2006م، نتيجةً لذلك، وبسبب تهديدات بالقتل، أضطر الجبوري لمغادرة العراق إلى سوريا، ومن هناك بدء بممارسة أنشطة المعارضة العلنية لقوات الاحتلال الأمريكي، وللنظام السياسي العراقي بقيادة رئيس الوزراء آنذاك نوري المالكي، مستخدماً من قناة الزوراء وسيلةً لنشر أنشطته المعارضة، والتي تضمنت التشجيع على مقاومة القوات الأمريكية، كما شن حملة إعلامية شرسة استهدفت شخص نوري المالكي وحزبه السياسي، ومع تنفيذ قرار الحكومة العراقية بغلق قناة الزوراء، ونتيجة لصلة القربى، والعلاقة الوثيقة التي ربطت بين النائب مشعان الجبوري والشيخ خطّاب، وصلت معدات قناة الزوراء إلى الشرقاط، فبدأت ببثها الحي وبصورة سرية من داخل الشرقاط، فوجد أعداء الشيخ خطّاب من جواسيس وخصوم ضالتهم للهجوم عليه وإسقاطه، فقاموا بإبلاغ قوات الاحتلال أن قناة الزوراء تبث من الشرقاط، وأن الشيخ خطّاب هو من يقوم بتوفير الحماية والدعم لها، الأمر الذي ساهم في بداية الصدام بين القوات الأمريكية في جنوب الموصل وشمال صلاح الدين، وبين الشيخ خطّاب الضامن آمر الفوج الخامس.

بداية الصدام مع الجيش الأمريكي

منذ بداية عام 2005م، تم نقلي من الفوج الثاني إلى الفوج الخامس، حيث كُلفت بمهام ضابط أمن الفوج الخامس، فبقيت في هذا الموقع حتى تم نقلي إلى مديرية الاستخبارات والأمن في بغداد نهاية عام 2006م.

في إحدى صباحات تشرين الثاني / نوفمبر الجميلة عام 2006م، كنت أعمل في مكتبي مع فصيل الأمن في الطابق الأول من مبنى الفوج، ففوجئنا بعملية إنزال للقوات الأمريكية بطائرات بلاك هوك، مع دخول لقوات أمريكية برية كبيرة وغير مسبوقة إلى مقر الفوج، نزلت على الفور الى مدخل مقر الفوج، فوجدت الشيخ المقدم خطّاب في استقبال وفد القوات الأمريكية مع ضباطه مرتدياً بدلته المدنية الرسمية، كان في مقدمة القوات الأمريكية ضابط عظيم الجسم طويل القامة وهو آمر القوات الأمريكية في قاعدة القيارة جنوب الموصل آنذاك، يرافقه العميد الركن علي عطاالله الملوح مع عدد من جنوده، وهو المسؤول عن قطعات الجيش العراقي في مناطق جنوب الموصل حينها، مع عدد كبير من كبار ضباط الجيش الأمريكي، يرافقهم مترجم عربي الجنسية.

دخل وفد القوات الأمريكية بصحبتنا إلى بناية مقر الفوج، وتحديداً إلى قاعة الحركات في الطابق الأول من البناية، كانت غرفة الحركات منظمة بشكل عسكري متميز على طراز قوات الحرس الجمهوري، تُزينها خارطة كبيرة لقاطع المسؤولية ضمن الحدود الإدارية لمدينة الشرقاط، وتحوي على طاولة اجتماعات مستطيلة، جلس الشيخ خطّاب على كرسيه، بينما جلس قائد القوات الأمريكية على يمينه، وجلست أنا على كرسي بالقرب منهما بهدف التخفيف من التوتر الذي كنت أتوقع حدوثه، حيث كانت زيارة القوات الأمريكية مفاجئة

وغير مسبوقة، على عكس الزيارات السابقة التي كانت تسبقها رسائل الكترونية واتصالات، لتنسيق وصولهم عبر سيطرات فوجنا الممتدة من شمال الشرقاط إلى جنوبه.

بادرت قائد القوات الأمريكية مرحباً ومعرفاً عن نفسي، وبعد أن أجابني على عبارات الترحيب والتعريف، أومأ لمترجمة العربي الذي كان واقفاً قائلاً:

أعتقد أن لا حاجة لوجودك معنا، لديهم ضابط يتحدث الانكليزية بشكل ممتاز، بإمكانك الانصراف، فانصرف المترجم بعد ذلك على الفور.

دار الحديث الآتي بين آمر الفوج الشيخ المقدم خطّاب وقائد القوات الأمريكية، وكنت المترجم الفوري بينهما:

قائد القوات الأمريكية: شاهدنا في طريقنا إلى الشرقاط حملة إعمار كبيرة للمنازل، المئات من المنازل قيد الإنشاء، وهذا ما لم نراه في مناطق جنوب الموصل، ماهي الاسباب برأيك؟.

الشيخ خطّاب آمر الفوج: هذه نتيجة طبيعية لاستتباب الأمن والاستقرار في مدينة الشرقاط ومحيطها، أضف إلى ذلك أن الآلاف من أبناء الشرقاط تطوعوا في سلك الجيش والشرطة، وبفضل ذلك تدخل لمدينة الشرقاط المليارات من الدنانير شهرياً، على شكل رواتب، وهي السبب الأكبر في حملة بناء المنازل والرواج الاقتصادي.

قائد القوات الأمريكية: نعم، أستطيع فهم ذلك، دعنا نتحدث عن سبب زيارتنا المفاجئة لكم هذا اليوم، لقد جِئنا من أجل اعتقال الإرهابي مشعان الجبوري!، مشعان لديه قناة فضائية تبث من مدينة الشرقاط، يُحرِض من خلالها السكان على استهداف قواتنا، جِئنا من أجل تنسيق الجهود لاعتقاله وتدمير أجهزة قناة الزوراء التي يمتلكها، نحتاج إلى التنسيق معكم لهذا الغرض، نحن مستعدون لتوفير كافة المستلزمات الكفيلة بتدمير أجهزة هذه القناة، وقتل واعتقال كل من يعمل على تحريض السكان ضد قواتنا.

وقف آمر الفوج بعد سماعهِ لعبارات قائد القوات الأمريكية، فدخل في موجة غضب شديدة لم أشهده في مِثلها من قبل رافعاً سبابته وهو يقول:

"مشعان الجبوري ليس إرهابي، مشعان الجبوري سياسي وعضو برلمان عراقي، مشعان الجبوري هو الذي شكل هذا الفوج وعشرات الأفواج الأخرى، الأفواج التي شكلها مشعان الجبوري هي التي تحارب الإرهاب الآن وهي التي تفرض الأمن، مشعان الجبوري أبن عمي، وأي قوة تحاول المساس بهِ سوف أُقاتلها أنا مع ألف من مقاتلي فوجي، الفوج الخامس لحماية المنشآت النفطية!".

لم أُترجم ما قاله الشيخ المقدم خطّاب حرفياً لقائد القوات الأمريكية، بل قمت بإعادة صياغة عباراته بعباراتٍ أخفُ وطأة من العبارات الأصلية خوفاً عليه، وعلى مستقبل الفوج ومقاتليه، إذ كانت سلطة الجيش الأمريكي هي السلطة العليا في العراق حينها، خصوصاً في قضايا الأمن وتسيير شؤون قوات الجيش والشرطة العراقية.

وبعد دقائق من الحديث بينهما، بادرني قائد القوات الأمريكية قائلاً:

آمر الفوج يبدو عصبياً جداً، ويبدو لي أنّهُ يُهدد ويتوعد، وهذا ما لم أجده في ترجمتك!، على أيةٍ حال لننهي هذا الاجتماع.

وبعد أن أتم هذه الجملة، نهض على الفور، وغادر الفوج مع قواته!.

عند خروجنا من بناية الفوج، أمسك العميد الركن علي عطاالله الملوح بيدي قائلاً:

أحسنت، أسلوبك في تهدئة الموقف كان رائعاً، ولو تمت ترجمة ما قاله آمر الفوج لحدثت مشكلة كبيرة!.

الشيخ خطّاب الضامن مع مجموعة من المقاتلين في باحة مقر الفوج الخامس عام 2006م.



محاولات اعتقال
الشيخ خطّاب من قبل القوات الأمريكية

بعد هذه الواقعة بأيام قليلة، وبمساعدة بعض ضعاف النفوس من الجواسيس والمغرضين والحاقدين، شنت القوات الأمريكية حملات كبيرة ومتعددة لاعتقال الشيخ المقدم خطّاب الضامن، شملت هذه الحملات مداهمات متعددة لمنزله ومنازل إخوته في الشرقاط، وعدة منازل لأقاربه وأصدقاءه كان يتردد عليها، ونتيجة لِحِسّه الأمني العالي، فشلت جميع تلك المحاولات في اعتقاله، بالرغم من فاعلية الجواسيس في تتبع تحركاته، وتحديد مواقع تواجده، مما دفع القوات الأمريكية أخيراً لاعتقال أثنين من إخوته وهم عبدالله وعبد السلام، وذلك بتاريخ الثلاثين من كانون الأول / ديسمبر عام 2006م، في محاولة لزيادة الضغط عليه، لعله يسلم نفسه، لكن تواجده في الشرقاط أستمر، وتواصلت جهوده لتجنب الوقوع في قبضة القوات الأمريكية ولعدة أشهر.

بعد مرور حوالي تسعة أشهر على اعتقال أخويه، وبينما كان الشيخ خطّاب يحاول عبور الحدود بين العراق وسوريا نحو دمشق، وتحديداً في منفذ ربيعة الحدودي بين العراق وسوريا، بتأريخ الحادي عشر من أيلول / سبتمبر 2007م، نجحت القوات الأمريكية في التعرف عليه من خلال صوره التي كانت معلقه على جدران المنفذ الحدودي، فوضعته رهن الاعتقال.

تم إرسال الشيخ خطّاب إلى معتقل المطار الذي كانت تديره القوات الأمريكية، ثم أُرسِلَ بعدها إلى معتقل بوكا في محافظة البصرة، فبقى هناك تحت ظروف الاعتقال القاسية لأكثر من إحدى عشر شهراً، الأمر الذي تسبب بنقل الفوج إلى منطقة الصفرة في محافظة

كركوك، فتعرض مقاتلي الفوج إلى مجموعة من الهجمات الإرهابية، راح ضحيتها كوكبة من خيرة المقاتلين، نتيجة لعدم كفاءة آمر الفوج الذي تم تكليفه خلفاً للشيخ خطّاب، وعدم قدرته على قيادة المقاتلين والتعامل مع التنظيم بحيطةٍ وحذر في منطقة عمليات الفوج، الأمر الذي أنعكس سلباً على روحية المقاتلين وأدى إلى تفتيت الفوج وحلّهُ، حيث ترك معظم المقاتلين عملهم في الفوج، وإلى الأبد.

واقعة في معتقل المطار

تم نقل الشيخ خطّاب إلى معتقل المطار في بغداد بعد اعتقالِهِ مباشرة، وكان المعتقل الجديد يضج بالمئات من عناصر تنظيم القاعدة المعتقلين لدى القوات الأمريكية، ومعروف أن عناصر تنظيم القاعدة التكفيري كانت تقتل كل من تجده في السجون من أفراد الجيش والشرطة العراقية، بالإضافة إلى كل من تُكفره من الفئات العراقية الأخرى، بما فيهم الشيعة، والأطياف الأخرى من مكونات الشعب العراقي.

على إثر ذلك، أتخذ الشيخ خطّاب أقصى تدابير الحيطة والحذر للدفاع عن نفسه من شر عناصر التنظيم داخل المعتقل، ولحسن الحظ، كان أثنان من مقاتلي الفوج الخامس (فوج الشيخ خطاب) في نفس المخيم الذي سُجِنَ فيه، وهم كل من؛ المقاتل كامل عزاوي الجميلي، والمقاتل جاسم محمد جبر البو عبيدي الدليمي، وهم من أهالي مدينة الشرقاط، فبعد أن علِما بوجود الشيخ خطّاب في مخيمهم، سارعا في الانضمام إليه، طلباً لعونه وتدبيره، لعلمهم بمهاراته القيادية وشجاعته وفطنته، كونهما مهددين بالقتل مثله، ومن أجل حمايته، لعلمهم بخطورة الأوضاع داخل المخيم، فعملا على حمايته من خلال تشكيل درع بشري حوله [1].

لم يمر اليوم الأول للشيخ خطّاب في مخيم الاعتقال، حتى اكتشفت عناصر تنظيم القاعدة هويته، إذ تعرفوا عليه عن طريق أحد عناصر التنظيم، وهو من أهالي الشرقاط أيضاً، كان هذا العنصر تكفيرياً متشدداً، وتم قتله فيما بعد على يد قوات الجيش العراقي بعد عام 2014م، وإليكم تفاصيل حادثة اكتشاف هوية الشيخ خطّاب ومحاولة اغتياله حسب ما

(1) المقابلة الشخصية التي أجراها الباحث مع المقاتل جاسم محمد جبر البوعبيدي، وهو من مواليد عام 1971م، أُجريت المقابلة بتاريخ 25/ 10/ 2022م

سمعتها مِنهُ، بعد إلحاحٍ مني، لأنّهُ رفض كشف تفاصيل تلك الواقعة، تجنباً لنشوب فتنة عشائرية واجتماعية.

وهذا نص حديثه:

كُنتُ جالِساً في خيمتنا بأحد مخيمات معتقل مطار بغداد، والمقاتلان كامل العزاوي وجاسم البو عبيدي جالسان بجانبي لحمايتي، يُحدثاني عن وجود عناصر التنظيم في المخيم، وعن خطورة الموقف، وحولنا مجموعة معتقلين من مختلف مناطق العراق، ففوجئت بالمعتقل المدعو (أ.هـ) وهو يدخل إلى خيمتنا، والمعتقل (أ.هـ) هذا كان من العناصر المعروفة بانتمائها لتنظيم القاعدة وتشددها، توقعت منه إلقاء السلام على أقل تقدير، على اعتبار إننا أبناء مدينة واحدة، تربطنا علاقات اجتماعية وطيدة، علاوة على كوننا معتقلين لدى القوات الأمريكية، لكن توقعاتي سرعان ما خابت وتلاشت، إذ أمعن ذلك التكفيري النظر فيَّ جيداً، دون أن يلقي علينا السلام، نظرَ إلي والحقد يتطاير من عينيه، ثم خرج من الخيمةِ مُسرِعاً!.

بعد مرور دقائق معدودة على خروجه من خيمتنا، جاءني أحد معارفي، وهو السيد هاشم حسين الرضوان، من أهالي قرية شميط التابعة لناحية الزاب في كركوك، كان أحد أعضاء فروع حزب البعث قبل الاحتلال الأمريكي، وأحد الرجال المعروفين في مناطق الحويجة وغرب كركوك، جلس هذا الرجل بجانبي، وعلى الفور همس في إذني الكلمات الآتية:

لقد كشف عناصر التنظيم هويتك، وهم يعدون العدة للهجوم عليك أنت ومن معك، ربما بعد دقائق من الآن، أرجوك توجه إلى بوابة المخيم وأخبر القوات الأمريكية بخطورة الأمر لتنجو بنفسك، بخروجك من هذا المكان، علماً أني تربطني بك صلات قربى وصداقه، أرجوك تحرك فوراً، لا نريد أن نخسرك!.

قال هذه الكلمات بصوتٍ منخفض، وغادر مسرعاً على الفور.

بعد مضي حوالي عشر دقائق على التحذير الذي تلقيته من ذلك الرجل الشجاع والنبيل، والذي خاطر بحياته من أجل تحذيري، سمعنا أصوات العناصر التكفيرية وهي تهتف من داخل إحدى الخيم المجاورة لخيمتنا، كانوا يرددون بصوتٍ عالٍ:

(الله اكبر الله اكبر، أقتلوا عدو الله ورسوله، أقتلوا المقدم خطّاب، إنّهُ آمر فوج الكفر في الشرقاط، أقتلوا عدو الله ورسوله).

استمروا كذلك حتى ضج المخيم بصيحاتهم النابيةِ المقرفة، وأخذت بعض الخيم الأُخرى تردد هتافاتهم، شَمّرتُ عن ساعدي مستعداً للقتال، ووقفت متوثباً، لأُدافع عن نفسي، وعن جنودي الأوفياء أمام تلك الوحوش البشرية، قلت لنفسي أهلا بالموت، مرحباً بالموت بعزٍ وشرف!.

ولا بد لي أن أذكر الموقف البطولي لجنودي الذين كانوا بجانبي، فقد وقفوا وقفةً عبّرت عن شرف أهل الشرقاط وحميَّتهم، وكذلك عن شرف وبطولة كل الشرفاء والشجعان من العراقيين الأصلاء، حيث وضع كامل ضهره إزاء ضهري متلاصقاً، بينما وقف جاسم أمامي، وبدأوا مستعدين للموت دفاعاً عني، وعن أنفسهم، فاستمروا على هذه الحال، حتى طلبت منهم الخروج من خيمتنا باتجاه الطريق المؤدي إلى بوابة مخيم الاعتقال.

وقبل خروجنا من الخيمة، قلت للمقاتلين:

بوابة المخيم تبُعد عنّا حوالي 500م، يجب أن يكون انسحابنا نحوها انسحاباً منظماً وسريعاً، أنا في المقدمة، وأنت يا جاسم تكون على بعد مترين من خلفي، على جهة اليمين، وكامل يكون على بعد مترين من جهة اليسار، هرولوا مثلي ونفذوا ما أقول، وإن تعرضت لنا عناصر التنظيم في الطريق، فهاجموهم على الفور، استخدموا كل ما لديكم من قوة للدفاع عن أنفسكم، فالهجوم خير وسيلة للدفاع، نحنُ على حق، وهُّم على باطل.

قالوا بلسانٍ واحد: صار سيدي.

أستغرق هذا الإيجاز أقل من دقيقة، فانطلقنا نحو البوابة مهرولين حتى وصلناها بفترةٍ وجيزةٍ جداً.

وحين أشرفنا على بوابة المخيم، طلبت من المقاتلين مناداة المترجم، بأعلى صوت.

جاء المترجم على الفور مستفسراً عن سبب هذه الهتافات، فأبلغه المقاتل كامل العزاوي أن المقدم خطّاب موجود معنا، وهو آمر فوج في الجيش العراقي، وأن أحد عناصر القاعدة تعرف عليه، وهم يهتفون للتحريض على قتله، ويجب إخراجه من هذا المخيم فوراً.

ركض المترجم إلى جنود الجيش الأمريكي ليبلغهم بالتفاصيل، وما هي إلّا دقائق حتى هرع الأمريكان نحونا، ففتحوا بوابة المخيم ليخرجوني، فهمت من المترجم أنهم قرروا السماح بخروجي أنا فقط، وأن على المقاتلين البقاء داخل المخيم، فرفضت المغادرة دون خروج جنودي معي، وبعد دقائق من النقاش مع المترجم، وافق الجنود الأمريكان على طلبي تحت تأثير الضجة التي أحدثتها هتافات عناصر التنظيم، فخرجنا جميعاً إلى زنزانة حديدية محكمة في وسط مخيمات المعتقل، وخلال فترة ثلاثة عشر يوم، نُقلت جواً إلى معتقل بوكا في محافظة البصرة، وقبل ذلك ببضعة أيام، أُفرج عن المقاتلين الابطال كامل وجاسم.

أبلغني المقاتل كامل العزاوي بعد مغادرتنا للمخيم، أن عناصر التنظيم أحرقت ملابسنا، وبقية ممتلكاتنا التي كانت بحوزتنا حينذاك، فور خروجنا من المخيم.

معتقل بوكا

نجا الشيخ خطّاب من شرور مجرمي تنظيم القاعدة بأعجوبة، حيث لم يفصله عن محاولة الاغتيال على أيديهم الآثمةِ سوى دقائق معدودة، فنُقِل إلى معتقل بوكا في محافظة البصرة، حيث أمضى هناك حوالي أحد عشر شهراً، تحت ظروف الاعتقال الظالمة والقاسية، ولعلَ من أشدها فقدان الحرية، إلى جانب صعوبة البعد عن الأهل والمنطقة، لشخصيةِ اعتادت على الحرية، وعلى التواصل مع أطراف المجتمع، مثل شخصية الشيخ خطّاب، بالإضافة إلى ظروف الحياة التي فرضتها القوات الأمريكية على المعتقلين، والتي تتنافى مع ثقافة وطبائع المجتمع العراقي، منها على سبيل المثال لا الحصر، الوقوف في طوابير للحصول على الطعام، الدخول إلى الحمامات والنوم في أوقات محددة، الحرب النفسية من خلال إلصاق تهم باطلة بالمعتقلين، وغيرها الكثير....

لحسن الحظ، تمكن أحد اخوة الشيخ خطّاب المعتقلين في بوكا، وهو عبد السلام، من ضمه إلى مخيم الاعتقال الذي كان فيه، وهو المخيم رقم 8، وذلك بعد أن قدم طلباً رسمياً لقوات الاحتلال، أخبرهم فيه أن أخاه موجود في المعتقل، وإنّهُ يرغب بنقله إلى مخيم رقم 8، حيث يخضع هو للاحتجاز.

أنقل لكم حديث السيد عبد السلام صالح الضامن حول فترة وجود الشيخ خطّاب في معتقل بوكا [1]:

(1) المقابلة الشخصية التي أجراها الباحث مع السيد عبد السلام صالح ضامن شقيق الشيخ خطّاب، وهو من مواليد عام 1972م، أُجريت المقابلة بتاريخ 6/ 10/ 2022م

لحُسن حظي، تم احتجازي في المخيم رقم 8 بمعتقل بوكا، وهو مخيم فيه نسبة قليلة من عناصر القاعدة، مقابل نسبة كبيرة من معتقلي حزب البعث وعناصر المقاومة غير التكفيرية.

حرِصَت أمي على زيارتي هناك وبانتظام، ومن خلال زياراتها كنت اطمئن على أخي الشيخ خطّاب وعلى عائلتي، وقبل إحدى الزيارات، انتابني شعور بأن القوات الأمريكية، وبما تملكه من جواسيس وتكنولوجيا في مجالات الهاتف النقال سوف تتمكن من اعتقال أخي الشيخ خطّاب عاجلاً أم آجل، لذلك قررت أن أُبلغه عبر والدتي بضرورة مغادرته للعراق، وفي أقرب فرصة ممكنة، حرِصاً مني عليه من ظروف الاعتقال القاهرة.

وفي الزيارة المقبلة، قلت لأمي:

أمي، يجب على أخي الشيخ خطّاب السفر خارج العراق، القوات الأمريكية تتعقبه، ولديها الكثير من الجواسيس، وإن بقي في العراق سوف تعتقله لا محاله، قولي له إنّهُ لا محلل ولا ما هوب إذا بقى بالعراق، لازم يسافر (إني لن أُسامحه إذا بقي في العراق، عليه السفر فوراً، لتجنب الوقوع في قبضة القوات الأمريكية).

تلقت والدتي الرسالة، وعدتني بنقلها له، وغادرت.

بعد حوالي ستة عشرة يوم، وبينما كنت جالساً في خيمتي وقت الظهيرة، وتحديداً بعد الساعة الواحدة ظهراً، جاءني معتقل من أهالي بيجي، وقال لي الآتي:

أخوك مقدم خطّاب موجود في بوكا، هذا رقم اعتقاله، إن كنت ترغب بنقله إلى مخيمنا، فعليك أن تقدم طلباً للقوات الأمريكية، وقبل ذلك، يجب أن تستحصل موافقة قيادة المخيم، أنت تعرفهم، وعليك تنسيق الأمر معهم بالحال!.

أدهشني وصدمني هذا الخبر، فكيف يُعقل أن أدعو اخي الشيخ خطّاب لمغادرة العراق، قبل أقل من ثلاثة اسابيع، ويكون الآن معتقلاً معي في بوكا!؟.

وعلى آيةِ حال، استسلمت لخبر اعتقال أخي، فعندي رقم اعتقاله، وهو أمر لا يحتمل الخطأ لدى القوات الأمريكية.

كان للمخيم الثامن، في معتقل بوكا قيادة، ومحكمة، شأنه شأن المخيمات الأخرى، وحمداً لله أن قيادة هذا المخيم كانت تحت سيطرة القوميين، وليس التكفيريين، فهم ممن يمكن التفاهم معهم، خلافاً للتكفيريين في بعض المخيمات الأخرى:

توجهت على الفور إلى خيمة قيادة المخيم، ألقيت عليهم السلام، وقلت:

أخي المقدم الشيخ خطّاب وصل إلى بوكا، وأرغبُ بنقله إلى مخيمنا، فما هو رأيكم؟.

ساد الهدوء خيمة قيادة المخيم لدقائق معدودة، ثم تقدم المعتقل رائد مال الله طوقان، وهو من أهالي قصبة الشرقاط، وقال:

أعترض على نقل مقدم خطّاب إلى مخيمنا، مقدم خطّاب ضربني في فوج الشرقاط، بيننا ثأر ويجب تصفيته!.

لم أجب على كلام المعتقل رائد، وانتظرت مداخلات الآخرين.

وعلى الفور، تدخل المعتقل غالب الرشيد، وهو من أهالي بيجي، ولديه أقارب في قصبة الشرقاط، فقال رداً على ما قاله المعتقل رائد:

أذخر يا ولد (أبعد نظرك)، شلون ما تقبل يجي مقدم خطّاب؟، مقدم خطّاب رجل شجاع وكريم ووطني، وأعلم أن مقدم خطّاب يستطيع تفجير بيتك فوق رؤوس أهلك!، بينما هو معتقل هنا في بوكا، هذا الكلام غير مقبول، مقدم خطّاب يُنقل إلى مُخيمنا وحياه الله.

كان لكلام السيد غالب الرشيد ثُقلهُ ووزنهُ في قيادة المخيم، فهو علاوة على كونه شخصية اجتماعية محترمة ومؤثره، كان أحد اعضاء فروع حزب البعث في محافظة صلاح الدين قبل الاحتلال الأمريكي، وكان آميناً لسر شعبة حزب البعث في مدينة بيجي.

وبالفعل تم نقل الشيخ خطّاب إلى المخيم رقم 8 بعد ثلاثة أيام من تاريخ وصوله إلى معتقل بوكا، وبهذا أجتمع الشيخ خطّاب مع أخيه عبد السلام في المعتقل، الأمر الذي خفف عنهُ أحد الآثار النفسية للاعتقال، وهو أثر العزلة عن الأهل والأصدقاء.

مارس الشيخ خطّاب دوره الاجتماعي المعهود داخل السجن، فقد عمل على إقامة مجالس سمر ليلية، يقرأ المعتقلون الشعر للمعتقلين فيها، وهو المعروف بحُبّه للشعر والأدب، بالإضافة إلى حِرصه على إصلاح ذات البين، عندما تحصل خلافات أو مشاكل بين المعتقلين.

قصيدة شعبية قالها الشيخ خطّاب مخاطباً إحدى أخواته من معتقل بوكا عام 2008م، رداً منه على رسالة اطمئنان وسؤال عن أحواله في المعتقل:

تدرين أخوتچ فخر في بوكه رفعة راس. (تعلمين أن إخوتك محل فخر ورفعة رأس في بوكا).

بأربع سنين المضن حاموا اعراض الناس. (فقد حمّوا أعراض الناس خلال السنوات الأربع الماضية).

التاريخ إلهم كتب تشهد أشراف الناس. (لقد كتب لهم التأريخ ويشهد بذلك الشرفاء من الناس).

السلطان جدنا جبر نسل الصحابي عمر. (جدنا السلطان جبر بن كتوم، وهو من ذرية الصحابي عمرو بن معد يكرب الزبيدي).

مفدين بارواحنا نحمل معاني عمر. (نفدي الوطن بأرواحنا، ونحمل قيم ومبادئ الخليفة عمر بن الخطّاب).

صدگونا ما ننكسر شما طال بينا العُمر. (صدقونا لن ننكسر مهما طال بتا العُمر).

والشرگاط هي أمنا صدگونا ما تنداس. (مدينة الشرقاط هي أُمّنا، صدقونا لن يتمكن منها الأعداء).

أنشد الشيخ خطّاب هذه القصيدة الشعبية من داخل المخيم رقم 8 في معتقل بوكا، أنشدها وهو يواجه أصعب الظروف التي ممكن للمرء تحملها، وهي ظروف الأسر والاعتقال لدى مُحتل أجنبي، وقد عبر الشيخ خطّاب من خلال أبيات هذه القصيدة عما يجول في خاطره خلال تلك الظروف العصيبة، من مشاعرِ فخرٍ واعتزاز، فخرٍ بنفسه وبإخوتهِ ومقاتليه، حيث تصدوا لقوى الإرهاب في مدينة الشرقاط، فحققوا النصر على الإرهاب، ونشروا السلام والمحبة بين أبناءها، ونجحوا في حماية الأهالي من شرور الإرهابيين والمجرمين، عِبر عملهم في قوات الشرطة والجيش، ولمدة أربع سنوات (2003م-2007م)،.

أفصح الشيخ خطّاب في قصيدته الشعبية الشهيرة، عن اعتزازهِ بتأريخ أجدادهِ العِظام، وهم السلطان جبر بن مكتوم، جد قبيلة الجبور، والصحابي الشهير عمرو بن معد يكرب الزبيدي، الرمز الأكبر للقبائل الزبيدية العربية.

كما عَبّر الشيخ خطّاب في أحد أبيات هذه القصيدة عن استعدادهِ للتضحية بروحه في سبيل أمن وسلامة وكرامة مجتمعه، وعن سيره على نهج الحق والعدل الذي أشتهر به الخليفة عمر بن الخطّاب.

وبالرغم من كل التحديات والمصاعب التي كان يقاسيها في السجن، لم تغِب مدينة الشرقاط عن مخيلة الشيخ خطّاب، فقد وصفها بالأم، تعبيراً عن حُبه وتقديرِه وإجلاله لوطنهِ الأصغر، وهي مدينة الشرقاط، حيث نشأ وترعرع ودرس وقاتل، كجزء من حُبه وتقديره وإجلاله لوطنه الأكبر، وهو العراق.

كما كشفت تلك القصيدة عن الهمة العالية، والإرادة الصلبة، والمعنويات المرتفعة للشيخ خطّاب داخل المعتقل، فيقول في أحد أبياتها أن عزيمتهُ لن تنكسر، وإرادتهُ لن تلين، مهما طالت أيام الاعتقال، ومهما طال العمر بعد الاعتقال، وهذا ما أثبتهُ الشيخ خطّاب فعلاً؛ حتى أخر لحظة من حياته.

وأخيراً، أختتم الشيخ خطّاب قصيدته برسالة اطمئنان، بعثها من معتقل بوكا لجميع سكان الشرقاط، فحواها أن مدينتهم لن تدوسها العناصر الإرهابية والتكفيرية، مهما كلف الأمر.

صدق الشيخ خطّاب في ما وعد به أهل الشرقاط، فالشرقاط وغيرها من مدن العراق ما كانت لتتعرض للاحتلال، لو قاتل أبناءها الشرفاء والشجعان في سبيل حمايتها، ولو توفرت لهم أسباب الانتصار من عدة وعدد!.

ونتيجةٍ للفساد، والتآمر الكبير الذي تعرض له الشعب العراقي من قوى الداخل والخارج، سقطت أجزاء واسعةٌ من أرض العراق بيد العصابات الإرهابية الظلامية، بضمنها مدينة الشرقاط، فديست ودُنِست عام 2014م.

لكن الشرقاط وغيرها من المدن والقُرى التي أحتلتها العناصر الإرهابية والتكفيرية عام 2014م، عادت إلى أحضان الوطن، بجهود وتضحيات أهلها العراقيين من كافة أرجاء العراق، وعاد أهلها الكرام الطيبين المتحابين، وعادت مضايفهم ومزارعهم وأسواقهم كما كانت قبل احتلال التنظيم، بل بشكل أفضل وأجمل، ولن تهزهم بعد تلك التجربة المريرة، النعرات الطائفية والإرهابية، التي أشعل فتيلها أعداء العراق من الداخل والخارج.

أخلاق الشيخ خطّاب داخل المعتقل

حدثني السيد عبد السلام صالح الضامن، عن سيرة الشيخ خطّاب الضامن داخل **معتقل بوكا قائلاً:**

كان الشيخ خطّاب أخي الأكبر، وهو بالنسبة لي بمثابة الأب بعد رحيل والدي، فقد قدم لي الكثير من الدعم المعنوي والمادي، منذ طفولتي، وتعلمت منّهُ المزيد من الأخلاق العالية، والقيم الإنسانية الرفيعة، لكنني تفاجأت بما كان يحمله من أخلاق عظيمة، لم أعرفها قبل مكوثنا في المعتقل سوياً، منها تقديره الشديد، واحترامه للآخرين، وحرصه على صيانه مكانتهم الإنسانية وكرامتهم، ومن الأمثلة على ذلك؛ فالمعروف في معتقل بوكا أن يخدم الرجل أباه أو عمه، أو أخاه الذي يكبره سناً، ومنها على سبيل المثال أن يغسل ملابسه، احتراماً وتقديراً، لكنني عندما حاولت غسل ملابسه، غضب مني غضباً شديداً وقال:

أنت ممنوع من لمس ملابسي مهما كانت الظروف، وبالرغم من محاولاتي المتكررة، رفض وأصر على منعي من غسل ملابسه، وحرص على غسلها في أوقات متأخرة من الليل، عندما يكون الجميع نيام.

أضف إلى ذلك، إنني اكتشفت خلال فترة الاعتقال ضميره المُتقد، وإنسانيتهِ الشديدة، وفي هذا المجال، أذكر إنّهُ كان يخاطبني دائماً ويقول:

أنت هنا بسببي أنا، ما ذنبك؟ ما ذنب أطفالك؟.

كُنت أُجامله وأقول إنني بأحسن حال، وإنني قد تكيفت مع الأوضاع في المعتقل، وليس لديَّ أي مشكلة في البقاء هنا، وأطلب مِنّه أن لا يهتم لي ابداً، لكنّه كان دائماً ما يُجيبني، بأنّهُ السبب في ما حصل لي، وما حصل لأخينا عبدالله، والدموع تنهمر من عينيه.

إنسانية الشيخ خطّاب داخل المعتقل

أحتفظ الشيخ خطّاب بأخلاقه ومشاعِره الإنسانية النبيلة داخل المعتقل، بالرغم من قساوة ظروف الاعتقال، وفي هذا المجال، حدثني أخوه السيد عبد السلام صالح الضامن قائلاً:

في معتقل بوكا، تحرص القوات الأمريكية على أن لا تموت من الجوع، عندما تكون معتقلاً لديها، كما تحرص على أن لا تشبع، وهي في ذلك تُبقيك في حالة مستمرة بين الجوع وعدم الشبع، وبشكل يومي، الأمر الذي يؤدي إلى انخفاض أوزان المعتقلين، وبشكل سريع، ولتوضيح ذلك، أذكرُ أن وجبة الفطور لكل معتقل كانت تتضمن قطعتان صغيرتان من مثلثات الجبن، ورغيفان صغيران من الخبز، صغيران بقطر 3 انج تقريباً، مع كوب صغير من الشاي، وهي كمية قليلة من الطعام، لا تتناسب مع حاجة الجسم للغذاء، وخصوصاً في وجبة الفطور الرئيسية.

أما بالنسبة لوجبة الغداء، فيحصل خلالها كل معتقل على كوب صغير من الرز، ومِثلهُ من المرّق، وقطعة صغيرة من لحم الدجاج أو البقر، نفس الأمر ينطبق على وجبة العشاء، مع ضرورة الإشارة إلى أن لحم البقر كان مُقرِفاً، وقليلون جداً من كانوا يستطيعون تناوله، إذ أن نوع اللحم هذا كان مجمداً لفترات طويله، علاوة على كونه يأتي من عجول كبيرة الحجم، لذلك كانت حالة الجوع شُبه مستمرة بين المعتقلين، بالرغم من انخفاض قدرة المعتقلين على تناول الطعام، نتيجةً لتقلص أحجام مِعدهم، بسبب قلة الطعام.

وعلى أيةِ حال، ففي صباح اليوم الثاني لوصول اخي الشيخ خطّاب إلى المخيم رقم 8، أخذنا دورنا في الطابور لتسلم وجبة الفطور، تسلمنا وجباتنا ووقفنا جانباً، تمهيداً للتوجه نحو خيمتنا، في تلك الأثناء، لاحظ الشيخ خطّاب أحد المعتقلين وهو يطوف على المعتقلين

الآخرين، ويتوسلهم كي يمنحوه مثلثات الجبن خاصتهم، سألني الشيخ خطّاب بعد أن شاهد تصرف ذلك المعتقل مستغرباً:

شنو موضوع هذا الرجال؟ (ما الذي يقوم به هذا الرجل؟).

قلت: هذا الرجل يُحب الجبن، وكما ترى حصة الفرد اليومية هي قطعتين صغيرتين من مثلثات الجبن فقط، وهي لا تكفيه، لذلك يطلب من المعتقلين أن يعطوه حصصهم، ويكرر ما قام به الآن كل يوم، إنّهُ أمرٌ طبيعي بالنسبة لنا.

تألم الشيخ خطّاب كثيراً للحال التي وصل اليها ذلك الرجل بسبب ظروف الاعتقال، وتعاطفَ معهُ كثيراً، فما كان مِنهُ إلّا أن ناداه على الفور، فأعطاه حصته من مثلثات الجبن، وقال لهُ بعدها:

حرمتُ على نفسي مثلثات الجبن في معتقل بوكا، حِصتي لك، سوف أسلمها لك صباح كل يوم!.

فَرِح الرجل بسماع هذا الخبر الذي ضمن له مثلثين إضافيين من الجبن، وبشكل يومي، فاستمر بالحصول على تلك الحصة من مثلثات الجبن حتى آخر يوم قضاه الشيخ خطّاب في بوكا، وبالفعل لم يتناول الشيخ خطّاب الجبن مطلقاً خلال فترة مكوثه في المعتقل، بالرغم من محاولاتي لمنحهِ جزء من حصتي، لكنه أصر على الرفض، وأكد أنّهُ أقسم بأن لا يتناول الجبن طوال فترة بقائه في ذلك السجن الرهيب.

التحرر من سجون الاحتلال الأمريكي

أطلقت القوات الأمريكية سراح الشيخ خطّاب الضامن، بتاريخ الثاني والعشرين من تموز / يوليو عام 2008م، وذلك بعد حوالي أحد عشر شهراً قضاها في سجون الاحتلال الأمريكي الظالم.

أنتشر خبر إطلاق سراحه في مدينة الشرقاط ومحيطها قبل وصوله إليها، فعم الفرح أرجاء المدينة ومحيطها، وأقام شبابها وشيوخها تجمعاتٍ على طريق استقباله من معبر نهر دجلة شمال مركز المدينة، مروراً بقرية بعاجة وقرية التل إلى حيث دارهُ ومضيفِه.

كنت حاضِراً عند وصول العبارة التي أقلتهُ مع سيارته من قرية الهيچل شرق الشرقاط إلى قرية بعاجة، عِبر نهر دجلة، كان واقفاً على سطح العبارة، ينظُرُ إلى جموع المستقبلين ويلوح لهم بيده اليُمنى.

نظرتُ إليه عن قرب، فبدا نحيفاً بشكل مُلفت للنظر، إذ خسِر أكثر من 35 كغم من وزنه خلال فترة الاعتقال، كان يرتدي بدلةً رسميةٍ زرقاء، والبياض غطى شعر رأسه بشكل شبه كامل!، مظهره عبر عن الآثار النفسية والبدنية التي تركتها أيام الاعتقال الطويلة والثقيلة على رجُلٍ مِثله.

الشيخ خطّاب خلال الدقائق الأولى من وصولة إلى الشرقاط على عبارة في نهر دجلة عام 2008م.



وحال وصول العبارة إلى الشاطئ، بدأ الجميع بالبكاء، الدموع وحدها كانت اللغة التي تمكنت من ترجمة ما جاشت به نفوس الحاضرين، عبّرت دموعهم عن مشاعر الفرح والأسى معاً، الفرح بعودة قائد المدينة وفارسها، قائدها الشجاع، وفارسها القوي الأمين، الذي زرَّع الأمل ونشر الحُب في ربوعها بعد كارثة الاحتلال وانهيار الدولة في ربيع 2003م، القائد الذي عبأ طاقات المدينة للوقوف بوجه قوى النهب والتخريب، والشيخ الذي قاد شبابها وشيوخها للوقوف بوجه قِوى الإرهاب التكفيري من خلال قوة الأمن والمتابعة، وقوة الفوج الخامس خلال الفترة الممتدة من عام 2003م حتى عام 2007م.

عَرَفَ أهل الشرقاط المعني الحقيقي للأسى بعدما قاسته مدينتهم خلال فترة غياب الشيخ خطّاب وسِجنِه، حيث تم نقل الفوج الخامس إلى كركوك، فأضطر معظم المقاتلين لترك الفوج قبل أن يندثر ويتلاشى حتى وقت كتابة هذه السطور، فسيطرت قوى الإرهاب على المدينة، بعد أن أوكلت عملية حماية الشرقاط بعد عام 2007م لفوجٍ آخر، جميع ضباطه ومقاتليه من خارج المدينة، لا يعرفون تقاليد المدينة وثقافتها، ويعتقدون واهمين أن جميع سكانها إرهابيين، فكانت النتيجة تدهور الأمن، وقتل المزيد من الأبرياء.

بعد أن وصل الشيخ خطّاب إلى دارهِ في قرية التل، على رأس موكبٍ مهيب، ضم ما لا يقل عن مئة سيارة، غصت حديقة منزله ومحيطها بالمئات من الشباب، والأطفال والشيوخ والنساء، جاؤوا معلنين عن وفائهم له، وفرحهم الغامر بتحريره وعودته، وعن عظيم اعتزازهم بشخصيته التي أثبتت حبها ووفائها لهم ولمدينتهم، بل للعراق كله، وسط إطلاقات نارية من الشباب، وهتافات وأهازيج شارك فيها الشيوخ والرجال والأطفال، وزغاريدٍ للنساء، كان موقفاً عظيماً، عبر عن حاجة الجماهير الدائمةِ لقائدٍ تثقُ بِه، وتستأمنهُ على حاضرها ومستقبلها، فأعلنت عن فرحها العارم بتحرره وعودته إلى مدينة الشرقاط.

بعد أن صافح الشيخ خطّاب جميع الحاضرين، وبالرغم من إرهاقه الشديد، نتيجة لظروف الاعتقال التي هدت جسده وأنهكت قواه، قرر أن يذهب فوراً لأداء واجب العزاء والمواساة لعوائل أصدقاءه وأقاربه، الذين توفوا خلال فترة اعتقاله، وبالرغم من إلحاح البعض على ضرورة تأجيل هذه الزيارات إلى ما بعد إتمام حفل الاستقبال، رفض الشيخ خطّاب البقاء في داره مع جموع المستقبلين والمحتفين، وأصر على البدء في أداء واجبات العزاء فوراً، ودون تأخير، في تعبيرٍ واضحٍ مِنهُ عن مدى وفاءه واعتزازه برِفاقه وأقاربه الذين قضوا خلال فترة غيابه.

طلب مني الشيخ خطّاب شخصياً ان أُرافقه في رحلة واجبات العزاء، فانطلقنا بموكبٍ أصغر نحو مركز قصبة الشرقاط، وقُرى بعاجة والخصم والنمل لهذا الغرض، ومن بين العوائل التي زرناها في ذلك اليوم، عائلة علي حسين علي الرملاوي في منطقة القصبة، إذ قُتِل على يد تنظيم القاعدة الإرهابي قبل حوالي شهر ونصف من إطلاق سراح الشيخ خطاب، وعائلة المقدم ضياء الهداش في قرية الخصم، وهو أحد آمري سرايا الفوج الخامس الأبطال، توفي خلال فترة اعتقال الشيخ خطّاب، بالإضافة إلى عائلة خالته التي توفيت في قرية النمل خلال نفس الفترة، إلى جانب مجموعة من العائلات الأخرى، عدنا بعدها إلى منزله حيث نُصِبت السرادق وأُقيمت الولائم لاستقبال المهنئين بعودته، من معظم مدن العراق، فاستمرت مراسم التهنئة واستقبال الضيوف لأكثر من أسبوعين.

التفرغ للشؤون العشائرية والاجتماعية

بعد أن تحرر الشيخ خطّاب من سجون القوات الأمريكية، أُحيل إلى التقاعد من خدمة الجيش العراقي بناءً على طلبه، أُحيل إلى التقاعد وهو بسن السادسة والأربعون، فتفرغ تفرغاً تاماً للشؤون العشائرية والاجتماعية، حيث لعِبَ دوراً بارزاً ومتميزاً في حل النزاعات الاجتماعية، وعمل على حل المشاكل ووئد الفتن، فأصبح الملجأ الأول والأخير لكل من يشعر بالظلم أو الغبن في الشرقاط ومحيطها، كما صار وجهةً للمتخاصمين، ليقوم بالتدخل فور عِلمه بحدوث مشكلة أو نزاع، مستعيناً بحكمته وخبرته، ومستمداً القوة من قدرته على التضحية في سبيل الإصلاح، لتكون نتيجة كل نزاع يصل إليه هو عقد الصلح بين الأطراف المتنازعة بسرعة شديدة، وغالباً ما يتم الصلح في نفس ليلة وقوعه، حِرصاً منه على عدم تطور الأمور إلى ما لا يحمد عقباها، فيكاد لا يمر يوم دون أن تجتمع الأطراف المتخاصمة على وجبات غداء أو عشاء في مضيفه، لأغراض التصالح والتراضِ.

مضيف الشيخ خطاب في مدينة الشرقاط

انشأ الشيخ خطّاب مضيف كبير نسبياً، بجوار داره في قرية التل بالشرقاط، وذلك فور خروجه من المعتقل، وعمل على تجهيزه بكل ما يجعلهُ مناسباً لاستقبال الضيوف وإكرامهم، من حيث السعةِ في البناء، والتجهيز بالأثاث والمفروشات، ومتطلبات الضيافة، من أدوات الطبخ وتقديم الطعام، فضلاً عن أدوات تهيئة القهوة العربية والشاي، وقد خصص جزءً كبيراً من وقته لإدارة هذا المضيف، ليستقبل الزوار والضيوف من الصباح حتى المساء، ويُقيم الولائم بشكل مستمر، ويعقد جلسات التفاهم والصلح بين المختلفين والمتخاصمين، ويقصده الأدباء والشعراء الشعبيين، ليلقوا ما بجعبهم من شعرٍ ونثر، ويقُصّوا الطرائفَ الجميلة، والأحاديث النادرة، ورائحه البُن والهيل لا تنفك من تعطير أجواء المضيف، وتسودهُ مشاعرٌ ملؤها المحبة والسلام، بينما هو واقفٌ بين أيدي ضيوفه، يستقبلُ القادمين، ويودع المغادرين، بطلته البهيةٍ، وابتسامتهِ المعهودة، بعد أن يشرف بنفسه على واجبات الضيافة، مستعيناً بأبنائه، وبعض إخوته، وأبناء إخوته وأخواته.

الشيخ خطاب خلال إحدى الدعوات التي أقامها في مضيفه عام 2013م.



الشيخ خطاب يواصل الدراسة الجامعية بعد خروجه من المعتقل

كان الشيخ خطّاب مُحِباً للعلم سائراً في طريقه، داعماً ومشجعاً لكل الدارسين، سواءً كانوا من أقاربه أو من أصدقاءه أو معارفه، ولهُ في هذا المعترك مواقف كثيرة يرويها من عرفوه وجربوا كرم يدهِ ولِسانه، فترك فيهم آثاراً ساهمت في دفع عجلة تعليمهم ودراستهم إلى الأمام.

أروي لكم شهادة أحد مقاتلي الفوج الخامس حول دعم الشيخ خطاب له ولمجموعة من المقاتلين في سبيل إكمال دراستهم الجامعية خلال عملهم كمنتسبين في الفوج [1]:

" تطوعت في صفوف الفوج الخامس عندما تم تأسيسه بقيادة الشيخ المقدم خطاب نهاية عام 2004م، تخرجت من الدراسة الاعدادية خلال عملي في الفوج، وتم قبولي في جامعة تكريت كلية التربية للعام الدراسي 2005م-2006م، وكان معي مجموعة من المقاتلين تم قبولهم للدراسة في جامعات عراقية مختلفة، فكنا أمام خيارين لا ثالث لهما، إما أن نستمر بعملنا في الفوج ونترك الدراسة في سبيل الحفاظ على رواتبنا التي كانت مرتفعة مقارنة بالرواتب المدنية حينها، أو أن نترك الفوج ونلتحق بجامعاتنا، الأمر الذي كاد ليؤثر سلباً على الاوضاع المعاشية لنا ولعوائلنا، كُنّا تسعة مقاتلين وطلاب في نفس الوقت، فقررت مفاتحة آمر الفوج الشيخ خطاب حول إمكانية منحنا إجازات متقطعة تساعدنا في إكمال دراستنا، فتوجهت إلى مكتب السيد الآمر، وبعد أداءي التحية العسكرية له، **حصل الآتي:**

آمر الفوج: أهلاً وسهي أبني، تفضل ماذا تحتاج.

(1) المقابلة الشخصية التي أجراها الباحث مع المقاتل السابق احمد محمد خلف عبد الكريم، وهو من مواليد عام 1986م، يعمل حالياً بصفة مدير مدرسة متوسطة، أُجريت المقابلة بتاريخ 2/ 12/ 2022م.

قلت: سيدي؛ جئتك بالنيابة عن نفسي وعن ثمانية مقاتلين يقفون الآن خارج المكتب، إذ تم قبولنا للدراسة في الجامعة، فحبذا لو تمنحنا إجازات متقطعة كي نستطيع إكمال دراستنا الجامعية.

الشيخ خطاب بعد أن ظهرت مظاهر الفرح والاستبشار على وجهه: أتني بزملائك على الفور.

وبعد أن دخل المقاتلين وأدوا التحية العسكرية، سألهم عن أسمائهم وعناوينهم وعن الجامعات التي تم قبولهم فيها وعن تخصصاتهم، ثم قال لهم الآتي:

ما نوع الإجازات التي تحتاجونها؟.

قلت (بالنيابة عنهم): سيدي، نحتاج أن نمضي خمسة أيام في الدراسة، ويومان نعمل خلالها في الفوج من كل أسبوع.

الشيخ خطاب: ما هو تاريخ هذا اليوم؟.

قلت: اليوم هو الأول من تشرين الثاني/ نوفمبر 2005م.

الشيخ خطاب: تذهبون إلى جامعاتكم اعتباراً من يوم الغد، على أن تلتحقوا بالفوج في بداية الشهر السابع من العام القادم بعد أن تنهوا سنتكم الدراسية، وسوف لن يُستقطع أي مبلغ من رواتبكم خلال تفرغكم للدراسة، أسال الله أن يوفقكم جميعاً في خدمة مدينتكم الشرقاط وبلدكم العراق.

كان تعاطف الشيخ خطاب معنا في سبيل إكمال دراستنا فوق ما توقعناه منه، بالرغم من معرفتنا بكرمه ودعمه للعلم وطالبيه، حيث كنا نضن أنهُ سيوافق على تفريغنا لخمسة أيام من كل أسبوع فقط وكما طلبنا، لكنه فرغنا تفريغاً تاماً للدراسة مع ضمان حصولنا على كامل رواتبنا، وبالفعل أستمرينا على هذا الحال حتى تم اعتقال الشيخ خطاب من قبل القوات

الامريكية مع الأسف الشديد، فحدث أن تم استقطاع نصف رواتبنا من قبل الآمر الذي تم تكليفه بقيادة الفوج خلفاً للشيخ خطاب بعد اعتقاله ".

وبالنسبة لي، فقد حظيتُ بدعمه الشديد والمتواصل خلال معظم مراحل دراستي، وخصوصاً خلال مرحلة دراستي للدبلوم العالي والماجستير خارج العراق، حيث كان دائماً ما يشجعني ويشدُ على يدي، ويقولُ لي أن طلب العلم غايةٌ مُثلى، وفي سبيلها يجب على الإنسان التضحية والصبر والمثابرة، وكان دائماً ما يزور أُسرتي برفقة عائلته خلال فترات سفري، كما أعتادَ أن يُرسلُ لهم المؤن والفواكه خلال فترات غيابي، حرِصاً مِنهُ على إدامة أواصر صلة الرحم والمحبة بيننا.

كما كان دائم التواصل معي خلال فترات إقامتي خارج العراق للدراسة، مُشجِعاً ومبارِكاً لجهودي من جهة، وحريصاً على تلبية كل ما أحتاجه خلال سفري، وما تحتاجه أُسرتي خلال غيابي، وفي نهاية معظم سفراتي، كان يحرص على إرسال سيارة لتستقبلني حال وصولي إلى مطار السليمانية، بعد عودتي من السفر.

ولا أُنكر أن عطاءه المعنوي والمادي الغزير، كان لهُ الأثر الإيجابي الشديد على نفسي، فكنت أشعر أنّهُ بمثابةِ ابٍ حنون، وأخٍ وصديقٍ وفي وكريم.

ألتحق الشيخ خطّاب بالدراسة المسائية في جامعة تكريت، كلية الآداب، قسم الإعلام، وقد أظهر تفوقاً منقطع النظير في الدراسة، إذ تراوحت تقديرات نجاحه بين جيد جداً وممتاز، فوصل إلى المرحلة الثالثة من الدراسة، خلال العام الدراسي 2015م-2016م، لكن الأقدار لم تُمهِلهُ حتى يتخرج من دراسته، فاختطفته أيادي الغدر والإرهاب الآثمة بتاريخ الثامن والعشرين من تشرين الثاني / نوفمبر عام 2015م.

الشيخ خطاب خلال دراسته في جامعة تكريت عام 2014م.



شباط / فبراير 2014م موقف إنساني ـ وطني جدير بالذكر

في إحدى ليالي شتاء 2014م، وعندما كانت الأوضاع الأمنية في مناطق شمال غرب العراق تمر بتدهورٍ شديد، تمهيداً لظهور ما يُسمى بتنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام، وسيطرته على معظم مدن شمال غرب العراق، جاءني إلى داري أحد أقاربي، وهو السيد خالد عبد الرحمن خضر الطوير[1]، وبعد أن جلس لبضع دقائق، حدثني أنّهُ سمِعَ عن موقفٍ كبير قام به الشيخ خطّاب، لكنّهُ لم يعرف كامل تفاصيله، غير أنّهُ سمع أن جماعة من أهل الجنوب، زاروا قرية الزوية مؤخراً، وأبلغوا بعض الشيوخ هناك عن هذا الموقف، وعبروا عن شكرهم وتقديرهم واعتزازهم لعشيرة الحوري بشكل عام، ولشخص الشيخ خطّاب بشكل خاص، فسألني السيد خالد إن كنت أعرف تفاصيل علني أخبره، وذلك لعلمه بقربي من الشيخ خطّاب، لكني لم أكن أعلم باي شيء عن ذلك الموقف، فشعرت بالحرج من السيد خالد، واعتذرت له، على أن أستفسر من الشيخ خطّاب في اقرب فرصة.

وبعد أيام قليلة، ألتقيت بالشيخ خطّاب خلال أداءنا لواجبات اجتماعية في الشرقاط، فدار بيننا الحديث الآتِ:

قلت: عمي، بلغني عن طريق أحد الأقارب ان أهل الزوية ذكروا له قيامك بموقف كبير مع جماعة من أهل الجنوب مؤخراً، هل هذا الخبر صحيح؟.

قال: نعم، هذا الخبر صحيح.

(1) المقابلة الشخصية التي أجراها الباحث مع السيد خالد عبد الرحمن خضر، وهو من مواليد عام 1983م، أُجريت المقابلة بتاريخ 28/ 10/ 2022م.

قلت: ولماذا لم تبلغنا عن تفاصيله؟، لأنني شعرت بالحرج قبل أيام عندما سألني أحد الأقارب عن التفاصيل.

قال: وماذا تعرف عن عمك؟، هل عمك من طراز الرجال الذين يمدحون أنفسهم؟.

شعرت بالخجل ازاء رده المتواضع، وقلت:

بالتأكيد لا، ولكن ممكن تحدثني عن تفاصيل الموضوع؟.

قال: نعم، وأستطرد قائلاً:

كنت عائداً بمفردي من دراستي المسائية في جامعة تكريت، مستقلاً سيارتي الـ(GMC)، كان الوقت ليلاً، والجو بارداً، وبينما أبطئت السرعة للاستدارة يميناً من الطريق العام نحو مفرق الشرقاط، شاهدت سيارة تاكسي صفراء اللون متوقفة على الجانب الأيسر من الطريق، باتجاه بغداد، ومن خلال ضوء سيارتي الساطع، شاهدت رجُل يرتدي عِقال عربي من طراز العُقل التي يرتديها أهل الجنوب، شعرت بالخطر على روح هذا الرجُل نتيجة لنشاط العناصر الإرهابية في الشارع العام بين صلاح الدين والموصل، وخلال هذا الوقت تحديداً، فقررت التوقف عنده لتقديم المساعدة.

أوقفت سيارتي بجانب سيارة التاكسي، نزلت والقيت التحية على الرجُل، كان جالساً على المقعد الأمامي الأيمن للسيارة، شاهدتهُ عن قرب، كان أسمر الوجه، تجاوز الخمسين من العمر، يرتدي عقالٍ وعباءه، ومن ملامحهِ وملابسهِ عرفتُ أنّهُ شيخٌ محترم.

قلت: الله يساعدك، خير ليش واكَفين هنا؟، ترى الأوضاع خطرة جداً بالمنطقة. (مرحباً، لماذا توقفتم في هذا المكان؟، الأوضاع الأمنية خطرة جداً في المنطقة؟).

قال: أهلا وسهلاً بويه، احنا جايين من الموصل والسيارة عطلت، والسايق راح يدور فيتر حتى يصلحها.

(أهلا وسهلاً أخي، نحن قادمون من الموصل، تعطلت سيارتنا، وذهب السائق طلباً لميكانيكي كي يصلحها).

قلت: تروحون معاي للشرگاط، تتعشون عدنا، والصبح ندبر الكم سيارة وتروحون لأهلكم.

(تذهبون معي إلى الشرقاط، تتناولون وجبه العشاء في دارنا، وفي الصباح نُهيئ لكم سيارة توصلكم إلى أهلكم).

قال: تسلم بويه، وضعنا ما يسمح، الي وياي ثلاث منتسبين انجرحو بالموصل من أيام، ومحد كدر ولا قبل يوديهم لأهلهم من خطورة الأوضاع، اضطريت اجي بنفسي حتى اخذهم.

(شكراً يا أخي، برفقتي ثلاثة مقاتلين من القوات الأمنية، جُرِحوا في الموصل، ولم يتمكن أحد من إيصالهم إلى ذويهم بسبب خطورة الأوضاع الأمنية، فاضطررت أنا للقدوم بنفسي لنقلهم).

نظرت من زجاج السيارة، فرأيت ثلاثة شبان على المقاعد الخلفية للسيارة، وآثار الجروح والضماد واضحة عليهم.

قلت: شيخ، بقائكم هنا خطر جداً على حياتكم، أنت شيخ من الجنوب ومعك ثلاثة جرحى من القوات الأمنية، سيارتكم عاطلة وسائقها غير موجود، والإرهابيين موجودين في كل مكان، سايم جاه الله عليكم (استحلفكم بالله)؛ إما تذهبون معي إلى الشرقاط، أو تأخذون سيارتي وتنطلقون بها فوراً إلى بغداد.

قال: شلون ناخذ سيارتك؟، منو يگول نگدر نرجعها الك؟.

(كيف نأخذ سيارتك؟، ومن يضمن لك أننا سنعيدها إليك؟).

قلت: تأخذون سيارتي ولا تعيدوها أشرف لي من أن تتعرضوا للقتل في الشرقاط، أنزلوا فوراً.

نزلوا على الفور من سيارة التاكسي، وركبوا سيارتي، قام الشيخ بقيادة سيارتي بعد أن دون رقم هاتفي المحمول على ورقة في جيبه، وبعد حوالي ساعه من انطلاقهم بسيارتي، أتصل بي الشيخ، فطلب مني عنوان لأحد معارفي في بغداد كي يسلم سيارتي له، فأعطيته عنوان أحد اصدقائي، وقام الشيخ بتسليم سيارتي لهُ في الصباح، وعادت سيارتي إلى الشرقاط بعد يومين، هذه كل تفاصيل الموضوع!.

كانت سيارة الشيخ خطّاب سيارة حديثة في ذلك الوقت، سعرها كان يصل إلى 30 ألف دولار، لكنه لم يتردد بالتضحية بها في سبيل إنقاذ أرواح أربعة عراقيين من مخالب تنظيم القاعدة الإرهابي.

الشيخ خطاب الضامن عام 2014م



تنظيم الدولة الإسلامية يحتل مدن شمال غرب العراق.

نجحت التنظيمات الإرهابية المختلفة في زيادة عملياتها المسلحة ضد قوات الأمن العراقية في مختلف مدن وقرى العراق منذ عام 2011م، وحتى منتصف عام 2014م، فيما يمكن تسميته بحرب استنزاف معنوي ومادي طويلة الأمد ضد القوات العراقية، الأمر الذي أدى إلى انخفاض الروح المعنوية لدى المقاتلين، نتيجةً لانتشار الفساد في بعض القيادات العسكرية، والنقص الكبير في الأسلحة والمعدات والتجهيزات والمعلومات، وخصوصاً في مجالات القوة الجوية والجهد الاستخباري، بالإضافة إلى عجز السلطات التنفيذية عن تنفيذ الأحكام القضائية بحق الإرهابيين المدانين، فضلاً عن نجاح التنظيمات الإرهابية في عمليات تهريب المئات من عناصرها من سجون وزارتي العدل والداخلية.

وبعد انسحاب القوات الأمريكية من العراق عام 2011م، بموجب اتفاقية الإطار الاستراتيجي التي وقعت بين الحكومة العراقية والادارة الأمريكية، تُرِكت القطعات العسكرية العراقية في مساحات شاسعة من أرض العراق فريسةً سهلة لانفجارات السيارات المفخخة، والعبوات الناسفة، والعمليات المسلحة التي كانت تشنها التنظيمات الإرهابية بشكل يومي، مستغلةً دعم مخابراتي دولي سهل لها الحصول على الآلاف من المقاتلين من الداخل والخارج، بالإضافة إلى الأموال والأسلحة والمتفجرات.

إلى جانب ذلك، ساعدت حالة الشعور بالحيف والمظلومية لدى فئات واسعة من سكان شمال غرب العراق هذا التنظيم في إدامة عملياته الإجرامية، نتيجة للقطيعة التي حصلت بين النظام السياسي والسكان، بسبب إقصاء عشرات الآلاف من العراقيين عن وظائفهم، وحرمانهم من رواتبهم وحقوقهم التقاعدية.

أضف إلى ذلك، الدور الذي لعبه الطابور الخامس في الترويج للتنظيمات الإرهابية، وتقديمها على أنها قوات ثوار جاءت لتحرير العراق من ظُلم النظام السياسي والاحتلال، فكانت النتيجة الانهيار المدوي الذي تعرضت له القوات العراقية في الحادي عشر من حزيران / يونيو 2014م، حيث تمكنت التنظيمات الإرهابية من السيطرة على محافظات نينوى والأنبار، وأجزاء من محافظات صلاح الدين وكركوك وديالى، بعد أن هربت معظم القيادات العسكرية من مواقعها، تاركةً خلفها المقاتلين مع أسلحتهم ومعداتهم، تنفيذاً لمؤامرة دولية كبيرة خطط لها اعداء العراق من خارجه، ونفذها من الداخل مجموعة خونة وفاسدين.

اليوم الأول لتنظيم الدولة الإسلامية في الشرقاط

سقطت مدينة الشرقاط بيد تنظيم الدولة الإسلامية، شأنها شأن المدن الأخرى شمال غرب العراق، بالرغم من وجود قوات عسكرية وأمنية حاولت الصمود، وكانت لديها القدرة على القتال، إلّا أن سقوطها كان حتمياً، نتيجةً لانِهيار الفرق العسكرية الكبرى في الموصل وكركوك وتكريت والأنبار، فجاء سقوط الشرقاط كنتيجة حتمية أخرى للدور المشبوه الذي لعبته قوى الطابور الخامس في التأثير على الروح المعنوية للمقاتلين، من خلال بث دعايات زائفة، فحواها أن القوات التي سيطرت على الموصل ما هي إلّا قوات ثوار جاءت لتحرير السكان من الظلم والاضطهاد، وستعمل على إقامة إقليم سُني تحفظ من خلاله الحقوق والكرامة، بالإضافة إلى الجهود الكثيفة التي لعبها الطابور الخامس على ذوي المقاتلين، حيث أجروا اتصالاتٍ مكثفةٍ مع ذوي المقاتلين، تحثهم فيها على ضرورة انسحاب ذويهم من ساحات المواجهة مع الثوار (كما أسموهم)، كي لا يكونوا سبباً في إجهاض الثورة الحتمية (كما أسموها)، فيذهبوا ضحية حرب دفاع لا فائدة منها، في عملية تزوير واضحة للحقائق، وخيانة لشرف الوطن وأرضه وشعبه.

مقاومة مدير شرطة الشرقاط لعناصر تنظيم الدولة الإسلامية الإرهابي

نتيجةٍ للعقيدة التي بُنيت عليها قوات الشرطة في الشرقاط بعد عام 2003م، قاوم كل من مدير شرطة الشرقاط العميد الركن خيرالله عيسى الجبوري، وآمر فوج طوارئ شرطة الشرقاط المقدم عايد حسن الجبوري مع مجموعة من ضباطهم ومقاتليهم هذا التنظيم في اليوم الأول من سقوط الموصل، وحاولوا منع عناصر التنظيم من دخول المدينة، عبر تشكيل خطوط صد في مدخلها الشمالي، لمواجهة قوات التنظيم القادمة من جنوب الموصل، فأطلق العميد الركن خيرالله مقولته الشهيرة: "والله لن يدخلوا الشرقاط إلّا على جُثتي".

لكنَّ الضباط والمقاتلين سرعان ما بدأوا بالتسرب والهروب من خطوط المواجهة، حيث عمد ذويهم إلى التواصل معهم وتهريبهم من مواقعهم الدفاعية، نتيجةً لدور الطابور الخامس كما ذكرنا، وما هي إلّا ساعات قليلة، حتى وجد العميد الركن خيرالله والمقدم عايد أنفسهم مع عدد قليل جداً من الضباط والمقاتلين الذين رفضوا الهروب، وقرروا الصمود لمواجهة العناصر الإرهابية حتى الموت.

نتيجةً لما آلت اليه الأوضاع، ونظراً لقلة عدد المقاتلين، أضطر مدير الشرطة للانسحاب مع القوة المتبقية معه إلى داره في منطقة التل وسط الشرقاط، وبعد وصوله إلى منزله، بدأت قوات التنظيم بإرسال وفود تطلب منه الاستسلام، وتسليم أسلحته وعجلاته دون أي قيد أو شرط، لكنه رفض الخضوع لمطالبهم، ووضع خطة دفاعية تقوم على الهجوم، بهدف إرباك العدو وتحقيق أقصى الخسائر في صفوفه، تمهيداً للانسحاب وتأمين خروجه مع من تبقى معه من مقاتليه خارج المناطق التي سيطر عليها التنظيم، فاتخذ العميد الركن خيرالله مع القليل

من مقاتليه وأبناءه وأبناء إخوته وعدد من جيرانه من سطح داره وسطوح بعض المنازل المجاورة مواضع هجومية- دفاعية، ولم تمضِ دقائق معدودة حتى ثارت فوهات أسلحتهم مطلقةً نيرانها نحو مقاتلي التنظيم، في ما يمكن تسميته بانطلاق الشرارة الأولى لثورة الشرقاط، ضد ما يسمى بالدولة الإسلامية وحواضنها وطابورها الخامس.

تفاصيل المعركة.

بعد أن رفض العميد خيرالله الاستسلام والتسليم، ونتيجةً لغرور هذا التنظيم بما حققه من انتصارات وهمية في الموصل وغيرها من المناطق، سببها فساد بعض القادة العسكريين ودور حواضن الخيانة والطابور الخامس في التهيئة لدخول التنظيم وعدم مقاومته، وليس خلو الجيش والشرطة العراقية من الرجال الشجعان القادرين على الاستبسال والتضحية في سبيل الأرض والعرض، نتيجةً لكل ما تقدم، قرر عناصر التنظيم مهاجمة منزل العميد الركن خيرالله، لقتلهِ مع من تبقى معه من مقاتليه وأقاربه، مستخدمين عجلات تحمل رشاشات أُحادية ثقيلة، بالإضافة إلى قاذفات صاروخية نوع (RPG)، وأسلحة متوسطة ومدافع هاون، وبعد أن اقتربت عناصر التنظيم من مرمى نيران العميد خيرالله ومجموعته، وقبل أن يُبادر عناصر التنظيم بأطلاق النار، وبمسافة لا تزيد عن ثلاثين متراً فقط، انطلقت نيران رشاشة الـ (BKC) التي كان يحملها العميد الركن خيرالله نحو عجلات التنظيم ومقاتليه، لتنطلق بعدها النيران من فوهات أسلحة المقاتلين الأخرين فوق أسطح المنازل المجاورة، دفعة واحده، كان مشهداً مرعباً، لا تصمد في مِثله إلّا الصناديد من الأبطال، أما الجبناء، فأغلب الظن أن اقدامهم لن تقوى على حملِهم، وإن سلس البول سيلزمهم، إذا لم يهربوا قبل وقوعه، وهذا ما حدث بالفعل مع أحد أفراد حماية العميد الركن خيرالله، حيث أطلق قدميه للريح بأقصى سرعة ممكنة، عندما رأى سيارات تنظيم الدولة تقترب من منزل العميد الركن خيرالله، بينما كان كثيراً ما يدعي الشجاعة والبطولة، فيعتدي على البسطاء من الناس عبر إطلاق النار في الهواء، خلال رحلات بحثه عن الإرهابيين، كل هذا كان قبل الحادي عشر من حزيران / يونيو عام 2014م!.



صورة للعميد الركن خيرالله عيسى الجبوري



تفاجأ عناصر التنظيم بذلك الهجوم، إذ لم يتوقعوا حدوثه، فقد سقطت أمامهم فرق عسكرية برمتها دون أن تُطلق رصاصة واحدة، ونتيجة لدقة التصويب، وغزارة النيران، قُتل أحد عناصر التنظيم، وجُرح ما لا يقل عن ثلاثة آخرون، فرد عناصر التنظيم بنيران الرشاشات الثقيلة، والقاذفات الصاروخية، ومدافع الهاون على مصادر النيران، الأمر الذي أحدث دماراً كبيراً في ستائر المنازل الكونكريتية، وأدخل المنطقة بأجواء حربٍ حقيقية.

ومع استمرار مقاومة مجموعة العميد الركن خيرالله وصمودها، وخوفاً من خسارتهم للمزيد من العناصر، ومن مخاطر نشوب ثورة شعبية في قرية التل التي تسكنها غالبية من عشيرة الحوري، أضطر عناصر التنظيم للانسحاب التكتيكي، وفتحوا المجال للتفاوض مع العميد الركن خيرالله حقناً للدماء كما زعموا، كون مشروعهم هو الذهاب إلى بغداد، وليس الانشغال في معارك لا فائدة منها في مدينة الشرقاط!، وفقاً لمزاعمهم الكاذبة.

موقف الشيخ خطّاب
وبعض شيوخ المنطقة من معركة مواجهة التنظيم

حدثني العميد الركن خيرالله عن دور أهل منطقة التل في تلك المعركة الشهيرة قائلاً[1]:

"كان حجم التخاذل الذي تعرضت له كبيراً من قبل ذيول التنظيم وحواضنه، حاولوا التأثير على معنوياتي فصمدت، لكنهم نجحوا في التأثير على معظم الضباط والمقاتلين، وقد صمّدَ معي عدد قليل جداً من المقاتلين، ومن المواقف المشرفة التي يجب علي ذكرها، هي مواقف للشيخ خطّاب الضامن، والشيخ فواز خليل خلف العشم، والشيخ نشأت حسن خلف العشم، وبعض إخوتهم وأبناءهم، فقد حضر الشيخ خطّاب مع أبنه محمد بعد دقائق على انسحاب عناصر التنظيم، وهم يحملون أسلحتهم، فقال لي الشيخ خطّاب بالحرف الواحد:

عفيه أخو هدله، احنا معاك للموت، يخسون والله.

(شكراً لك يا بطل، نحن معك حتى الموت، يخسؤون والله).

فأصر على البقاء معي، وحرص على عدم تركي وحيداً في تلك الأوقات الحرجة، ثم أخذني معه، حيث قضيت تلك الليلة المشهودة في داره، ومن هناك غادرت إلى كركوك، ثم إلى معسكر سبايكر شمال تكريت، حيث قُمت بإعادة تأسيس قيادة شرطة صلاح الدين مع اللواء الركن حمد النامس، ومجموعة قليلة من الضباط والمقاتلين الآخرين.

(1) المقابلة الشخصية التي أجراها الباحث مع اللواء الركن خيرالله عيسى الجبوري، وهو من مواليد عام 1965م، أُجريت المقابلة بتاريخ 3/ 10/ 2022م.

أما بالنسبة لموقف الشيخين فواز ونشأت العشم، فقد وقفوا وقفةً مشرفة أيضاً، حيث بقيا معي شأنهم شأن الشيخ خطّاب، وشارك محمد نشأت العشم، وأحد إخوة الشيخ فواز العشم في المعركة، وأطلقا النار من سطح مضيفهم نحو عناصر التنظيم على بعد حوالي (60) متراً من منزلي، وكادا أن يلقيا حتفهما برشاشات التنظيم الأحادية التي حطمت ستارة سطح مضيفهم، الأمر الذي أوحى للتنظيم أنهُ يواجه مقاومة من عدد كبير من المنازل، فاضطروا للانسحاب، وإيقاف اطلاق النار، فمنحني موقفهم دقائق قليلة للانسحاب مع المقاتلين، تمهيداً لخروجنا من الشرقاط، كانت لحظات عصيبة أظهرت معادن الرجال الشجعان، وبينت مواقفهم النبيلة في أوقات المخاطر والمحن ".

مجزرة سجن بادوش

تفننت العناصر التكفيرية في تنفيذ عملياتها الإرهابية على كل ارضٍ تمكنت منها، فمارست القتل بأبشع صوره، واقترفت جرائم اغتصاب الأطفال والنساء حيثما سمحت لها الفرص، كما استعبدت البشر وأعادت الحياة والرواج إلى أسواق النخاسة (أسواق بيع البشر) في أجزاء من العراق وسوريا، مستغلةً غياب قوى الدولة والأمن والنظام، وحالة الترهيب والخوف التي فرضتها على السكان، فكانت مجازر الايزيديين، ومجزرة سجن بادوش في الموصل، ومجزرة سبايكر شمال تكريت، شواهد حية على ظلامية الفكر الذي يسير وفقه هذا التنظيم، وحشيته الغير مسبوقة في عصرنا الحديث والمعاصر، وعدم تردده في تنفيذ ابشع الجرائم وأشدها وحشيةً ضد المدنيين الأبرياء، الأمر الذي يحتم على المجتمع الإسلامي والدولي تحمل مسؤولياته القانونية والأخلاقية، في ضرورة اجتثاث الجذور الفكرية لتلك التنظيمات التكفيرية، ومكافحة كل ما من شأنه التشجيع على أنتشارها بين الشباب، من خلال إصلاحات تربوية، وتشريعية وسياسية.

حدثت مجزرة سجن بادوش خلال اليوم الأول من سيطرة عناصر تنظيم الدولة الإسلامية على محافظة نينوى، وتحديداً في الحادي عشر من حزيران / يونيو 2014م، وسجن بادوش هذا يعود لدائرة الإصلاح العراقية التابعة لوزارة العدل، ويقع في شمال محافظة نينوى، أحتوى السجن على الآلاف من السجناء المدانين بأحكام جنائية، ومن مختلف محافظات العراق ومكوناته، وبعد انسحاب القوات الأمنية المسؤولة عن حماية السجن، قامت عناصر تنظيم الدولة الإرهابي باقتحامه، وعملت على تقسيم نزلاء السجن تقسيماً طائفياً، مستخدمةً سجلات السجن وبطاقات الجنسية العراقية للسجناء وسيلةً لمعرفة الخلفية

الطائفية لكل سجين، وفي هذا المجال أنقل لكم شهادة أحد الناجين من هذه المجزرة، وهو من أهالي مدينة الشرقاط، حيث قال لي ما نصه [1]:

" في ظهيرة يوم الأربعاء الموافق 11/ 6/ 2014م المشؤوم، اقتحمت عناصر تنظيم الدولة الإسلامية الإرهابي سجن بادوش الذي كنت نزيلاً به، دخل عناصر التنظيم المدججين بالسلاح إلى قاعتنا، بعد أن قاموا بتحطيم أقفال البوابات، صفونا على شكل طوابير، وطلبوا من كل واحدٍ مِنّا إبراز هوية الجنسية العراقية، وعندما وصلني الدور، نظر الإرهابي المسؤول عن تدقيق الهويات في هويتي وقال:

أنت من الشرقاط؟.

قلت نعم.

أنت جبوري؟.

قلت: نعم.

قال: والله أنتم الجبور تستحقون الذبح، لكن الخليفة أصدر أمراً بالعفو عنكم، أنقلع عن وجهي بسرعة.

بعدها قام عناصر التنظيم بعزلنا وفقاً لمكوناتنا الطائفية، سُنةً وشيعة، فأطلقوا سراحي مع من معي، لكنهم قاموا بقتل جميع النزلاء الشيعة للأسف الشديد، كانت جريمة مروعة يندى لها جبين البشرية على مر العصور القادمة، راح ضحيتها المئات من زملائنا الأبرياء على يد تلك المجموعات الهمجية ".

(1) المكالمة الهاتفية التي أجراها الباحث مع السيد اسماعيل خلف عيسى العنكود، وهو من أهـالي قريـة اسـديره شرق الشرقاط، من مواليد عام 1972م، أُجريت المكالمة بتاريخ 18/ 10/ 2022م.

سقط نتيجةً لهذه المجزرة المروعة (670) سجين من مختلف مناطق العراق، نتيجةٍ لانهيار القوات الأمنية في محافظة نينوى، هروب القوات الأمنية المسؤولة عن حماية السجن، بعد أن تخلت عن مسؤوليتها في حماية السجناء والحفاظ على أرواحهم، فتركتهم فريسةً لذلك التنظيم الإرهابي الشنيع، والذي قرر قتلهم نتيجةً لتكفيره مكونٍ عراقيٍ أساسي، في جريمةٍ طائفيةٍ بشعة ونكراء.

لا أخفي عن القارئ الكريم شدة تأثري وحزني البالغ خلال تدويني لأحداث هذه المجزرة، وغيرها من المجازر التي تعرض لها أبناء الشعب العراقي خلال عام 2014م، فعلاوةً على حزني لمقتل الأبرياء من أبناء شعبي، تذكرني هذه المجازر بما تعرض له والدي الملازم عمران صالح الضامن، إذ واجه نفس المصير الذي واجهه شباب سبايكر، وشباب سجن بادوش، والشباب والشيوخ من الايزيدين، حيث تم على الأغلب إعدامه مع المئات من رفاقه الأسرى في أعقاب معركة البسيتين، في ليلة التاسع والعشرون من تشرين الثاني / نوفمبر عام 1981م، خلال العام الثاني من الحرب العراقية الإيرانية 1980م-1988م، وفي معرض الحديث عن تلك المجازر البشرية المُشينة، تجدر بنا الإشارة إلى القواسم المشتركة بين مجزرة البسيتين ومجازر العراق عام 2014م، فمعظم من قُتِل فيها كانوا شباب، وأسرى لا حول لهم ولا قوة، غير أن بشاعة مجازر عام 2014م تفوقت على بشاعة مجزرة البسيتين، من حيث خسة من أقترفها، وخيانته لشرف الإنسانية والمواطنة، فقد أنتهك الإيرانيون في مجزرة البسيتين ألقيم الإسلامية والإنسانية، علاوة على قيم القانون الدولي، عندما أقدموا على إعدام أسرى عُزل، بينما قام إرهابيو تنظيم الدولة الإسلامية بإعدام أبناء بلدهم دون أي ذنبٍ اقترفوه، سوى كونهم ينتمون لمذاهب وديانات وقوميات كفَّرها الفكر الإجرامي والظلامي لعصابات تنظيم الدولة الإسلامية، وأخواتها من التنظيمات التكفيرية الإجرامية.

دور الشيخ خطاب في إجلاء ثلاثة ناجين من المجزرة.

نعود إلى أحداث مجزرة سجن بادوش التي وقعت عام 2014م، فقد نجح عدد قليل من النزلاء الشيعة بالنجاة من تلك المجزرة الرهيبة، ربما عبر استخدام بطاقات هوية لا تعكس مناطق سكناهم، أو نتيجةً لحالة الفوضى التي واكبت عملية اقتحام السجن في تلك الظروف المضطربة، وفي اليوم التالي وصل ثلاثة منهم إلى مدينة الشرقاط، وتحديداً إلى منطقة التل، حيث دخلوا دار السيد محمد يوسف العگلة كدخلاء، كانوا شباباً في مقتبل العمر آنذاك، فقدم لهم أصحاب الدار واجب الضيافة، وتكتموا على أمرهم، خشية عليهم من شر عناصر التنظيم التي كانت تسيطر على الشرقاط، وبعد مرور أيام على مكوثهم هناك، شعر أهل الدار بالخطر على حياة أولئك الشباب، فحاولوا تهريبهم خارج الشرقاط، لكن الأوضاع كانت خطيرة للغاية، وأي خطأ في محاولة تهريبهم إلى أهلهم كان من الممكن أن يودي بحياتهم جميعاً، السجناء الثلاثة وأهل الدار، فوقع اختيارهم على الشيخ خطّاب لحل هذه المشكلة الخطيرة، وذلك لمعرفتهم بحكمته، وحميته وشجاعته، وفي ما يلي تفاصيل تلك الواقعة كما رواها لي الشيخ خطّاب بعد مغادرته الشرقاط إلى كركوك عام 2014م، حيث قال لي ما نصّهُ:

"جاءني مصعب محمد اليوسف، كان شاباً لم يبلغ العشرين من العمر، فدار بيننا الحديث الآتي:مصعب: عمي، نحن نمر بمحنه، استشرت بعض من أثق بهم، فنصحوني بالتوجه إليك في حلها.

قلت: تفضل يا أبني أنا حاضر.

قال: جاء إلى منزلي ثلاثة شباب فارين من سجن بادوش، وهم من أهل مدينة الثورة (مدينة الصدر)، نجحوا في النجاة من مجزرة تنظيم الدولة الإسلامية بحق السجناء الشيعة

بأعجوبة، حاولت إخراجهم من الشرقاط، لكن كما تعلم، سيطرات التنظيم منتشرة على الطريق نحو كركوك، وأخشى أن يُفتضح أمرهم ويُقتلوا، لذلك جئت طلباً لمساعدتك.

قلت: صار أبني، لا تهتم، تنحل إن شاء الله، أذهب وأحضرهم الي فوراً.

وما هي إلّا دقائق معدودة حتى وصل الشباب الثلاثة برفقة الشاب مصعب إلى منزلنا، كانت أعمارهم مقاربةً لأعمار أبنائي، فطلبت من أبني طه أن يلتقط لهم صوراً بجهاز الموبايل، وأن يذهب فوراً إلى مكتب استنساخ وتصوير في سوق الشرقاط، ليطبع الصور، ثم يشتري هويات جنسية عراقية فارغة (كانت متوفرة لدى بعض المزورين الذين حصلوا عليها من دائرة جنسية الشرقاط إذ تعرضت للنهب آنذاك)، وخلال ساعة واحدة، قمنا بلصق صورهم على هويات مزورة تحمل أسماء أبنائي الثلاثة (عمران ومحمد وطه).

تحدثت مع الشباب الثلاثة لتطمينهم وتخفيف حدة توترهم، نتيجة لتأثير مجزرة سجن بادوش عليهم، فلقنتهم بتفاصيل أسمائهم الجديدة، وأسم أمهم المستعار، وعنوان سكننا في مدينة الشرقاط، وإننا من عشيرة الجبور، وإلى آخره من تفاصيل تضمن أجابتهم على اسئلة عناصر التنظيم في السيطرات الممتدة من الشرقاط حتى حدود مدينة كركوك بعد قضاء الحويجة، وبعد أن تأكدت من إتقانهم لأسمائهم المزورة، تركتهم مع أبنائي في المضيف، وأخبرتهم إننا سنغادر إلى كركوك مع شروق الشمس.

بهدف عدم لفت أنتباه عناصر التنظيم، طلبت من والدتي، ومن إحدى زوجاتي أن ترافقنا مع الأطفال في هذه الرحلة، وبعد أن شرحت للجميع ما يجب أن نقوله لعناصر التنظيم خلال مرورنا بنقاط التفتيش، انطلقنا بسيارتنا نوع بيك آب صيني، إذ اخترتها خصيصاً للتمويه، وبعد رحلة استغرقت ساعتين تقريباً، اجتزنا خلالها 11 سيطرة من سيطرات التنظيم، وصلنا إلى أطراف مدينة كركوك، ومن هناك اتفقت مع أحد الأصدقاء

وهو سائق تاكسي، على أن يأخذهم من كركوك إلى بغداد، وتحديداً إلى مدينة الثورة حيث أهلهم، ولا بد من ذكر الموقف الإيجابي لسائق التاكسي، حيث تنازل عن مبلغ الأجرة، وعوضاً عن ذلك طلب مني مبلغ لشراء البنزين فقط، وبعد ساعات أتصل بي الشباب بعد أن وصلوا إلى أهلهم، معبرين عن شكرهم وامتناهم، والحمد لله الذي مكننا من إنقاذهم وإيصالهم إلى ذويهم سالمين.

مغادرة الشيخ خطّاب لمدينة الشرقاط إلى كركوك.

لم يمكُث الشيخ خطّاب إلّا أيامٍ معدودةٍ في مدينة الشرقاط بعد أحداث حزيران / يوليو عام 2014م، نتيجةً لكونه من القيادات العسكرية والأمنية التي كان لها دور بارز في تشكيل القوات الأمنية في مدينة والشرقاط، بالإضافة إلى دوره في مكافحة الإرهاب والعمل على استقرار الأمن، هذا بالرغم من التطمينات التي بثها التنظيم للعناصر الأمنية والعسكرية في مناطق سيطرته، حيث روج التنظيم دعاية مضللة مفادها إصدار عفو من زعيم التنظيم عن كل العاملين في الجيش والشرطة العراقية، بشرط أن يكتبوا توبات، ويسلموا أسلحتهم.

غادر الشيخ خطّاب مدينة الشرقاط في النصف الثاني من شهر حزيران / يونيو 2014م نحو كركوك، تاركاً خلفهُ كل ما يملكه من معنىً وماده، مبتعداً عن الأهل والأصدقاء والزملاء والأقارب، وكذلك الأرض والمنزل والمضيف، والتأريخ، غادر والحزن يعتصرُ قلبه، على ما آلت اليه أحوال مدينته ووطنه، غادر والأسى يكاد يُسيطر على أحاسيسه، غادر **ولسان حالهُ يقول:**

ما هكذا ينبغي أن يحدث، لم ندافع عن الشرقاط من شرور النهاب واللصوص ليأتي الإرهابيين ثم ينهبوها ويسرقوها دفعةً واحده، لم نبنِ قوات الشرطة والجيش لكي لنواجه الإرهاب وندحره، فتأتي مجاميع الإرهابيين وتستولي على أسلحتها وأبنيتها، لم نُقاتل تنظيم القاعدة ونحمي أهلنا كي يستبيح تنظيم الدولة الإسلامية التكفيري مناطقنا ويتسلط على رقابهم وأعراضهم، غادر مدينة الشرقاط التي تغنّى بها في أحدى قصائده قائلاً: (الشرگاط هي أمنا صدگونا ما تنداس).

غادر بعد أن تبددت كل أحلامه وجهوده وخططهُ للدفاع عن الشرقاط وعن العراق، غادر بعد أن سيطر الإرهاب على الشرقاط وعلى الكثير غيرها من مدن العراق، غادر وهو يتأسف ولسان حاله يقول: ما هكذا ينبغي ان يكون!!.

الاستقرار في كركوك

أستقر الشيخ خطّاب مع عوائله التي لحقت به فيما بعد في مدينة كركوك، ولحسن الحظ، كان يملك داراً في مدينة كركوك، لكنه رفض أن يُخرج العائلة التي كانت تستأجر ذلك الدار ليسكن محلها، فقرر أن يستأجر منزلاً آخر، ونتيجة لنزوح عشرات آلاف العوائل من مناطق شمال غرب العراق نحو كركوك، انخفضت أعداد المنازل المتوفرة للسكن هناك، وارتفعت أسعار الإيجارات بنحو 6 أضعاف ما كانت عليه قبل أحداث حزيران / يونيو 2014م، فاضطر للسكن في منطقة بنجا علي الشعبية شرق كركوك، وبعد حوالي ستة أشهر، قررت العائلة التي استأجرت داره الخروج مِنهُ طواعيةً، فأنتقل للسكن فيه بحي الواسطي وسط كركوك، فاستقر هناك مع عوائله حتى نهاية عام 2015م.

نزوح السكان

عن مناطق سيطرة تنظيم الدولة الإسلامية الإرهابي.

مع سيطرة عصابات تنظيم الدولة الإسلامية على أجزاء واسعة من مدن شمال غرب العراق، اضطرت عشرات الآلاف من العوائل إلى ترك مدنها، واتجهت صوب المحافظات التي لم يتمكن التنظيم من دخولها، وهي المحافظات القريبة من المناطق التي سيطرت عليها عصابات التنظيم، ككركوك، وأربيل، ودهوك والسليمانية، بالإضافة إلى المحافظات الأخرى مثل بغداد، البصرة، النجف وكربلاء، ولكن بوتيرة أقل.

ولابد هنا من الإشارة إلى الكرم والترحيب الذي حظيت به العوائل النازحة من قبل سكان المحافظات التي نزحت إليها، والمعروف عن الشعب العراقي كرمِه وطيبته المتجذرة، نتيجةً لقيمه العربية والإسلامية، لذلك حصلت العوائل النازحة على دعم السكان، من خلال ما قدموه من مساعدات مالية وعينية، شملت تجهيزهم بأثاث وملابس وأغطية ومبالغ مالية جمعها الأهالي على شكل تبرعات، فساهمت في التخفيف من آثار النزوح المالية والنفسية.

أوضاع النازحين العرب

في مدن إقليم كردستان ومحافظة كركوك

توجهت مئات الآلاف من العوائل النازحة من المناطق التي سيطرت عليها عصابات تنظيم الدولة الإسلامية نحو مدينة كركوك، بالإضافة إلى مدن إقليم كردستان العراق، نتيجةً لقرب هذه المدن من المناطق التي سيطر عليها التنظيم كما ذكرنا، وهناك، واجه النازحون تمييزاً عنصرياً واضحاً، مارسته بعض قوات الأمن والجيش التابعة لإقليم كردستان العراق، نتيجة لشكوكها بولاء النازحين لعناصر التنظيم، بالإضافة إلى تصاعد الشعور القومي لدى بعض سلطات الإقليم، وفي هذا المثال أورد لكم حادثة تصور حجم الحيف الذي تعرض له النازحين، حيث كنت شاهداً عليها خلال عام 2015م:

في إحدى صباحات آب / أغسطس اللاهبة عام 2015م، ذهبت بصحبة أحد أقربائي إلى مركز أمن (أسايش) منطقة أوينه شار في أربيل، بهدف الحصول على بطاقة الإقامة في إقليم كردستان العراق، والحق يقال إنني عجِبت وصُدِمت لهول ما شهدته، حيث كان المئات من الرجال، والعشرات من النساء يقفون في ساحة تطل على بناية مركز الأمن، كان الجميع مطأطأي رؤوسهم، تحت أشعة الشمس المحرقة، شاردي الأذهان، شاخصي الأعين، لا يعلم أحدهم أهو في كابوسٍ أسود سينتهي بعد قليل؟، أم هو في حقيقةٍ مرة يستحيل تصديقها، فقد مُنِع الجميع من الدخول إلى بناية مركز الأمن، وسط إجراءات إذلال مشددة، وحتى سؤال حارس بوابة المركز كان مجازفة قد تؤدي إلى توبيخٍ وإهانة، أما الحارس الذي كان يُحكم أغلاق باب بناية المركز، فقد كان يمر بأفضل أوقاته على الإطلاق، يحمل سلاحه، ويرفع أنفه نحو السماء، ودخان سيجارته ينبعث من منخريه بعنفٍ وقوه.

لما لا؟، فالشيوخ التي كانت لها الذرية المباركة والأموال الطائلة، والحسب والنسب؛ أمست الآن وهي تستجدي عطفه، وتتوسلهُ كي يجيبها على سؤال بسيط، ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

هذه بطاقتي، هل تسمح لي بالدخول لختمها؟.

لا، روح. (كلا أذهب).

شاهدت العديد من ضباط الجيش والشرطة من أصحاب الرتب العليا، وهم لا يجرؤون حتى على الاقتراب من ذلك الحارس، خشيةً من التوبيخ والإهانة، يا له من حارسٍ ذو شأنٍ عظيم، بل هو الحارس الأعظم في التأريخ كله.

طوال تلك الساعات التي تلوعت في قضائها هناك، كُنت ألعن وأشتم مع نفسي، استنفذت كل ما سمعته طوال ثلاثين عاماً من الشتائم والمسبات العراقية، استخدمت الشتائم المصرية والأردنية التي سبق وأن سمعتها، وبعنف.

شتمت كل من تسبب في تهجير هؤلاء الكرام، الفقراء منهم والأغنياء، شتمت كل من تخاذل وجُبن وارتشى وخان وتواطئ، حتى أوصلهم إلى هذه الحالة المأساوية، وشتمت كل فردً منهم لا يفعل المستحيل كي يعود إلى دياره. بضمنهم أنا طبعاً.

كان الشيخ خطّاب متوقعاً للظروف التي سيواجهها النازحون هنالك، نتيجة لخبرته العسكرية والسياسية، وفطنته وحكمته، فقرر عدم الدخول إلى مدن إقليم كردستان، والاستقرار في كركوك عوضاً عن ذلك.

الشيخ خطّاب يُحيي تقاليده العربية في كركوك

بالرغم من الظروف الاستثنائية التي كابدها الشيخ خطّاب خلال فترة التهجير والنزوح، وبالرغم من خسارته لمعظم أمواله التي تركها في الشرقاط، أستمر في التواصل مع أطراف المجتمع في كركوك، بضمنهم أهل الشرقاط، وحرص على إقامة الدعوات والولائم في أيام الأعياد على وجه الخصوص، وكلما قصدته الضيوف والزوار، ونتيجة لصغر مساحة الدار التي سكنها هناك، أضطر لاستعارة دور جيرانه لاستقبال الضيوف، خلال الدعوات والوجبات التي كان يُقيمها، ولسانُ حالِه يردد ما قاله عمه الشيخ عيسى الضامن قبل حوالي قرن من الزمان حينها إذ قال:

أتحير ابنا المصايب من هلينه.

وعلى الجودات دفگ المنهلينا.

وقد صدق عمه، فالمصائب كانت تحير وتعجز أمام قوة ارادة الشيخ خطّاب، وشدة عزيمته، وحبه للخير وللناس، وثباتهُ على قيمه وأخلاقه العربية العراقية الاصيلة.



الشيخ خطاب خلال إحدى الدعوات التي أقامها في كركوك عام 2015م.



إلى جانب ذلك، مارس الشيخ خطّاب من ديار النزوح، دورهُ الاجتماعي الذي أعتاد عليه في الشرقاط، وهو الإصلاح ونشر السلام والمحبة، فكان دائماً ما يتدخل لحل المشكلات والخلافات التي كانت تحدث بين أبناء الشرقاط، وبينهم وبين الأطراف الأخرى من مجتمع كركوك، والمجتمع العراقي برِمته، وفي هذا أروي لكم هذه الحادثة:

في إحدى ليالي شباط / فبراير القارصة عام 2015م، وبينما كُنت مع عائلتي في دارنا التي استأجرناها في ناحية التون كوبري شمال كركوك، رن جرس هاتفي النقال، نظرتُ إلى الهاتف، فعرفت أن المتصل هو عمي الشيخ خطّاب، ففرحت وأجبته على الفور، فدار بيننا الحديث الآتي:

أنا: أهلا وسهلاً عمي العزيز حياك الله.

الشيخ خطّاب: حبيبي أبو عبدالله، أخبارك أمورك، كيف أحوال الوالدة والعائلة.

قلت: الحمد لله نحن بخير، ألمهم أنت، طمني عليك.

قال: أنا بخير الحمد لله، أنت وين؟.

قلت: أنا في منزلي.

قال: في الصباح يجب أن تسافر إلى بغداد، عليك أن تذهب بدلاً عني، كنت أنوي الذهاب بنفسي، لكن معلوماتي تفيد بأن الأوضاع خطرة عليَّ هناك، لذلك يجب أن تذهب أنت بدلاً عني.

قلت: حاضر تؤمر.

شرح لي بعدها الغرض من ذهابي إلى بغداد، وهو تحقيق الصلح بين متخاصمين، إذ أن مجموعة طلاب يدرسون في الجامعة التكنولوجية (من أهل الشرقاط) تورطوا بحادث شجار مع أحد زملائهم، فأعتدوا عليه بالضرب داخل الحرم الجامعي، وهو من أهالي بغداد، يسكن

منطقة حي أور، وأن الشيخ خطاب تكلم مع سيد مرسومي من أهالي محافظة ديالى للتوسط في حل المشكلة، لذلك يتوجب علي حل المشكلة وتحقيق الصلح بأي حالٍ من الأحوال، من خلال التعاون مع المرسومي، وإذا تطلب الأمر دفع مبلغ مالي لإرضاء عائلة الطالب فعلي القبول، وسوف يتكفل هو بجمع المبلغ ودفعه.

في الصباح الباكر توجهت نحو مدينة كركوك، ومن هناك استقليت سيارة تاكسي إلى بغداد، صعدت في المقعد الخلفي، وبجنبي رجلان يكبراني بحوالي خمس سنوات أو أكثر بقليل، وبعد أن انطلقت بنا السيارة، بادرني أحدهم قائلاً:

من فضلك ممكن اعرف من أين أنت؟ ماهي وظيفتك؟ ولماذا تذهب إلى بغداد في هذه الظروف؟.

قلت: أنا من أهل الشرقاط، غادرتها بعد دخول التنظيمات الإرهابية، أعمل أستاذاً في جامعة أهليه هنا في كركوك.

قال: هل تعرف العميد مصطفى رحمه الله؟، أولاده عبد الكريم وفاروق؟.

قلت: نعم أعرفه، هو من عشيرتي وكُنّا نسكن في الشرقاط، بقرية التل.

قال: حسناً، هل تعلم بخطورة الأوضاع في الطريق إلى بغداد، وفي بغداد أيضاً؟.

قلت: نعم، سمعت عن بعض حوادث اعتقال المسافرين في نقاط التفتيش، لكن لدي هوية أستاذ جامعي، وبالتأكيد سوف تساعدني في اجتياز نقاط تفتيش القوات الأمنية.

تنهد قليلاً، ثم قال: المشكلة ليست مع القوات الأمنية، بل مع المجموعات المسلحة التي تشكلت مؤخراً، وهي خارج سيطرة القوات الأمنية!.

ثم طلب مني هذا الرجل العدول عن نيتي في السفر، والنزول من السيارة قبل أن نغادر الحدود الإدارية لمدينة كركوك!.

قلت: يجب أن اذهب، لأن من طلب مني الذهاب إلى بغداد لا يمكنني رده.

قال: حسناً، وسكت.

وعندما وصلنا إلى حدود محافظة ديالى، وفي منطقة صحراوية قاحلة، أستوقفنا رجل يرتدي الزي العسكري، بالقرب من ثكنة عسكرية صغيره على الطريق، كان ممتلئ الجسم، في منتصف الأربعين من العمر، نظر إلينا من زجاج السيارة، فطلب هويتي أنا فقط، أخرجت له هوية الجامعة، فنظر فيها وقال:

لا أعترف بهذه الهوية، أعطني هوية الجنسية العراقية.

ناولتهُ هوية الجنسية العراقية، وبعد أن عَلِمَ أني من أهالي قضاء الشرقاط قال:

متى خرجت من مناطق داعش؟ كُنت تعمل معهم، أليس كذلك؟.

قلت: لا لا أبداً، أنا من المناوئين لتنظيم داعش، وقد غادرت الشرقاط إلى كركوك بعد دخولهم بأيام قليلة، وأنا أعملُ أستاذاً في الجامعة وهذه هويتي الجامعية.

قال: أنزل بسرعة!!.

وعندما هممت للنزول من السيارة، أمسك الرجل الذي كان بجنبي بيدي ليمنعني من النزول، وأبرز هويته وهوية رفيقه على الفور، وقالوا بلسانٍ واحد:

نحن نعرف هذا الشاب ونعرف أقاربه معرفةً شخصية، إنه يعمل أستاذاً في الجامعة، ونحن نتحمل مسؤولية سلامة موقفه الأمني!.

وبعد أن نظر العسكري في هوياتهم، قال:

تمام، أذهبوا.

علمتُ بعد ذلك، ان أولئك الرجلين كانا ضباطاً في مقر مديرية الاستخبارات العسكرية، وأنهم كانوا على عِلم بعمليات الخطف والقتل التي تعرض لها بعض أبناء مناطق

شمال غرب العراق خلال تنقلهم من وإلى بغداد، ولذلك حاولا ثنيي عن السفر إلى بغداد، وقد أنقذاني من خطرٍ كاد أن يودي بحياتي في تلك السيطرة!.

وبعد أن وصلنا إلى اطراف مدينة بغداد، سألني أحد الضباط قائلاً:

أين ستسكن؟.

قلت: في منطقة الحارثية.

قال: ومن صاحب الدار التي ستسكن بها؟.

قلت: عمي.

قال: حسناً، سوف نوصلك بسيارتنا العسكرية التي تنتظرنا في منطقة النهضة، يجب أن لا تستأجر أي سيارة تاكسي، وأن لا تسكن في الفنادق، شكلك ولهجتك تُخبر الجميع أنك من مناطق شمال غرب العراق، وقد تتعرض للخطف أو القتل في أي لحظة، لذلك أنصحك بالبقاء في دار عمك، واستخدام سيارته للتنقل، ثم العودة إلى كركوك حال إكمالك لمهامك في بغداد، وبالفعل أوصلاني إلى باب الدار التي كان يسكنها عمي في منطقة الحارثية، حيث أمضيت ليلتي هناك.

في المساء، أتصلت بالشيخ خطّاب، فأبلغني أن موعدي مع الوسيط هو غداً صباحاً، وسيذهب معي إلى جلسة طلب الصلح، كما أبلغني ان خاله عبد الواحد خضر الطوير سوف يأتي ليأخذني بسيارته إلى حي أور، حيث منزل عائلة ذلك الطالب.

في تمام العاشرة صباحاً، انطلقنا من منطقة الحارثية نحو حي أور، وفي الطريق ألتقينا بوسيطنا، وهو السيد المرسومي.

كان المرسومي رجلٌ تجاوز الخمسين من العمر، أبيض الوجه، متوسط القامة، مُمتلئ، يرتدي عقال ويشماغ أخضر، مع عباءة عربية صفراء، ترافقه سيارتان، مع ثلاثة أشخاص.

دخلنا إلى حي أور، وفور دخولنا إلى وسط الحي، سمعنا صوت إطلاق نار كثيف ومستمر، وكانت الأعلام السوداء توشح أسطُح الدور والمحلات، علمتُ فيما بعد أن اطلاق النار والسواد سببه سقوط عدد كبير من رجال الحي في المعارك مع تنظيم الدولة الإرهابي، في مناطق شمال غرب العراق!.

دخلنا إلى دار عائلة الطالب، كان منزلاً متوسطاً من حيث البناء والأثاث، أستقبلنا والد الطالب، وهو آنذاك مديراً لمدرسة إعدادية، وعمه الذي كان يعمل في مجال المحاماة، وبعد أن تناولنا الشاي، بدء المرسومي الحديث وقال:

نحن هنا بسبب المشاجرة التي حصلت بين ولدكم وزملائه من أهل الشرقاط، ونحن جاهزون لتلبية ما تطلبونه في سبيل حل المشكلة وتحقيق الصلح بينكم.

بعد أن اكمل المرسومي حديثه، أنبرى لنا عم الطالب، فألقى علينا مرافعة قانونية مطولة، أتهم من خلالها طلبة الشرقاط بالإرهاب، وأكد من خلال قصاصة ورقية كان يحملها أن ثلاثة منهم يحملون أسم (عمر)، وأن دوافعهم في الشجار كانت طائفية!.

أثرت مرافعة عم الطالب بوسيطنا المرسومي، فوجه حديثه إلينا على الفور قائلاً:

أنا لا أتشرف بالتدخل في قضايا طائفية وإرهابية، لماذا لم تخبروني بحقيقة الأمر؟.

توترت كثيراً بسبب اتهامات المحامي الزائفة، ورد فعل المرسومي عليها، فأجبته على الفور قائلاً:

ما تفضل به عم الطالب كلام غير صحيح، أولادنا ليسوا إرهابيين ولا طائفيين، ولدكم تجاوز على أحدهم تجاوزاً غير مقبول، وكان رد فعلهم غير مقبول أيضاً، ونحن نرفض ما قاموا به رفضاً قاطعاً، وفي سبيل ذلك نحن مستعدون للاعتذار، وتقديم تعويض مادي، سوف نجعلهم يتركون الدراسة خلال هذا العام احتراماً لولدكم، نحن رفضنا الإرهاب

وحاربناه منذ عام 2003م، وقدمت عشيرتنا عشرات القتلى خلال مواجهتها لقوى الإرهاب في الشرقاط، واليوم نحن مهجرون، وقد تم نهب أملاكنا وتفجير منازلنا من قبل تنظيم داعش الإرهابي، لذلك نرفضُ اتهامنا بالإرهاب والطائفية، رفضاً قاطعاً؟.

قُلت تلك الكلمات بتوترٍ شديد وعصبية، نتيجة للكلام القاسي الذي وجهه لنا المرسومي، وبعد أن أنهيت حديثي، خاطبني السيد المرسومي قائلاً:

أرجو ان تهدأ يا رجل.

أنت جبوري؟.

قلت: نعم.

قال: أعلم يا جبوري أن تقاليدنا لا تسمح للطرف الذي أرتكب ذنباً بالحديث خلال حوارات طلب الصلح والعفو.

قلت: تكلمت بالحقيقة، لقد تم اتهامنا بالإرهاب والطائفية، وهو أمرٌ لا يُمكن السكوت عليه أبداً.

فتدخل والد الطالب على الفور لتهدئة الموقف وقال:

أسمحوا لي أولاً أن أرحب بكم، وأعلموا إنني تربوي ومدير مدرسة إعدادية، وقبل كل شيء أب، لذلك لم أُخبر أقاربي عن تفاصيل المشاجرة، لأنّهم لو علموا لتعقدت المشكلة، وخرجت عن سيطرتي، وصعب علينا حلها.

وأستطرد في الحديث قائلاً:

أولاً: نحن لا نطالب بأي تعويض مادي.

ثانياً: كيف يُعقل أن يترك ابناؤكم مقاعد الدراسة لهذا العام، بينما ينتظرهم أهلهم لإكمال دراستهم في هذه الظروف الصعبةِ عليهم وعلى جميع العراقيين.

كل ما أطلبه منكم، هو أن يقدم أولادكم الاعتذار لولدي، أمام طلبة الكلية وكوادرها، كما ينبغي عليهم توثيق هذا الاعتذار على موقع الفيس بوك الخاص بالجامعة، وبعد ذلك، اعتبروا الموضوع منتهي.

أستغرق حديثنا حوالي ساعة ونصف، فشكرنا والد الطالب وعمه على تسامحهم، وخرجنا من دارهم، وعندما هممنا للصعود بسيارتنا، أوقفنا السيد المرسومي على جنب، وقال:

أولاً: أرجو أن لا أكون قد جرحتكم بكلماتي، فالأوضاع متشنجة كما تعلمون، وكان عليَّ أن أتخذ ذلك الموقف في سبيل تهدئة الطرف الآخر.

ثانياً: عليكم أن تضعوا سيارتكم بين سياراتنا خلال مغادرتنا للمنطقة، فقد تتعرضون للاختطاف أو القتل في أي لحظة!.

نفذنا ما طلبه المرسومي، فأوصلنا مع جماعته إلى مدخل منطقة الحارثية وسط بغداد، وغادروا بعد ذلك نحو محافظة ديالى.

كشفت لي تلك الرحلة حجم المخاطر التي كان ممكن للشيخ خطّاب أن يتعرض لها، لو أنّهُ ذهب إلى بغداد بنفسه، فأنا وبالرغم من صغر سني حينها، وطبيعة عملي، وارتدائي لملابس مدنية اعتيادية، تعرضتُ لأخطارٍ كان من الممكن أن تنهي حياتي، فما الذي كان ممكن أن يحدث للشيخ خطّاب في تلك الظروف وذلك المكان؟، إذ يوحي شكله وزيه بالقيادة وعلو الرتبة وأهمية الشخصية، وهذا ما حدث له بالفعل بعد حوالي تسعة أشهر، حيث ذهب في رحلة لعلاج ولده إلى بغداد، ثم إلى كربلاء، وبعدها إلى محافظة بابل، ليقع ضحيةً لإحدى عصابات الاختطاف والقتل، مع الأسف الشديد.

جريمة اختطاف وقتل الشيخ خطّاب

قُلنا ان الشيخ خطّاب كان مطلعاً على مجريات الأوضاع السياسية والأمنية والعسكرية في العراق، مستشعِراً لجميع الأخطار والتحديات التي كانت تسود مناطقه، ولذلك أوفدني إلى بغداد في مهمةٍ اجتماعية كما ذكرت، وربما كان قد أوفد غيري لأداء مهامٍ أُخرى، لكنه وللأسف، أضطر للذهاب إلى بغداد، ثم كربلاء والحلة (بابل)، في سبيل علاج أحد أطفاله، تحت تأثير مسؤوليات الأبوة ومشاعرها وتأثيراتها، حيث كان ولده الصغير يُعاني من فتحةٍ في القلب، ومع عدم إمكانية ذهابهِ إلى مستشفيات أربيل الخاصة، قرر الشيخ خطّاب التوجه إلى مدينة بغداد، لعلاج ولده في مستشفى مدينة الطب.

أروي لكم تفاصيل تلك الرحلة المشؤومة، نقلاً عن زوجته، الشيخة أم صالح [1]:

بتأريخ الثاني والعشرين من تشرين الثاني / نوفمبر عام 2015م، سافرتُ برفقةِ عمك الشيخ خطّاب مع ولدينا يعقوب وإسحق، بهدف علاج إسحق في مدينة الطب ببغداد، كان يعقوب بعمر خمس سنوات، وإسحق بعمر سنة واحده، فتوجهنا من مدينة كركوك نحو مدينة تكريت، حيث أمضينا هناك بضع ليالٍ في البيت الثاني لعمك في تكريت، ومن هناك، انطلقنا صباح يوم الجمعة الموافق السابع والعشرين من نفس الشهر، نحو بغداد، فوصلناها ظهراً، كانت نيتنا أن نقضي ليلتنا في دار السيد عبد الواحد خضر طوير بمنطقة حي الجامعة، لكن عمك غير رأيه، وقال، فلنذهب لزيارة مرقد الأمام الحسين، وأظنه أراد ذلك بهدف التخفيف عني نفسياً، حيث كنت قلقةً جداً على الوضع الصحي لولدي الرضيع إسحق.

---

(1) المقابلة الشخصية التي أجراها الباحث مع الشيخة ميسون ابراهيم سحل الطوير زوجة الشيخ خطّاب، أُجريت المقابلة بتاريخ 21/ 10/ 2022م

واصلنا رحلتنا نحو كربلاء، وعند وصولنا إلى أطراف المدينة، فوجئنا بقطع الطرق المؤدية إلى مركزها، بسبب إجراءات أمنية صاحبت إحدى الزيارات الدينية، وبعد انتظارٍ دام حوالي نصف ساعة، قرر عمك العودة إلى بغداد، على أن يكرر رحلتنا نحو كربلاء في صباح اليوم التالي، بعد أن تنتهي مراسيم تلك الزيارة.

في طريق عودتنا إلى بغداد، تلقى الشيخ خطّاب مكالمة من أحد إخوته، مستفسراً فيها عن رحلتنا، فأبلغه عمك أن الطرق كانت مقطوعه، وإننا في طريق عودتنا إلى بغداد، عندها اقترح عليه أخاه الذهاب إلى مدينة الحلة (بابل) لنبيت ليلتنا في دار المدعو أبو علي الجنابي، ونعاود رحلتنا إلى كربلاء في صباح اليوم التالي، وأبلغه أن أبو علي هذا كان دائماً ما يتصل به، ويسأله عن أحوال الشيخ خطّاب، وإن بقائنا في الحلة سوف يوفر علينا عناء الطريق من وإلى بغداد، وذلك لقرب مدينة الحلة من مدينة كربلاء.

رفض الشيخ خطّاب هذا المقترح، وأبلغه إننا عائدون إلى بغداد، حيث منزل عبد الواحد.

بعد انتهاء تلك المكالمة بدقائق، تلقى الشيخ أتصالاً أخر، وعندما أجاب على الاتصال، كان المتصل هو أبو علي الجنابي بنفسه، إذ تم إبلاغه بوجودنا على الطريق العام بين كربلاء والحلة.

ألح أبو علي على الشيخ خطّاب بضرورة أن نحل على أسرته ضيوفاً، لنمضي ليلتنا في داره، وفي الصباح نذهب مرةً أخرى إلى كربلاء، وأمام إصرار أبو علي، وافق الشيخ خطّاب على طلبه بمضض.

أبلغ أبو علي الشيخ خطّاب أنّهُ في الطريق من النجف نحو الحلة، وأن زوجته أم علي سوف تتصل بهِ في سبيل إرشادنا إلى دارهم.

قصة أبو علي الجنابي في الشرقاط

بعد الاحتلال الأمريكي للعراق وانهيار الدولة العراقية عام 2003م، دخلت مدينة الشرقاط العديد من العائلات العراقية التي تركت مناطق سكناها، نتيجةً للتداعيات الأمنية للاحتلال وانهيار الدولة، شملت عوائل الضباط والمسؤولين من أهل الشرقاط الذين سكنوا بغداد وغيرها من المحافظات العراقية، لأداء مهامهم الرسمية، بالإضافة إلى عدد قليل من العوائل التي تنتمي لمدنٍ أخرى، بسبب الاستقرار الأمني النسبي الذي شهدته مدينة الشرقاط خلال تلك المرحلة، قياساً ببغداد، ومدنٍ أخرى، ونتيجة لطبيعة القيم الاجتماعية السائدة في الشرقاط، والتي تقوم على الترحيب بالوافدين من مناطقٍ اخرى.

من بين العائلات التي دخلت مدينة الشرقاط خلال تلك المرحلة، عائلة أبو علي الجنابي، والتي انتقلت من مدينة الحلة إلى الشرقاط في ربيع عام 2003م، حيث سكنت في دار قديمة متهالكة، تقع على ضفاف نهر دجلة، في منطقة قصبة الشرقاط.

أشاع أبو علي أنّهُ تعرض للظلم والاضطهاد والتهديد في مدينة الحلة نتيجةً لانهيار الدولة، على يد مجموعات مسلحة هناك، فقرر القدوم إلى الشرقاط، للنجاة مع عائلته، والعيش في الشرقاط بأمن وسلام، الأمر الذي دعا السكان للتعاطف معهُ، وتقديم المساعدات العينية والمالية لعائلته، نتيجة لتدهور ظروفه المعاشية، وسكنهُ في منزل قديم آيل للسقوط كما ذكرنا.

وبخصوص هذا الموضوع، حدثني الدكتور يونس التكريتي، وهو إمام وخطيب جامع من أهالي قصبة الشرقاط قائلاً [1] :

خلال الفترة الممتدة بين عام 2004م وعام 2007م، كان الشيخ خطّاب دائماً ما يزورني أنا والأستاذ جمعة عطية الفرج (إمام وخطيب جامع الشرقاط)، ليسألنا عن العوائل الفقيرة والمتعففة في منطقة قصبة الشرقاط، فكان يقدم مساعدات مالية معتبرة للعوائل التي كنا نرشدهُ إليها، فوصلت مساعداته إلى مبلغ 250 ألف دينار لكل عائلة، في تلك الظروف الاقتصادية الصعبة، وكان دائماً ما يطلب مني شخصياً؛ أن لا أخبر أحداً عن هويته كمتبرع، ما دام حياً.

وفي إحدى زياراته لنا، عشية عيد الأضحى، نصحته بتقديم العون لواحدة من العوائل الفقيرة والمتعففة التي سكنت منطقتنا، وهي عائلة أبو علي الجنابي، فتوجهت معه إلى دارهم، وبعد أن وصلنا هناك، فوجئ الشيخ خطّاب بتعاسة أحوالهم، حيث كان المنزل الذي يسكنوه آيلاً للسقوط، تنخره الرطوبة، وأوضاعهم المعاشية تكاد تكون معدومة، فقدم لأبو علي مبلغاً كبيراً من المال، وأبلغه بضرورة مراجعته إلى فوج الشرقاط، ليجد لهُ عملاً مناسباً، بعدها علمت ان أبو علي وأبنه علي عملا بصفة طباخين في مقر الفوج الخامس بمدينة الشرقاط، وقد لاحظت تحسن أحوالهم الاقتصادية بعد ذلك، حيث كان أبو علي دائماً ما يتردد للصلاة في المسجد الذي كنت آم المُصلين فيه.

(1) المكالمة الهاتفية التي أجراها الباحث مع الدكتور يونس كامل احمد التكريتي، وهو حاصل على شهادة الدكتوراه في العلوم الإسلامية، وموظف في هيئة الوقف السني، من مواليد عام 1968م، أُجريت المكاملة بتاريخ 19/10/2022م.


صورة للشيخ خطّاب على ضفاف دجلة في الشرقاط عام 2006م.



صدق الدكتور يونس في ما رواه، فقد كنتُ شاهداً على عمل المدعو أبو علي وولده في بهو الضباط بمقر الفوج الخامس، حيث خصص آمر الفوج الشيخ خطّاب لكل منهم مبلغ 250 ألف دينار كمرتب شهري من فوائض الفوج، لمساعدتهم في إعالة أسرتهم وتحسين أحوالهم.

أستمر أبو علي بعمله مع ولده في بهو الفوج، حتى تم نقل الفوج إلى كركوك عام 2007م، وعلمت بعد ذلك أنّهُ عاد مع عائلته إلى مدينة الحلة.

تفاصيل الجريمة

نعود إلى رحلة الشيخ خطّاب الأخيرة، والتي انتهت بهِ مع زوجته وأبنيه الصغيرين في منطقة الحي العسكري بمدينة الحلة، والكلام لزوجته الشيخة أم صالح:

بعد أن أنهى الشيخ خطّاب اتصاله بأبي علي الجنابي، تلقى اتصالاً أخر من أم علي، فأخبرته أنها بانتظارنا على الشارع العام وسط مدينة الحلة، لتستقبلنا وتأخذنا إلى دارهم.

بعد حوالي عشر دقائق من الاتصال الأخير، وصلنا إلى الشارع العام في مركز مدينة الحلة، فوجدنا أم علي بانتظارنا، يرافقها شاب عشريني، علمتُ في ما بعد إنّهُ من جيرانهم.

كانت أم علي امرأةٍ تجاوزت سن الأربعين، سمراء، قصيرة القامة، ممتلئة الجسم، ترتدي عباءة سوداء، والشاب الذي يرافقها كان شديد السمار، سمين جداً، شعره مجعد، يرتدي ملابس رثة، أوحى لي مظهره إنّهُ من عائلةٍ شديدة الفقر.

وصلنا إلى دار أبي علي، فعلمت أنّهُ يقع في منطقة الحي العسكري، وسط مدينة الحلة، كان الدار متواضعاً جداً، فيه غرفتي نوم، وصالة للضيوف، مع صالة داخلية لجلوس النساء.

تناولنا وجبة العشاء في دارهم، بدا كل شيء طبيعياً، بعدها دخلت جارتهم، وهي والدة الشاب الذي كان يرافق أم علي، فطلبت اللقاء بالشيخ خطّاب للسلام عليه.

كان ترحيب جارتهم بالشيخ خطّاب مُلفتاً للنظر، رحبت بهِ بشكلٍ مبالغ فيه، دون معرفتها المسبقة له، الأمر الذي أوقد الشكوك والظنون في قلبي، لكن زيارتها لم تدم لأكثر من خمسة دقائق، إذ سلمت عليه ورحبت، ثم غادرت.

في تمام الساعة الثانية عشر ونصف صباحاً، كان الشيخ خطّاب جالساً مع أبي علي في صالة الضيوف، يُجري اتصالاتٍ هاتفيةٍ مع أهلهُ وأصدقائه، وخلال هذا الوقت تحديداً، خرجتُ من غرفة النوم أحملُ أبني الصغير، كي أغسل لهُ على مغسلتهم التي تقع داخل صالة

جلوس النساء، والتي تطلُ على صالة الضيوف، ففوجئتُ برجُلٍ ملثم، يرتدي زياً عسكرياً، وهو يضع مسدسهُ على رأسي، فقال لي فوراً وبالحرف الواحد، وبصوت منخفض جداً:

أشش!، إياكِ ان تنطقي بكلمة واحده، وإن تفوهتِ بحرفٍ واحد، سوف أُفجر رأسكِ بطلقةٍ من هذا المسدس!.

لاحظتُ وجود أنبوبٍ طويل على فوهة المسدس، وعلمت في ما بعد أنّهُ كان جهازاً يكتم صوت إطلاق النار من المسدس.

ولم تمض دقيقةً واحدة، حتى اقتحمت صالة الضيوف مجموعة مكونة من 8 مسلحين، جميعهم يرتدون الزي العسكري، خافين وجوههم بأقنعة، فأمسكوا بالشيخ خطّاب، طالبين منه الخروج معهم.

صعقني هذا الموقف، وانتابتني نوبةَ خوفٍ شديد، فلزمت الصمت، وظننتُ إنها مداهمة من قوة عسكرية حكومية، للتأكد من سلامة موقفنا الأمني، على غرار المداهمات التي كانت تنفذها قوات البيشمرگة الكردية على منازل النازحين العرب في كركوك.

شاهدتُ زوجي وهو يقاومهم رافضاً الخروج معهم، وسمعته يقول لهم بعصبيةً شديدة:

من أنتم؟ ماذا تريدون مِنّي؟ أنا المقدم خطّاب صالح الضامن، ماذا تريدون؟ من أنتم؟!، ولازالت نبرات صوتهِ خلال تلك اللحظات تُقرعُ في أُذني.

رفض الشيخ خطّاب الامتثال لطلبهم في اعتقاله، قبل أن يعرف هويتهم، وسألهم إلى أي جهةٍ أمنية تنتسبون؟ لكنهم رفضوا الإفصاح عن الجهة التي كانوا ينتمون إليها، وأصروا على اقتياده بالقوة وتحت تهديد السلاح.

فقاومهم بيديه وقدميه ولسانه، لكن كثرة أعدادهم، وحملهم السلاح مكنهم مِنه، لم تُخِيفَهُ أسلحتهم، لكنهم تمكنوا من جره إلى سيارتهم عن طريق قوتهم العضلية، وعددهم الكبير، بينما كان هو بمفرده دون أي سلاح، ليدافع به عن نفسه، وعنّا!.

أرغموا الشيخ خطّاب على الصعود في سيارتهم، وقاموا بتفتيش المنزل تفتيشاً دقيقاً، فسرقوا مصوغاتي الذهبية، وجهاز الهاتف النقال الخاص بي، بالإضافة إلى كافة أجهزة الهاتف النقال الخاصة بأصحاب الدار، كما أخذوا سيارته نوع **Toyota Highlander** موديل 2010م، وغادروا المكان على الفور.

بعد أن غادر الجُناة، وجهت السؤال الآتي لأصحاب الدار:

ما الذي حدث؟.

ما الجهة التي قامت باقتياد زوجي؟.

هل هم جيش أم شرطة؟.

خفض الجميع رؤوسهم، ولم يجيبوا على سؤالي!.

تكلمت أبنتهم الشابة آنذاك ببضعِ كلماتٍ فقالت:

هاي صدگ سواها، حسبالي دا يتشاقه. (لقد فعلها فعلاً، اعتقدت أنّهُ كان يمزح).

تدخلت والدتها على الفور، وآمرتها بالسكوت.

علمتُ فيما بعد، أن مؤامرةً حيكت ضد الشيخ خطّاب، وأن الشاب الذي كان يرافق أم علي (وهو جارهم) قد دبر عملية اختطاف واغتيال زوجي، حيث أبلغ بنت أبو علي، بأنّهُ سوف يختطف الشيخ خطّاب مع مجموعة مسلحة يعرفها، ثأراً لأخيه الذي قُتل في مجزرة سبايكر، وطلباً للفدية، كون المختطف شخصية مهمة ومعروفة على مستوى مناطق شمال غرب العراق!.

وفقاً للمعطيات التي تجمعت في ذِهني، من خلال ردود أفعال اصحاب الدار، وكلام أبنتهم، طلبت منهم إيصالي إلى أقرب مركز شرطة، كي أتقدم بشكوى وبلاغ حول حادثة اعتقال أو اختطاف زوجي من قبل مجموعة مسلحة، وبعد حواراتٍ بينهم، وافقوا على طلبي، فذهبتُ مع أم علي وأبي علي إلى مركز الشرطة هناك، بعد الساعة الثانية من صباح تلك الليلة التعيسة.

دخلنا إلى بناية مركز الشرطة، وهناك أبدى لي ضابط المركز احتراماً وتعاطفاً شديداً، وذلك قبل أن يسألني عن سبب مجيئي إلى المركز!، الأمر الذي أثار استغرابي، فوجه إلي الأسئلة التالية:

أنتم من اين يا أختي؟.

قلت: نحن من الشرقاط، غادرناها بعد دخول داعش، ونُقيم الآن في كركوك.

قال: وما الذي جاء بكم إلى الحلة في هذه الظروف؟.

قلت: كُنا في رحلة إلى كربلاء، فدعانا أحد معارف زوجي لزيارتهم، وهو المدعو أبو علي.

بعد الحديث الذي دار بيني وبين ضابط المركز، خضعتُ مع جميع أصحاب الدار للتحقيق، كان التحقيق مطولاً معي، وكذلك مع عائلة أبو علي، سألوني أسئلةً مفصله عن جميع أفراد أُسرة زوجي، إخوته وأقاربه، عملهُ قبل وبعد 2003م، علاقاتهُ الاجتماعية والسياسية، أصدقاءه وأعداءه، فأستمر التحقيق حتى الساعة الثامنة صباحاً.

بعد الساعة الثامنة والنصف صباحاً، فوجئتُ بدخول إخوة الشيخ خطّاب إلى القاعة التي كنت أنتظر فيها مع أولادي داخل مركز الشرطة، كانوا كل من حمد وعبد السلام، يُرافقهم أحد معارفهم، وهو من سكنة بغداد، وبعد أن شاهدوني، بدئوا بالبكاء، وقالوا:

لقد خسرنا أخانا وخيمتنا!!.

صُدِمتُ ببكائهم وكلامهم، إذ لم يخبرني أحد بخبر مقتله، وأغلب ظني كان أنّهُ تعرض إما للاعتقال من قبل القوات الأمنية، أو للاختطاف من قبل مجموعة مسلحه، وإنّهُ لابد أن يكون على قيد الحياة، وأن خروجه من ذلك الاحتجاز لابد أن يكون قريباً، لأني أعلم بأنّهُ لم يقترف أي ذنب يعرضه للقتل، علاوة على تقديمهِ للعديد من المواقف الإنسانية والوطنية، والتي أنقذ من خلالها أرواح عدداً من العراقيين، وبضمنهم أهل بغداد والوسط والجنوب، لكن استمرارهم بالبكاء والنحيب، أكد لي أن زوجي قد فارق الحياة!.

في ما بعد، علمتُ أن زوجي قد قُتل بعد دقائق من اختطافه على يد تلك المجموعة المسلحة، إذ قاوم أفرادها، فاطلقوا عليه النار، ورموه في ساحةٍ عامة وسط شارع ثمانين في منطقة الحي العسكري بمدينة الحلة، على بعد مئات الأمتار من منزل أبي علي!.

مقاومة الشيخ خطّاب

لعصابة الخطف والاغتيال

قاوم الشيخ خطّاب عناصر تلك العصابة الإجرامية الغادرة في مدينة الحلة، بشجاعتهِ وشراستهِ المعهودة، قاومهم بعد دقائق من اختِطافهِ قائلاً[1]:

أيها الجُبناء؛ تختطفوني كي تساوموا أهلي على فدية ثم تقتلوني، أقتلوني الآن أيها الأنذال، فأبرحهم لكماً وركلاً وشتماً حتى قُتِلَ على أيديهم الآثمةِ بشرفٍ وعز.

في ذلك الموقف الرهيب، أثبت الشيخ خطّاب أنّهُ هو نفسه المقدم خطّاب، الذي تصدى للإرهاب في الشرقاط ومُحيطه، وشكل أولى أفواج الجيش العراقي في شمال غرب العراق، متحدياً التنظيمات الإرهابية عام 2004م، فنجح في تحقيق الأمن والسلام، ولم تُثنِ عزيمته وهمته عدة محاولات للاغتيال، على يد تنظيم القاعدة الإرهابي.

(1) المكالمة الهاتفية التي أجراها الباحث مع الدكتور جميل حسين الضامن، وهو أبن عم الشيخ خطّاب، ومحامي الدفاع في قضية اختطافه واغتياله، حاصل على شهادة الدكتوراه في القانون، من مواليد عام 1962م، أُجريت المكالمة بتاريخ 9/ 10/ 2022م.

دور النائب مشعان الجبوري

في تعقب الجُناة وتقديمهم للعدالة

تأثر النائب مشعان الجبوري على الغدر بأبن عمه وصديقه وسنده الاجتماعي في تلك الجريمة النكراء، فتحرك على الفور في سبيل كشف خيوطها والتعرف على مرتكبيها، وتقديمهم إلى القضاء لينالوا جزائهم العادل، ونتيجة لكونهُ نائباً في البرلمان العراقي آنذاك، ولأتساع علاقاته ونفوذه السياسي، ولشجاعته، تمكن من متابعة القضية عن طريق التحقيق مع أهل الدار، فكشفت التحقيقات أن العقل المدبر الرئيسي للجريمة هو أبن جار أبي علي الجنابي، والذي كان يرافق أم علي عندما استقبلتهُ كما ذكرنا، وبعد إلقاء القبض عليه، أعترف للمحققين عن أسماء العناصر التي ارتكبت الجريمة، وجميعهم كانوا منتسبين إلى إحدى الفصائل المسلحة التي شُكِلت حديثاً آنذاك.

لم تتمكن قوات الشرطة في محافظة بابل من تنفيذ مذكرات القبض ألتي أصدرها القضاء بحق الجُناة، كونهم منتمون إلى فصيل مسلح، فتوجه النائب مشعان الجبوري فوراً إلى أرفع قيادات الحشد الشعبي حينها، وهو **أبو مهدي المهندس**، وخلال لقاءه بالمهندس، أخبرهُ عن حيثيات الجريمة وتفاصيلها، وأسماء مرتكبيها، والجهة التي ينتمون إليها، وقدم لهُ تقريراً موجزاً عن سيرة حياة الشيخ خطّاب، وعن إنجازاته الأمنية والوطنية، فأدان أبو مهدي المهندس مرتكبي الجريمة، ووعد النائب مشعان الجبوري بتسليم الجُناة إلى القضاء في أسرع وقت، وقد أوفى المهندس بوعده، حيث قامت قوة تابعة لأمن الحشد الشعبي باعتقال بعض الجُناة، وسلمتهم إلى القضاء في محافظة بابل بتأريخ الثامن والعشرين من تشرين الثاني / نوفمبر 2015م، حيث تم تصديق اعترافاتهم أمام القضاء في اليوم التالي، وقبل أن يوارى

جسد الشيخ خطّاب الثرى في قضاء العلم بمحافظة صلاح الدين في التاسع والعشرين من تشرين الثاني / نوفمبر عام 2015م.

أستمر النائب مشعان الجبوري بمتابعة القضية عبر القضاء، وأفشل جميع محاولات ذوي الجُناة في دفع فدية مالية مقابل الصلح والتنازل، حيث طرد جميع الوفود التي أرسلوها إليه في سبيل ذلك، بعد أن أبلغهم أن حياة أخيه الشيخ خطّاب لا يمكن أن تُشترى بمال، وأن الجُناة يجب أن يدفعوا ثمن جريمتهم النكراء والغادرة، من خلال القضاء.

بعد مرور حوالي ستة أشهر على تاريخ اقتراف الجريمة، وبتأريخ السابع والعشرين من حزيران / يونيو عام 2016م، صدرت أحكام الإعدام شنقاً حتى الموت حضورياً بحق ثلاثة من الجُناة الذين تم ألقاء القبض عليهم وصدقت اعترافاتهم قضائياً، وهم كل من:

1. **المُجرم رائد جواد كظوم.**
2. **المُجرم حسين عايد جميل عبود.**
3. **المُجرم فؤاد محمد صخيل.**

كما صدرت فيما بعد أحكام غيابية بالإعدام شنقاً حتى الموت بحق بقية المشتركين في الجريمة، إذ غادروا العراق إلى سوريا مباشرة بعد كشف خيوطها، بينما برئت المحكمة جميع أفراد عائلة أبو علي، ولازال المجرمون الثلاثة يقبعون في زنزانات الإعدام، في سجون وزارة العدل العراقية حتى لحظة كتابة هذه الكلمات، نتيجةً لرفض رئاسة الجمهورية المصادقة على أحكام الإعدام، في هذه القضية، وغيرها من القضايا الإرهابية.

محاولات ذوي الجُناة التوسط لعقد الصلح مع عائلة الشيخ خطّاب

حاول ذوي الجُناة التوسط مع عائلة الشيخ خطّاب لدفع مبلغ مالي كبير، مقابل التنازل عن أبناءهم، تمهيداً لإطلاق سراحهم من خلال شمولهم بالعفو العام الذي يشترط وقوع الصلح مع ذوي المقتول، والتنازل عن المدانين بقضايا الخطف والقتل، وقد ساعدهم في ذلك بعض الأدنياء، طمعاً في الحصول على نسبةً من تلك الأموال السحت، وهي نسبة من مبالغ الصلح يحصلون عليها مقابل توسطهم في حل النزاعات، أطلق أولئك السماسرة على أنفسهم لقب شيوخ، وفي الحقيقة لم يكونوا سوى مجموعة من المرتزقة والشحاذين، إذ أن الجريمة التي أُقترِفت بحق الشيخ خطّاب لا تقبلُ الصلحَ ولا التنازل، فهي جريمة إرهابية غادرة ارتُكِبت ضد رجُل بريء، وهي بطبيعة الحال لا تندرجُ ضمن حوادث القتل الخطأ أو غير المتعمد، ولا حتى القتل خلال شجار مدني أو عشائري، وفي هذا المجال، لابد من التمييز بين ثلاثة أنواع رئيسية من جرائم القتل:

فأولها: جرائم القتل المتعمد مع سبق الإصرار والتخطيط والترصد، والتي يقترفها الجاني بكامل قواه العقلية، ومنها جرائم (السطو المسلح التي ينجم عنها جريمة قتل، جرائم الخطف والاغتيال بشتى أنواعها، جرائم إطلاق النار على شخص أعزل وقتله، وغيرها الكثير).

وثانيها: جرائم القتل الخطأ دون سبق تخطيط وقصد، وتشمل (حوادث الدهس، إطلاق النار بالخطأ، وغيرها من الحوادث غير المتعمدة).

وثالثها: القتل دفاعاً عن النفس والمال والعرِض، ومنها (جرائم القتل خلال المشاجرات، مقاومة ربُ المنزل لهجوم لصوص على داره، ومقاومة الشخص لخطرٍ أو هجوم تعرض لهُ وغيرها).

والنوع الأخطر على مجتمعاتنا، والأجدر باهتمامنا بهدف ردع الجُناة والقصاص منهم، هو النوع الأول من هذه الجرائم، ألّا وهو القتل المتعمد مع سبق الإصرار والتخطيط والترصد.

فالديةُ التي تُدفع عن القتل الغير متعمد أو الخطأ، وعن جرائم القتل بهدف الدفاع عن النفس والمال والعرض والشجارات، يمكن اعتبارها تعويضاً مادياً لذوي القتيل، مُقابل الصلح مع عائلته، حيث أن القاتل كان مُضطراً (في حالات الدفاع عن النفس)، أو غير قاصداً للقتل (في حوادث القتل الغير متعمد والخطأ) أو مختلٌ عقلياً في بعض الحالات.

أما بالنسبةِ لجرائم القتل العمد مع سبق الإصرار والترصد واكتمال العقل، والتي يكون الجاني فيها قد خطط لجريمته بهدف الخطف، والاغتيال، وطلب الفدية والإرهاب، فأزهق روح الضحية دون أي ذنب، فالدية هنا تصبح في محل الرشوة لذوي المقتول، في سبيل التخفيف عن القاتل، وأطلاق سراحه.

كما أن الديةَ في النوع الأول من جرائم القتل التي ذكرناها، تُعتبر ثمنٌ بخس يدفعه القاتل أو أهله لذوي القتيل مقابل التنازل عنه قضائياً، وتخفيف ألحكم القضائي الصادر بحقة، وهو الإعدام شنقاً حتى الموت بلا جدل، والسماح لهُ بالخروج من السجن والعودة إلى دياره.

ومهما كَبُر مبلغ الدية أو صَغُر، وأيً كان مصدره، ومهما سال له لُعاب ورثة القتيل (في بعض الحالات)، ممن نقموا عليه واسترخصوا روحه، ومهما تحايل على ذويه القوادون ممن

يرتدون العقال الرخيص، ويدعون المشيخة الزائفة، فأن روح القتيل البريء المعتدى عليه دون حقٍ تبقى ثمينة، وأغلى من كل أموال الكون، ولأن سالتكم كم تساوي أرواحكم؟، لأجبتم بالمثل!.

وفي هذا الصدد؛ أدعو جميع ذوي القتلى من النوع الأول إلى التمسك بحكم القضاء، وعدم التنازل عن قاتلي آبائهم وذويهم مهما كان الثمن، فالنبيل لا يبيع شرفه بأموال الدنيا.

وعلى أيةِ حال، فقد تم طرد جميع الوسطاء من قبل إخوة الشيخ خطّاب وأبناءه وأبناء إخوته وعشيرته، بل من معظم أهل الشرقاط، فباءت جميع محاولاتهم ومحاولات من أرسلهم بالفشل، كما فشَلت من قَبل على يد النائب مشعان الجبوري، واليوم؛ تنتظر عائلة الشيخ خطّاب ومُحبيه، بل وجميع الشرفاء والأصلاء في العراق تنفيذ أحكام الإعدام بحق الجُناة بفارغ الصبر، بضمنهم المجرمون الفارون عن العدالة خارج العراق وداخله.

مجالس العزاء التي أُقيمت للشيخ خطّاب

كانت مدينة الشرقاط ترزحُ تحت احتلال العصابات الظلامية لتنظيم الدولة الإسلامية عندما نُفذت جريمة اغتياله، وكان جزء كبير من أهالي الشرقاط مهجرون في كركوك وأربيل وتكريت، فحرِصوا على إقامة مجالس عزاءٍ لهُ حيثما تواجدوا، نتيجة لذلك، أُقيمت عدة مجالس عزاء للشيخ خطّاب، حيث أقامت عائلته مجلس عزاء في كركوك (حي الواسطي) في دار السيد ليث عيسى عبيد الضامن، وقد كنت مشرفاً على ذلك العزاء بنفسي، كما أقام أهالي قرية التل وبعض إخوته عزاءاً آخر للشيخ خطّاب في مدينة أربيل، وأقامت عائلة الجبارة عزاءً للشيخ خطّاب في ناحية العلم (إذ تم دفن جثمان الشيخ خطّاب هناك مؤقتاً)، كما أقامت عائلة الشيخ خطّاب عزاءاً في مدينة تكريت حيث داره الثاني، وأخيراً أقام النائب مشعان الجبوري عزاء للشيخ خطّاب في بغداد، وتحديداً في جامع أبن بنيه.

وبهذا يكون عدد مجالس العزاء التي أُقيمت للشيخ خطّاب هو خمسة مجالس عزاء في آنٍ واحد، إلّا أن أضخم تلك المجالس كان مجلس العزاء الذي أُقيم في كركوك، نتيجة لوجود نسبة كبيرة من أهالي الشرقاط هناك.

الآثار الاجتماعية لرحيل الشيخ خطّاب الضامن

تركَ رحيل الشيخ خطّاب الضامن آثراً عميقاً في نفوس كل من عرفه وعاصره، ليس من اصدقاءه ومحبيه فحسب، بل من أعداءه وحاسديه أيضاً، وذلك لما تميزت به شخصيته من صفاتٍ نادره، منها الصبر على الخصوم ومسامحتهم، وعدم رد الأذى بمِثلِه، والعمل دائماً على تجاوز الخلافات وفتح صفحات جديدة، ومد يد العون للجميع، علاوة على احترامه وتقديره الشديد للناس، وفي هذا المجال روى لي أحد الأصدقاء، أنّهُ شاهد واحداً ممن أوشوا بالشيخ خطّاب للقوات الأمريكية عام 2007م، وهو يبكيه بحرقه خلال اليوم الأول من مجلس عزاءه في أربيل، وقد شاهدتُ أنا شخصياً أحد معاديه وهو يبكيه في الشرقاط، بعد أن تم نقل جثمانه إليها عام 2017م.

كما أوقد رحيل الشيخ خطّاب النور في الكثير من النفوس التي كانت مُظلمة في مجتمع الشرقاط ومحيطه، بالرغم مما كانت تمتلكه من مقومات قوة ونجاح، فدبّت فيها الحياة، مستلهمةً من سجاياه ومواقفه ومآثره طاقةً إيجابيه لفعل الخير وإكرام الناس، والعمل على إصلاح ذات البين، والتواصل مع أطراف المجتمع، فشاهدتُ شخصياً العديد من أقرانه في العمر، وهم قد بدأوا بارتداء الزي العربي، يبنون المضايف ويعملون على تقديم الخير والإصلاح، بعد أن كانوا منزوين عن المجتمع في زوايا مُظلمة، وبهذا فأن رحيله كان بمثابة ولادةٍ جديدةٍ للكثير من النفوس الميتة.

أما بالنسبة للشباب والأجيال الناشئة، فقد أخذت تتَبع مسارات حياته، وتحفظ مواقفه البطولية ووقفاته النبيلة، وترددُ أبياتً من الشعر قالها، وقيلت لهُ وفيه، وهو بهذا أصبح منارةً تستنيرُ بها الأجيال وتحثُ الخُطى نحوها، وللتعبير عن هذا، لي أن أستشهدُ بأبياتٍ قالها

الشاعر الكبير عبد الرزاق عبد الواحد رثاءً لشاعر العرب الأكبر محمد مهدي الجواهري، إذ يقول:

وهل تُوفيِّتَ فعلاً، أم ولِدتَ بهِ؟!

إنّي رأيتُكَ مِلْءَ الموتِ مُنتَصبا

حتى لقد ضَجَّتْ الدُّنيا بها نَشبَتْ

أظفارُ مجدِكَ فيه لا بها نشِبا!.

التشييع الأول للشيخ خطاب في قضاء العلم

ووري جثمان الشيخ خطّاب الثرى في قضاء العلم شرق مدينة تكريت في صباح التاسع والعشرين من تشرين الثاني / نوفمبر عام 2015م، وذلك نتيجةً لاحتلال عصابات تنظيم الدولة الإسلامية لمدينتهِ الأم الشرقاط، وقد ووري الثرى بعد أن تم إلقاء القبض على بعض الجُناة المشتركين بجريمة اختطافه واغتياله، وبعد أن صُدِقت اعترافاتهم أمام القضاء العراقي.

كُنت حاضراً، وكانت مراسيم تشييعه مهيبة، شارك فيها المئات من أبناء الشرقاط وتكريت والعلم، بضمنهم أقاربه وبعض أصدقاءه المتواجدون خارج المناطق التي كانت محتلة من قوى الإرهاب، فبكاهُ الجميع وبِحرقه، أذكر منهم المقدم الركن خلف ظاهر عبد الجادر الجبوري، فتحدث والدموع تنهمر من عينيه ومن عيون جميع الحاضرين قائلاً:

"هكذا يجب أن يموت الشُجعان والكِرام، هذه هي النهايةِ التي تليقُ بِك أيُها البطل، كُنتَ فارِساً مِغواراً وقاتلت بشجاعة في جميع حروب العراق، دافعت عن الأرض والعرِض بلا هوادة ولا استكانة، فلا يجوز لك أن تموت على فراش العجز والمرض....

الوداع أيُها الفارس، الوداع أيُها الكريم..."

نقل جُثمان الشيخ خطاب

من العَلم إلى الشرقاط

تحررت مدينة الشرقاط من براثن العصابات التكفيرية الظلامية في الرابع والعشرين من أيلول / سبتمبر عام 2016م، بدِماء وجهود أبناء العراق من جميع صنوف القوات المسلحة العراقية، فتم بعدها نقل جُثمان الشيخ خطاب إلى مدينة الشرقاط في التاسع عشر من أيار / مايو عام 2017م.

عند وصول الرتل الذي كان يحمل جثمان الشيخ خطاب إلى مدخل مدينة الشرقاط الجنوبي، كانت جموع من الأهالي في استقباله للمرة الثانية، بعد أن استقبلتهُ واحتفت بهِ للمرة الأولى عندما تحرر من سجون الاحتلال الأمريكي عام 2008م، لكن ظروف هذا الاستقبال اختلفت عن ظروف الاستقبال الأول، فقد كان الحُزن سيد الموقف، والدموع تغمُرُ عيون المستقبلين، فردد العديد منهم العبارات الآتية:

الله يحييك بديرتك يا بطل، شرفت الشرگاط، الله يحييك، الله يحييك...

الجميع كان يتعامل معهُ وكأنّهُ حيٌ يُرزق، يرحبُ بهِ ويذرف الدموع، فكانت مراسيم تشييعه الثاني أكثر هيبةً وأشدُ حزناً من مراسيم تشييعه الأول، فشارك فيها المئات من الشباب والشيوخ، وألقى فيها الشعراء العديد من القصائد التي رثوه من خلالها.

الحفل التأبيني

الذي أُقيم لذكرى الشيخ خطّاب

بمناسبة مرور الذكرى الثانية لرحيل الشيخ خطّاب الضامن، أقام مُنتدى الشرقاط الثقافي حفلاً تأبينياً مهيباً تخليداً لذكراه، وذلك في مضيفه بمدينة الشرقاط، بتأريخ الخامس والعشرين من تشرين الثاني / نوفمبر عام 2017م.

وقد تضمن الحفل إلقاء كلمات لبعض شيوخ ووجهاء عشائر الشرقاط، أكدوا من خلالها على ضرورة التمسك بالقيم الاجتماعية السامية التي دعا إليها الشيخ خطّاب وطبقها خلال حياته، **ومن الكلمات التي أُلقيت خلال ذلك الحفل المهيب:**

1- كلمة لعشيرة الجميلة، ألقاءها السيد خضر الحجلات.

2- كلمة لعشيرة اللهيب ألقاها الشيخ حسين يوسف الزويد.

3- كلمة للواء الركن المتقاعد محمود خضر شرقي الجبوري.

4- كلمة للدكتور حسين الجعاطة الجبوري.

كانت مشاركة شعراء الشرقاط وأُدباءها وشيوخها فاعلةً في الحفل، حيث ألقوا مجموعة من القصائد والكلمات تكريماً للشيخ خطاب، وفيما يلي قائمة بأسماء الشعراء والادباء الذين شاركوا في الحفل:

1. الشاعر الشعبي عواد التبان.
2. الشاعر والأديب جمعة الشرار.
3. الشاعر الشعبي محمد الجلال.
4. الاديب الدكتور موسى الحوري.

5. الشاعر الدكتور نضال العياش.
6. الشاعر الدكتور سعد جرجيس.
7. الشاعر الشعبي حسن الثامر.
8. الأديب فهد مبرد الدوخي.
9. الشاعر عبد الرحمن احمد الثامر.
10. الأديب مثنى العيسى.

وهذا نص الكلمة التي ألقاها الأديب مثنى العيسى [1]:

" ما عرفناك تردُ حاجة الناسِ إليك، ها هم أهلُكَ بأمسِ الحاجةِ لحكمتكَ، لبسالتكَ، لمواقِفك الشاهقةِ كَعِقالك.

خطّاب؛ أينك الآن يا إمام الكِرام؟.

شرقاطُك عادت، وناسُكَ ومُحبيك عادوا فمالك لا تأتي؟.

حزّم خريفَ أيامنا بزهورِ حُبكَ وزهو عطائِكَ وتعال، مُكملّاً للوحةِ نصرنا، متمماً لضحكاتِ أفراحِنا، لنا دينٌ عليك فرده.

حِكمتكُ التي علمتَنّا طعمها، وغابت بين الدمع والدم، كل المراثي والحروف والقصائد تتعطلُ أمام ذِكراك، تتقزمُ أمام إنسانيتك.

خطّاب؛ نهر ترافةٍ، صفاءُ القلب، عنوان السماحةِ، آل الشموخ، أينك يا صديقي؟، أينك يا صديقي حان الآن موعد النصر، فارفع رايات الصُلحِ والحِكمة.

خطاب؛ مع أيّ فجرٍ ستأتي؟، ومع أيّ موجةٍ أنتظرك؟.

---

(1) مقطع فيديو للأديب مثنى العيسى خلال إلقاءه للكلمة المذكورة خلال الحفل التأبيني، منشور على موقع الفيس بوك بتاريخ 26/ 11/ 2016م، رابط الفيديو: . https://www.facebook.com/

ها هو فجرُ شرقاطُكَ يعلو مع شمسِها، فقُم معاً، نُزيحُ عن وجوهِ أطفالنا حُرقة الجوع وكثُر الحرمان، قُم نُعيدُ أُسس مجالس ألف هلا ويا مرحبا بالجاي، قُم قبل فوات أوان الضحكِ والفرح.

ها أنا أراكَ تقودُ الضُوء وأنت تتعتلي سلّالم الكَرمِ نحو الخُلود، وتملئُ المكانَ بالضحكِ والفرح، ها أنا اراك قمراً وهاجاً يُقاسم النجومَ أحزمة اللون.

خطّاب؛ تعال، أما كفاك صد؟، أما كفاك هجر؟، كل ما حولي يسالُني عنك، تشتهيكَ القصائدُ قافيةً مفتوحةٌ، تفتقدُك المجالسُ حكمةً رصينةً ماطرةً بالسماحةِ والعفو.

خطّاب؛ شرقاطُك عادت، فما لك لا تعود يا صديقنا الجميل؟.

أقبل يا سيدي واقطع وريد الغياب، دعنا نُكمل حِلمنا الأول، نبثُ ترددات السلامِ والطيبةِ، ثُم أمضي نحو عالمك الكبير، فمكانك مع الكبار، مكانك مع الكبار".

صور من الحفل التأبيني الذي أُقيم لذكرى الشيخ خطاب الضامن






كم وصَفوك وكم اعلوك يا رجلا
فوق التواصيف لا تحويك ألقابُ
إلا إذا قلت يا خطاب عندئذٍ
تحلو المعاني فخير الوصف خطاب...
بمناسبة الذكرى الثانية لاستشهاد
الشيخ خطاب صالح الضامن
يقيم منتدى الشرقاط الثقافي حفلا" تأبينيا"
لاستذكار القيم السامية في مسيرة حياة
الشهيد والتي ساهمت في تعزيز السلم الاجتماعي
وتعزيز الأمن في مدينة الشرقاط وذلك في تمام
الساعة الثالثة عصر يوم السبت الموافق
٢٥_١١_٢٠١٧ في مضيف الشيخ خطاب الضامن
الكائن في قرية التل .والدعوة عامة للجميع

أولاد الشيخ خطاب الضامن

تزوج الشيخ خطّاب من ثلاثة زوجات كما ذكرنا، وقد أنجب مِنهن إحدى عشر ولداً، وفي ما يلي تفاصيلهم.

1. عمران خطّاب صالح، من مواليد عام (1987م)، ولده لزوجته الأولى، حاصل على شهادة البكالوريوس في الاجتماع، يعمل منتسباً في استخبارات شرطة الشرقاط.
2. محمد خطاب صالح، من مواليد عام (1989)، ولده لزوجته الأولى، حاصل على شهادة البكالوريوس في إدارة الأعمال، يعمل في المجال التجاري.
3. طه خطّاب صالح، من مواليد عام (1992م)، ولده لزوجته الأولى، يعمل في المجال التجاري.
4. علي خطّاب صالح، من مواليد عام (1998م)، ولده لزوجته الأولى، طالب هندسة في المرحلة الرابعة، يدرس في جمهورية روسيا الاتحادية.
5. عبد السلام خطّاب صالح، من مواليد عام (2000م)، ولده لزوجته الأولى، طالب في كلية الادارة والاقتصاد، جامعة تكريت.
6. صالح خطّاب صالح، من مواليد عام (2001م)، ولده لزوجته الثانية، توفي بالعجز الكلوي عام (2016م).
7. بلال خطّاب صالح، من مواليد عام (2003م)، ولده لزوجته الثانية، طالب في الصف السادس إعدادي، الفرع العلمي.
8. ايوب خطّاب صالح، من مواليد عام (2005م)، ولده لزوجته الثانية، طالب في الصف السادس إعدادي، الفرع العلمي.

9. زين العابدين خطّاب صالح، من مواليد عام (2009م)، ولده لزوجته الثالثة، طالب في الصف الأول متوسط.
10. يعقوب خطّاب صالح، من مواليد عام (2010م)، ولده لزوجته الثانية، تلميذ في الصف السادس ابتدائي.
11. اسحق خطّاب صالح، من مواليد عام (2014م)، ولده لزوجته الثانية، تلميذ في الصف الثاني ابتدائي.

بعض القصائد الشعبية التي كُتِبت رِثاءً للشيخ خطّاب.

نثر وقصيدة رِثاء للشيخ خطّاب الضامن بقلم الشاعر نضال العياش

(وفي الليلةِ الظلماء يُفتقد البدرُ)

وفي ظَمأِ الشرقاط يُفتَقد النهرُ...

كلّما غابت شرقاطُك في غبارِ هذا العصر الخائن

حضرتَ أنت مُبشّراً بنصرها الأكيد ...

فلا أستطيع أن أجتازَ ملامحَك ومواقفَكَ

ووصاياك لي ...

(الشرقاط أمأنتنا ومعركتنا المقدسة ولن يطولَ ليلُها)

هكذا كنت تقول لي ...

لذا اكاتبك ....

وسأبقى أكاتِبُك ...

وسأتحرّش بأبديتك كثيراً ...

ولن أنسى حين كانت المدنُ مطفأةً بالإرهاب جعلت من الشرقاطِ جزيرةَ ضوءٍ ببندقيتِك التي لاتنام ...

نعم إني افتقدكُ ياصديقي ....

وأنا لست أرثيك فأنت فكرةٌ عراقية مضيئة نريدها مثالاً لأجيالنا القادمة ...

والأفكار لا تموت ..

لا تموت يا صديقي ...

خطّابُ شرقاطُك السمراء ترتحلُ

فاحضر لأهلكَ أرضاً أيها البطلُ

وارمي (عباتَكَ) فالصحراء تشرَبُهم

وهم سقايةُ كلّ الناسِ إن وَشَلوا

إنّا نناديك نهراً فالمدى عطشٌ

وأنت مَهديُّنا المنصورُ والأملُ

فكيف تغربُ والشرقاطُ مشرِقةٌ

في ذا الضياعِ ترامى فوقَه الشَمِلُ؟

أنّى تغيبُ وأرضُ الخُبزِ مُشرعَةٌ

للإرتحالِ وأهل الخيرِ قد خُذِلوا ...؟

وأنت فارسُها المهيوبُ يذكُره

خطفُ الرصاص على جنبيه يشتعلُ

خَطّاااااابُ

ويح بلادي كيف غاب بها

وجهٌ به سيرةُ الأبطال تُختَزَلُ ؟

خطّاااااب

قد هانت الدنيا وهان لها

بيتُ الكِرام تَسرّى حُلمَه الشَلَلُ

ياكم نُناديك فالأيام تطحنُنا

وقدّ تَداعى علينا الدونُ والنذِلُ ...

لم يكسرونا معاذَ المجدِ إن بنا

وجهَ العراقِ العظيم الـ فيهِ نكتملُ

حتى وإن ساكنَتنا الحربُ نحنُ لها

قذائفُ الموتِ في أجسادنا قُبَلُ

حتى وإن أرخصَتنا العادياتُ وإن

تقاسموا دمَنا الأفرادُ والدولُ

حتى وإن فرقتنا الحربُ في مدنٍ

وأُسدِلت دونَنا الآفاقُ والسـُبُلُ

نبقى جبالاً ولا ننسى هوّيتَنا

بالرافدين لأقصى النخلِ تتّصلُ

سنعبرُ النارَ والشرقاطُ موعدُنا

وفي (زُبونِك) يوماّ يلتقي الأهل ......

قصيدة للشاعر بيج عبدالله الماجد.

ياالله يا علام في سر الامطار.

أنت العيم ابداخلي من احزاني.

أنت العليم وتعلم الصار وشدار؟.

وتعلم خفايا دموع حدر الأجفاني.

اشكي من اگليبن هجم داره أعصار.

اعصار بيه ارعود ثگل المزاني.

باتت تنانير الوجل بيه سوار.

وعانت خطايب عمرها ما تعاني.

ما عاد خلت عندنا طيبة اثمار.

گاطع رجاي امن الثمر يوم جاني.

بس اني اگول لك ضگت حوبتهم امرار.

هذا كلامٌ ما يختلف فيه ثاني.

هاها واگول لك شفت باركان الديار.

بومٍ املولع بيه طيب الأشجاني.

راحوا من ايدي ربع شبان وبصار.

ربعن ثمين وفوگ كل الاثماني.

بيهم حمية حيدر ارجال كرار.

الضيغم الي على الحرب ما يواني.

ابيوم الملاگا اعيونهم تجدح ازرار.

ووكت السلم تلكَا هريف الصياني.

خطّاب؛ دلال الكرم سيل هدّار.

لو شاف حاجة صاحبو ما يتاني.

وخطّاب؛ يا حلو الطبايع والادوار.

ما يوم منو عالرديات باني.

وخطّاب؛ حاز بمودة اشيوخ وزغار.

رجلن أمين وفيه كل المعاني.

وخطّاب؛ ذيبن لا لانت الدار بالدار.

ينحر مهب الريح چفل الارداني.

وخطّاب؛ يا ذخر ام الشناشيل واسوار.

أمعرب شهم وجواد حلو السواني.

وخطّاب؛ على روس المعادين مسمار.

ما ينثلم لو جار بيه الزماني.

وخطّاب؛ على ابواب المسيئين منشار.

بيوم الحرايب ما يحل العناني.

وخطّاب؛ ضرغام الحرب فيه شيار.

ما ينگحم عند الخطوب المحاني.

وخطّاب؛ سيفن ان عدوا اسيوف مشطار.

واليگحمو يحظى برخيص الاچفاني.

وحكنا عگبكم نضرب الدار بالدار.

ونمحي أساس اركانها وبثواني.

تگصر بوصفك جُمل والفاظ واشعار.

وتحلى بلفظكم طيب حلو المعاني.

يا للأسف يا خوي خانتك الاقدار.

أنت الحليم الذي ما تبطلك اجباني.

خليت حالي مثل مچتوف الابيار.

من غير شوفك اضن ماشوف ثاني.

وحمول همي ثجيله بگدر سنجار.

وتميت افرجل بها اني وزماني.

يا ربي ترحم الصاحب الشرك بالدار.

وتجعل لنا مثواه طيب الاجناني.

أنت العظيم ومنك الذود مهمار.

وينام تحت ظلالتك عالمثاني.

ابجاه النبي المختار واخيار الاخيار.

طه المُشفَع فيه تحلى الأماني.

قصيدة للشاعر جمعة الشرار.

شكثر محتاج طلتك وشعجب ما طلت ؟ (لماذا لم تطلُ علينا).

يل صورة وحده عشت ما بدلت ما طلت (لم تتلون ولم تغير مواقفك).

اديت حگن عليك والربع ماطلت (غيرك ماطل ولم يؤدي الحقوق لغيره).

سجل التأريخ اسمك من ذهب خطه. (كتب التأريخ اسمك بحروف من ذهب).

يا زير مهيوب في سوح الوغى خطه (يشبهه بالزير سالم وهو يسير في المعارك).

يا صگر الصگور خطوا لك ألف خطه (خطط اعداءك لقتلك يا صقر مرات عديدة).

وعزيت روحي الزهور اشما زهت ما طلت (مهما زهت الزهور فان عمرها قصير).

قصيدة للشاعر محمد الجلال.

ماصدگ تموت وياكلك دود.

ولا اصدگ غترتك جاسها اتراب.

بعد ريحة زبونك مالية الحوش.

مشتاگ اعلى طولك ينشد الباب.

مثل كومة يتامى احنا بلياك.

واليهم صلف وبديرة اجناب.

يسوم الجوع بيهم والوكت عوز.

محتاجين فزعة وما مش اصحاب.

يدك ذيب الغدر وبيكفه يختار.

مثل كوزة غنم ما للها مهزاب.

نرگب تا نشوف تراب الفزاع.

هيج احنا صفينا بدون خطّاب.

عجيد وبالمحافل دوم خطّاب.

أخي ميت بعد منشد أخي طاب؟.

بعد عينك ولا تسوى الوطيه.

المصادر والمراجع

1. احمد علي سلطان، موسوعة الدُر المنثور في ذكر في نسب وتأريخ قبائل زبيد والجبور، مكتبة علوم النسب، 2010م.
2. شبكة الجزيرة الإعلامية، العراق من رائد في التعليم إلى أكثر البلدان نقصا بعدد المدارس، تقرير منشور على موقع شبكة الجزيرة بتاريخ 14/ 7/ 2019م متاح على الرابط التالي: https://www.aljazeera.net/news/politics/2019/7/14
3. المقابلة الشخصية التي أجراها الباحث مع السيد خالد عبد الرحمن خضر، وهو من مواليد عام 1983م، أُجريت المقابلة بتاريخ 28/ 10/ 2022م.
4. المقابلة الشخصية التي أجراها الباحث مع السيد عبد السلام صالح ضامن شقيق الشيخ خطّاب، وهو من مواليد عام 1972م، أُجريت المقابلة بتاريخ 6/ 10/ 2022م
5. المقابلة الشخصية التي أجراها الباحث مع السيد فياض عبدالله حسين الچحيان، وهو من أهالي قرية الزوية من مواليد عام 1950م، كانت عائلته، أُجريت المقابلة بتاريخ 30/ 9/ 2022م
6. المقابلة الشخصية التي أجراها الباحث مع الشاعر الشعبي السيد محمد جلال السبع اللويزي، وهو من مواليد عام 1972م، أُجريت المقابلة بتاريخ 19/ 10/ 2022م.
7. المقابلة الشخصية التي أجراها الباحث مع الشيخة ميسون ابراهيم سحل الطوير زوجة الشيخ خطّاب، أُجريت المقابلة بتاريخ 21/ 10/ 2022م
8. المقابلة الشخصية التي أجراها الباحث مع اللواء الركن خيرالله عيسى الجبوري، وهو من مواليد عام 1965م، أُجريت المقابلة بتاريخ 3/ 10/ 2022م.

9. المقابلة الشخصية التي أجراها الباحث مع المقاتل جاسم محمد جبر البوعبيدي، وهو من مواليد عام 1971م، أُجريت المقابلة بتاريخ 25/ 10/ 2022م

10. المقابلة الشخصية التي أجراها الباحث مع المقاتل طامي ركاض محجوب الروضان، وهو من مواليد عام 1980م، أُجريت المقابلة بتاريخ 31/ 10/ 2022م.

11. مقال للنساب أبو سلام خلف الحتحوت، منشور في صفحته الرسمية على الفيس بوك، منشور بتاريخ 1/ 4/ 2022 :

https://m.facebook.com/story.php?story_fbid=1413305585780801&id=100013041188285

12. مقال للنساب أبو سلام خلف الحتحوت، منشور في صفحته الرسمية على الفيس بوك، منشور بتاريخ 16/ 7/ 2021 :

https://www.facebook.com/search/posts/?q

13. مقطع فيديو للأديب مثنى العيسى خلال إلقاءه للكلمة المذكورة خلال الحفل التأبيني، منشور على موقع الفيس بوك بتاريخ 26/ 11/ 2016م، رابط الفيديو: https://www.facebook.com

14. المكالمة الهاتفية التي أجراها الباحث مع الدكتور جميل حسين الضامن، وهو أبن عم الشيخ خطّاب، ومحامي الدفاع في قضية اختطافه ومقتله، حاصل على شهادة الدكتوراه في القانون، من مواليد عام 1962م، أُجريت المكاملة بتاريخ 9/ 10/ 2022م.

15. المكالمة الهاتفية التي أجراها الباحث مع الدكتور يونس كامل احمد التكريتي، وهو حاصل على شهادة الدكتوراه في العلوم الإسلامية، وموظف في هيئة الوقف السني، من مواليد عام 1968م، أُجريت المكاملة بتاريخ 19/ 10/ 2022م.

16. المكالمة الهاتفية التي أجراها الباحث مع السيد اسماعيل خلف عيسى العنگود، وهو من أهالي قرية اسديره شرق الشرقاط، من مواليد عام 1972م، أُجريت المكالمة بتاريخ 18/ 10/ 2022م.
17. المكالمة الهاتفية التي أجراها الباحث مع المقاتل جمال عبد الكريم عطية العلوله، وهو من مواليد عام 1981م، أُجريت المكالمة بتاريخ 31/ 10/ 2022م.